



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي



مجلة المعارف

للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة

رقم الإيداع القاتوني: 51071-2015-471

ISSN 2437-0584

18



مجلة المعارف

للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية

العدد الثامن عشر - ديسمبر 2017

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مجلة المعارف
للبحوث و الدراسات التاريخية
ص - ب رقم : 789 . ولاية الوادي 39000 . الجزائر -
الهاتف / الفاكس 032223005
العنوان الإلكتروني:
el-maaref@univ-eloued.dz

إدارة المجلة

الرئيس الشرفي:

الأستاذ الدكتور عمر فرحاتي

مدير جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي. الجزائر.

recteur@univ-eloued

مدير المجلة :

الدكتور محمد السعيد محقوب ، نائب عميد الكلية المكلف
بالعلاقات الخارجية و التعاون والتنشيط و الاتصال و التظاهرات
العلمية.

maguieb@yahoo.fr

رئيس هيئة التحرير :

الأستاذ عمار غرايسه ، عضو هيئة التدريس بالكلية ،

agheraissa@yahoo.com

هيئة تحرير المجلة

د. نغانية البشير . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. رشيد قسييه . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. الجباري عثمانني . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. للال بن عمر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. عبد الحميد العابد . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. عبد القادر عزام عوادي . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

التعريف بالمجلة

من وحي الثورة الجزائرية المجيدة و في إطار الاحتفالات بالذكرى الستون المخلدة لها ، جاءت فكرة إنشاء هاته المجلة الموسومة بمجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية التي حازت على موافقة المجلس العلمي لكلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية لتكون فضاء متميزا للمعرفة . إذ المعرفة هي بلا شك الطريق الأنسب لمحاولة الاقتراب أكثر من الحقيقة التي هي أمل السالكين دروب العلم على أمل ملامستها في ظل أجواء الفكر الإنساني الحر و الذي لا يلتزم بغير ضوابط الموضوعية و الحقيقة المستندة للوقائع و الحقائق الثابتة.

إن مجلة المعارف تسعى لأن توجد لنفسها مكانا بين الدوريات التاريخية المتخصصة لتسهم بفضل جهود الأقسام المتألقة في فضاءها في الغوص في مجال البحوث و الدراسات التاريخية لتخرج بها نحو أرحب الآفاق الدالة على مدى قدرة التاريخ في الإسهام إلى جانب العلوم و المعار الأخرى في صناعة واقع الأمة انطلاقا من فهم واقعها و محاولة لرسم مستقبلها. و تبقى المعرفة التي جاء بها أول غيث الوحي السماوي خير ما تستهدي به البشرية في دروب الحياة .

المهبة العلمية الاستشارية

أ. د. إبراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية . الإمام محمد بن سعود الإسلامية المملكة العربية السعودية.	أ. د. إبراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية .
أ. د. أحمد صاري . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة	أ. د. أحمد شريقي . جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر .
أ. د. جمال حجر . جامعة قطر . قطر	أ. د. بن يوسف تلمساني . المركز الجامعي خميس مليانه .
أ. د. عبد الوهاب شالي . جامعة العربي التبسي . تيسة .	أ. د. صالح بوسليم . جامعة غرداية . غرداية .
أ. د. محمد حسن . جامعة تونس الأولى . تونس .	أ. د. علي آجقو . جامعة محمد خيضر . بسكرة .
أ. د. عمر حاج الزاكي . جامعة أم درمان السودان .	أ. د. علاوة عمارة . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة .
أ. د. وجدان فريق عناد . جامعة بغداد العراق .	
أ. د. جمال يحيوي . جامعة أبو القاسم سعد الله . الجزائر .	أ. د. بويه مجاني . جامعة قسنطينة 2 . قسنطينة .
د. العمري مومن . جامعة قسنطينة 2 . قسنطينة .	د. أحمد الباهي . جامعة القيروان . تونس .
د. أنور عوده عواد الخالدي . جامعة آل البيت . الأردن .	د. الوفي نوحى . جامعة محمد الخامس . المغرب .
د. بلقاسم ميسوم . جامعة محمد خيضر . بسكرة .	د. بشير فايد . جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين سطفى .
أ. د. خير الدين شترة . جامعة محمد بوضياف . المسيلة .	د. جمال بلفردى . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
د. رضوان شافو . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د. دلال لواتي . جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر .
أ. د. عاشوري قمعون . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د. طارق لعجال جامعة ملايا . ماليزيا .
د. عبد الكريم الماجري . جامعة منوبة تونس .	د. عبد الحكيم أروغي . جامعة فريبورغ . ألمانيا .
أ. د. علي غنابزية . جامعة الشهيد حمه لخضر .	د. علي بن سعد آل زحيفه الشهواني . جامعة ملايا

الوادي.	. ماليزيا.
د. لزهرة بديدة . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر .	د. عليان عبد الفتاح الجالودي . جامعة آل البيت . الأردن .
د. محمد الأمين ولد آن جامعة نواقشط . موريتانيا .	أ.د. لمياء بوقريوة . جامعة الحاج لخضر . باتنه .
د. محمد السعيد قاصري . جامعة محمد بوضياف . المسيلة .	أ.د. محمد السعيد عقيب . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
د. محمد عبد الرؤوف ثامر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د. محمد رشدي جراية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
د. محمد وادفل . جامعة قسنطينة2 قسنطينة .	د. محمد فرقاني . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية . قسنطينة .
د. هيو عزيز سعيد . جامعة السليمانية . العراق .	د. نواف عبد العزيز الجحمة . الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب . الكويت .
د. يوسف نبي ياسين . جامعة قطر . قطر .	د. ودان بوغفالة . جامعة معسكر . معسكر .
د. علي الريامي . جامعة السلطان قابوس . سلطنة عمان .	د. أحمد عبد الدايم محمد حسين . جامعة القاهرة . مصر .
د. نجيب بن خيرة . جامعة الشارقة . الإمارات العربية المتحدة .	د. مبارك جعفري جامعة أحمد دراية . أدرار .
أ. Juan Castilla Brazales خوان كاستيه برائلس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .	د. ناصر بالحاج . جامعة الحاج لخضر . باتنة د. اسماعيل وارشيد EH SS ismail warscheid فرنسا . أ. Juan Castilla Brazales خوان كاستيه برائلس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .
د. البشير غانية . قسم العلوم الانسانية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي	د. Augustin Jomier أوغسطين جوميه (fondation thiers – cnrs/ce rhio) جامعة لومان . فرنسا .

قواعد النشر بالمجلة

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

- 1- أن تكون المادة المرسله للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.
- 2- أن لا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وأن لا تقل عن 10 صفحات.
- 3- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.
- 4- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والفاكس والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية.
- 5- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع **simplified Arabic** مقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي **simplified 16 Gras** العناوين الفرعية **simplified Arabic** مقاسه 14.
- 6- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).
- 7- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية **Not de fin** على أن تعرض في نهاية المقال.
- 8- المقالات المرسله لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- 9- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.
- 10- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.
- 11- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : el-maaref@univ-eloued.dz

مجلة المعارف

مع مئوية الوعد البلفوري تحددت المأساة المقدسية بما سجلته الإدارة الأمريكية من قرارات باعتبار المدينة المقدسية عاصمة سياسية للكيان المتسلط على البلاد الفلسطينية وما مثله هذا الحدث التاريخي من اعتداء على مجموع الأمة الإسلامية التي ما فتأت تعبر عن رفضها وعدم اعترافها وقرارها في كل ذلك بتجسيد المقولة الخالدة للرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين عندما قال "نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة".

تأكيدا منه على عدالة القضية التي تحتاج اليوم لأكثر من جهد لأجل تعبئة الرأي العام العالمي الذي أظهر من جانبه نوعا من التعاطف المعبر عنه. يحتاج الى أهمية تنمية استغلاله خدمة لعدالة القضية وتبقى الأمة بكافة أطيافها معنية أكثر من غيرها من أي وقت مضى لاتخاذ جميع الأسباب التي من شأنها أن تحقق عوامل القوة اعتبارا من الداخل للوصول الى مستوى الريادة الحضارية.

رئيس التحرير

أ/ عمار غرايسة

الفهرس

الصفحة	الموضوع
06	كلمة العدد
10	تأثير الثورة الجزائرية على طبيعة العلاقات الفرنسية التونسية 1954-1958 * أ. د. / لمياء بوقريوة / قسم التاريخ وعلم الآثار / جامعة باتنة - 1 -
38	التطور التاريخي للتسويق السياسي قراءة في تجليات الثورة السورية إعلاميا * د/ رضوان بلخيري/ جامعة العربي التبسي /تبسة
55	جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في إرسال البعثات الطلابية إلى الخارج 1931-1956 - جامع القرويين بفاس أنموذجا - * أ/ بن بوزيان عبد الرحمان / جامعة 20 أوت 1955 /سكيكدة.
85	الطرق الصوفية في الجزائر * د/عبد الكريم بليل/ قسم علم الاجتماع/ جامعة الشاذلي بن جديد/ الطارف.
107	ايدولوجيا التيار الاستقلالي الجزائري من خلال صحافته - صحيفة المنار نموذجا. * د. عادل جربوعه/كلية الإعلام والاتصال والسمعي البصري/جامعة قسنطينة 3
138	الطب الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية (أداة للهيمنة و حقل للتنصير) * د/صليحة علامة/ قسم التاريخ / جامعة الجزائر(2)
156	الوساطة الإعلامية وإشكالية المعالجة الصحفية لموضوع الثورة التحريرية قراءة في دور الوسيط في المحافظة على الدلالات والمعاني الرمزية * د/ العربي بوعمامة /جامعة مستغانم * د/ عطاله غوثي /جامعة مستغانم
176	البيوتات العربية في المغرب الأوسط وإسهاماتها في الدعوة الإسماعيلية قبيل 296هـ/909م "البيت الحمدوني أنموذجا" * محمد بن عربية/جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/قسنطينة. * د/أسماعيل سامعي /جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/قسنطينة.
195	الوجه الآخر لركب الحج في القرن 12هـ/18م الوجه السياسي و القتالي. * د/ رشيد زين العابدين/جامعة محمد الخامس/المغرب.
218	مظاهر العمران الاسلامي الصحراوي بوادي سوف " الاعشاش نموذجا" * أ/طرطاق الوردي/-/جامعة باتنة -1-/قسم التاريخ والآثار
237	الشيخ أحمد بن يوسف الملياني ودوره في تدعيم الحكم العثماني بالجزائر خلال القرن 16 * أ/يوسف بن حيدة/قسم العلوم الإنسانية / جامعة العربي بن مهيدي /أم البواقي

258	نسبة القول بجواز قتل الثُلث لاستصلاح الثُّلثين إلى الإمام مالك، تاريخها، وموقفُ المُحَقِّقِينَ منها. ✻ أ/ فاتح حب الحمص/ كلية العلوم الإسلامية (الخروبة)/ جامعة الجزائر 1.
278	المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي "معالم خنقة سيدي ناجي نموذجا" ✻ أ/ كريم الطيب/ قسم التاريخ والآثار/ جامعة الحاج لخضر / باتنة 1
295	العلاقات الخانية _ السلجوقية من معركة زرفشان إلى معركة قطوان: (395 هـ / 1004 م _ 536 هـ / 1141 م): ✻ أ/ شارف خالد/ جامعة الاغواط
327	التحقيق من عصر الفقيه أبو علي المتيجي ✻ الطالب دكتوراه/ طيايبة تقي الدين/ كلية العلوم الإسلامية/ جامعة باتنة
345	وثائق بيع كتب خزائن المخطوطات وأهميتها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية دراسة لوثيقة بيع مخطوطات الخزانة البكرية بتوات سنة 1300هـ/ 1883م ✻ أ/ عبد الله بابا/ جامعة أدرار/ الجزائر

تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي المجلة
يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط برتبة الباحث ولا
مكانته العلمية

تأثير الثورة الجزائرية على طبيعة العلاقات الفرنسية التونسية

1958 – 1954

L'impact de la révolution algérienne sur les relations franco-tunisiennes 1954-1958

أ. د. / لمياء بوقريوة / قسم التاريخ وعلم الآثار / جامعة باتنة - 1 -

lahama123@yahoo.fr

ملخص:

لقد تطورت العلاقات الفرنسية التونسية بحسب تأثير الثورة الجزائرية وتوسعها بتجاوزاتها على الإقليم التونسي وبنجاحها الذي حققته على المستوى الداخلي والخارجي. ولقد ارتأينا أن ندرس من خلال هذا المقال طبيعة العلاقات التونسية الفرنسية من خلال تأثير الثورة الجزائرية على هذه العلاقات خلال فترة هامة من تاريخ الثورة الجزائرية المجيدة، وهي الفترة الممتدة من سنة 1954 إلى سنة 1958، وفترة حرجة تمر بها العلاقات الدولية ألا وهي فترة الحرب الباردة محاولين الإجابة على عدة تساؤلات يطرحها الموضوع محل الدراسة.

Resumé:

Le développement des relations franco-tunisiennes est survenu suite à l'impact de la révolution algérienne, à son dépassement au delà du territoire tunisien, et à sa réussite sur le niveau intérieur ainsi qu'extérieur.

Nous envisageons, par cet article, étudier les relations franco-tunisiennes à travers l'impact de la révolution algérienne, et ce d'une période qui va de 1954 à 1958, période importante de la

révolution algérienne glorieuse, et au cours d'une période critique des relations internationales, période de la guerre froide.

Ainsi, nous tenterons de répondre à plusieurs interrogations que pose le sujet en question.

مقدمة:

منذ اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر 1954م راحت السلطات الفرنسية تحاول تشويبهها بنعتها بعدة نعوت منها أنها ثورة شيوعية ومؤامرة خارجية وأنها ثورة فلاة متمردين وعصاة، مدفوعة من الخارج. ولعلها كانت مضطرة لعمل ذلك على الأقل لحفظ ماء وجهها أمام الرأي العام الدولي، وراحت تلقي اللوم على الجارة تونس وتحملها مسؤولية أحداث الفاتح نوفمبر، وراح جاك شوفالييه - نائب وشيخ بلدية الجزائر - يؤكد ذلك بقوله: "... إن الهدف من العمليات المسلحة التي أعلنت في أول نوفمبر، في منتصف الليل، لهي محاولة تشتيت، بهدف فك الحصار على الفلاة الموجودين في الحدود التونسية، والذين يتعرضون لضغط الجنرال دولاتور"⁽¹⁾. ولعله كان يقصد بكلمة فلاة، رجال المقاومة التونسية المسلحة التي انطلقت منذ سنة 1952 بالجنوب التونسي وبقيادة المقاوم الكبير الطاهر لسود.

لقد حاولت وسائل الإعلام الفرنسية أن تؤكد على التدخل الأجنبي والإمدادات الخارجية وخاصة التونسية في مساعدتها للجزائريين للقيام بهذا العمل المسلح ضد فرنسا، ومنها المقال الذي أشار إليه الدكتور العربي الزبيري في كتابه "الثورة الجزائرية في عامها الأول"، حيث جاء في الصحافة الفرنسية أن 500 إرهابي تونسي قاموا بالالتحاق بجبال الأوراس لتنظيم وحدات القتال، وتدريب الجزائريين على استعمال السلاح وخوض معركة

العصابات⁽²⁾. كما كتبت صحيفة "لوموند" الفرنسية في عددها الصادر يوم 3 نوفمبر 1954 "لابد من تقبل حقيقة أننا أمام تنظيم أجنبي يضم جماعات وطنية". ولم تقف السلطات الفرنسية عند ذلك فقط، بل أنها اتهمت تونس رسمياً على لسان روني مايير⁽³⁾ Rene Mayer أمام الجمعية الفرنسية وذلك بتحميل الرئيس بورقيبة مسؤولية ما يحدث في الجزائر⁽⁴⁾.

ومن هنا سوف نقوم بمحاولة الإجابة على عدة تساؤلات من بينها: كيف كانت العلاقات الفرنسية التونسية قبل اندلاع الثورة الجزائرية؟ كيف كان تأثير الثورة الجزائرية على استقلال تونس؟ كيف تطورت الثورة وكيف كان موقف الحكومة التونسية منها وعلى رأسها الرئيس الحبيب بورقيبة؟ ماهي العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الحكومة الفرنسية على تونس بسبب الثورة الجزائرية؟ ماهي الإجراءات التعسفية للقوات الفرنسية على التراب التونسي جراء موقفها من الثورة؟ وكيف كان رد الموقف الرسمي التونسي منها؟ وكيف استطاعت تونس الفتية عن طريق رئيسها - وعلى الرغم من الاحتجاجات الفرنسية المتواصلة - أن تحصل على المساعدات الاقتصادية و بعض من المساعدات العسكرية من الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية بعد تردد هذه الأخيرة وكيف أثر كل ذلك على العلاقات الفرنسية التونسية؟

أولاً: العلاقات الفرنسية التونسية قبل اندلاع الثورة الجزائرية:

إن تونس التي كانت تحضر استقلالها لما بعد عهد الحماية لم تستطع أن تجتنب ما يحدث في الجزائر، بحيث كان إيجاد حل للقضية الجزائرية أمراً محورياً بالنسبة لحكومتها

التي كانت تتطلع إلى بناء دولتها و ذلك نظرا لاعتبارات تاريخية وجغرافية، إذ أن إقليمها امتداد لساحة المعركة في الجزائر، والبلدين يجمعهما مصير واحد ودين واحد، ولغة وثقافة واحدة؛ ومستعمر واحد.

ولعل الحديث عن العلاقات الفرنسية التونسية بين البلدين لا يعني - بطبيعة الحال - أنها كانت علاقات طيبة قبل اندلاع ثورة التحرير الجزائرية.

فلقد كانت تونس غارقة في أزمة سياسية عميقة تلتها أزمة اقتصادية واجتماعية كان السبب فيها بالأساس النظام الاستعماري الفرنسي، وقد تزامن ذلك مع بروز حركة تحررية ينقصها التأطير، ولعل ظهور بوادر الكفاح المسلح في تونس بدأت ملامحه تتضح عقب فشل المفاوضات التي تمت في شهر ديسمبر 1951م بين الوفد التونسي بقيادة صالح بن يوسف والوفد الفرنسي برئاسة وزير الخارجية الفرنسي، وقد تعمدت فرنسا إلى عدم اعترافها بمبدأ السيادة لتونس مما أدى إلى حدوث مظاهرات قامت على إثرها السلطات الفرنسية بحملة اعتقالات واسعة مست أعضاء الحزب الدستوري الجديد بما فيهم الحبيب بورقيبة، الأمر الذي زاد في حدة المظاهرات التي ستؤدي إلى تبلور الكفاح المسلح الذي سيكتسي طابعا شعبيا تعرفه العديد من المدن التونسية والمناطق النائية والمعزولة⁽⁵⁾.

كما واجهت الحكومة الفرنسية ضغوطات كبيرة وذلك خلال الفترة 1952 - 1954 وذلك بسبب المحاولات العديدة لبلدان الكتلة الأفروآسيوية وجهود كل من صالح بن يوسف وأحمد بدره والمنجي سليم من أجل رفع القضية التونسية أمام هيئة الأمم المتحدة؛ وكذلك الضغوطات الداخلية الصعبة التي واجهتها السلطات الفرنسية من أجل المحافظة على استتباب الأمن والاستقرار داخل التراب التونسي وذلك لمحاولة وضع حد للمقاومة المسلحة والعمليات العسكرية التي كان يقوم بها رجال المقاومة التونسية انطلاقا

من شهر جانفي 1952- إلى شهر ديسمبر 1954 في أماكن مختلفة من الإقليم التونسي⁽⁶⁾.

ومع خوف فرنسا من تنامي حركة المقاومة في تونس وارتباطها بحركات المقاومة في بلدان المغرب العربي، وخاصة الثورة الجزائرية، سارعت ودخلت في مفاوضات مباشرة مع حكومة الباي "محمد الأمين" -الذي خلف والده "محمد المنصف"، واشترطت فرنسا وقف المقاومة التونسية ونزع سلاحها؛ وبعد عناء وتفاوض تمّ التوصل يوم 3 جوان 1955 إلى إمضاء اتفاقية عامة بين تونس وفرنسا للاستقلال الداخلي تجسيدا للسيادة التونسية في معظم شؤون البلاد. وفي غرة جوان 1955 عاد الزعيم الحبيب بورقيبة من فرنسا إلى تونس، وأظهرت فرنسا أنها لن تتفاوض إلا معه.

في هذا الصدد، يجب الإشارة إلى سعي الحكومة الفرنسية من أجل اختيار من ستتعامل معه من العناصر التونسية، بورقيبة المتشبع بالأفكار الفرنسية، والذي "أعلن منذ 17 ديسمبر 1950 بأنه يؤكد انضمام تونس إلى الاتحاد الفرنسي ولكن بعد الإعلان عن استقلالها ومع الاحتفاظ بحق الانسحاب"⁽⁷⁾؛ أم صالح بن يوسف الذي عارض اتفاقية الاستقلال الداخلي، وكان يشكل خطرا كبيرا عليها بتصلبه نحو الاستقلال التام لا بالنسبة لتونس فحسب، وإنما لجميع البلدان المغاربية وبعلاقاته مع مصر الناصرية ليقع اختيارها في الأخير على الحبيب بورقيبة، ذو التوجه الغربي، الذي تعهد لها بإبقاء علاقات اقتصادية وثقافية وثيقة معها.

وبعد مفاوضات مضمينة ومحادثات بين بورقيبة ووزير الخارجية الفرنسي بينو تمّ الاتفاق على إعلان الاستقلال التام لتونس دون الإشارة إلى الارتباط بالاتحاد الفرنسي وأعلن عن إلغاء معاهدة باردو التي بدأت منذ عام 1881⁽⁸⁾ وذلك مع توقيع البروتوكول التونسي الفرنسي يوم 20 مارس 1956⁽⁹⁾. ولاشك أن هذا الاستقلال لم يأتي عشوائيا لولا انعكاسات الثورة الجزائرية التي اندلعت بعد أشهر من تصريح قرطاج. اعترفت فرنسا بموجب الاتفاقية الجديدة باستقلال تونس التام مع إبقاء قاعدة بنزرت للقوات الفرنسية وحق إبقاء بعض القواعد العسكرية على الأراضي التونسية⁽¹⁰⁾، وفضلاً عن ذلك نصت الاتفاقية على " أن تحدد الدولتان أو تتما في دائرة احترام السيادة تدابير التكافل الذي يتحقق بحرية وذلك بتنظيم تعاونهما في الميادين التي تشترك فيها مصالحهما وخاصة في مادتي الدفاع والعلاقات الخارجية وستضبط الاتفاقيات بين فرنسا وتونس صيغ الإعانة التي تقدمها فرنسا لتونس بقصد تأليف الجيش الوطني التونسي.."⁽¹¹⁾

ثانياً: تطور الثورة الجزائرية وموقف بورقيبة السياسي منها:

مع تطور أحداث الثورة الجزائرية، كان بورقيبة ملهماً بأن يلعب دور الوسيط النشط في إنقاذها وإعطائها بعداً غربياً مخالفاً للبعد العربي الناصري، بحيث يبقى محافظاً على علاقات جيدة مع فرنسا ومن ورائها البلدان الغربية وفي مقدمتها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. ولعل ذلك ما يفسر وقوفه محايداً أثناء حادث اختطاف طائرة الزعماء الستة للثورة الجزائرية داخل الإقليم الجوي الجزائري التي كانت في رحلتها من الرباط إلى تونس، حيث نددت جميع الدول بتلك القرصنة التي قام بها الجيش الفرنسي واستقال على إثرها السفير الفرنسي بتونس برونو دي ليس (De Leusse) احتجاجاً، لكن بورقيبة لم يحرك ساكناً تجاه ذلك. وكان نفس الموقف قد اتخذته بالنسبة لحادث

العدوان الثلاثي على مصر، ولعل صمته إن دل على شيء فيدل على بغضه الشديد لمنافسه صالح بن يوسف ومن كان من حلفائه أمثال ابن بلة والرئيس عبد الناصر⁽¹²⁾.
 وليبقى محافظا على علاقة طيبة مع فرنسا ومع الغرب، اقترح بورقيبة بين سنتي 1956-1957 انضمام تونس، على الأقل في الميدان الاقتصادي، إلى "حلف بغداد" وكذلك إلى "الحلف الأطلسي". كما أشار إلى تحالف دول البحر الأبيض المتوسط بالاتصال بكل من إيطاليا، إسبانيا. كما أوحى إلى إنشاء حلف فرنسي-شمال إفريقي. وهو الشيء -حسب رأيه- الذي سيسهل حل القضية الجزائرية، التي تعيق كل هذه التحالفات⁽¹³⁾.

في نفس الوقت كان بورقيبة حريصا جدا على تهيئة مستقبل العلاقات الجزائرية التونسية مع قادة جبهة التحرير الوطني، وعليه كان لابد أن يثبت للرأي العام التونسي ذلك، إذ أنه ورغبة منه في أن يحل الأمن والاستقرار في شمال إفريقيا، واقتناعه بأن استقلال تونس سوف لن يكتمل إلا بوضع حل للقضية الجزائرية⁽¹⁴⁾.

لم يتوان الرئيس بورقيبة في كل مرة عن تأكيد التضامن التام لتونس مع الشعب الجزائري من أجل وحدة شمال إفريقيا، ساعيا لإقناع جبهة التحرير الوطني بأن تعمل على إيجاد حل سياسي واللجوء إلى المفاوضات مع فرنسا بدلا من الحل العسكري. وانتقد بورقيبة في العديد من المرات وحكومته، النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر والحرب التي يشنها ضد شعب أراد تقرير مصيره⁽¹⁵⁾. ففي خطابه أمام مجلس الأمة التونسي بتاريخ 19 أبريل 1956 قال: "إن تونس المستقلة تتألم من الحرب الفاشية المسلطة على الشعب الجزائري الشقيق وتصرح هذه الحكومة بأنها سوف تبذل كل ما في وسعها لتساعد على إيجاد الحلول السلمية التي تضمن للشعب الجزائري الشقيق حقوقه الوطنية

ليسود الاطمئنان كامل أقطار شمال إفريقيا ويزول آخر عامل يكدر صفو العلاقات بين الشعبين التونسي والفرنسي" (16).

ولعل هذه المواقف إزاء القضية الجزائرية وقفت عائقا أمام سياسة التعاون التي أملت الحكومة التونسية إقامتها مع فرنسا بسبب تصلب الموقف الفرنسي، وإصراره على ضرورة إيقاف مساعدة الثوار الجزائريين، والتزام موقف الحياد بخصوص القضية الجزائرية مما سبب فتور العلاقات التونسية - الفرنسية. فعلى الرغم من الاختلافات السياسية، كانت الثورة الجزائرية تعتبر بوقبية حليفا لا يمكن الاستغناء عنه من أجل الحرية، وكان قادة جبهة التحرير الجزائرية على يقين أن الجزائر في ثورتها لا يمكن أن تستغني عن تونس والمغرب، فثورتها هي ثورتهم، والبلدان يقودان انتصار الثورة أو فشلها، وعلى كل واحد منهم أن يتيقن من هذا التضامن.

وبسبب موقعها الجغرافي، والعلاقات التاريخية والاجتماعية التي تربط شعوب شمال إفريقيا ببعضها، لا تستطيع أن تكون كلا من تونس والمغرب بعيدتان عن ساحة المعركة. لذلك وجدت الحكومة التونسية وكذلك المغربية نفسها في وضع لا تحسد عليه، بين قوة جيش التحرير الوطني على الحدود التونسية - الجزائرية ومراقبة قوات الجيش الفرنسي لها.

ثالثا: تعليق فرنسا لمساعداتها الاقتصادية والعسكرية للحكومة التونسية وجهود

تونس للخروج من المأزق

منذ اندلاع الثورة الجزائرية سعت القوات الفرنسية بإجراء عمليات عسكرية على الإقليم التونسي باسم "حق المتابعة" لوحدات جيش التحرير الجزائري. ولهذا الأمر احتجت الحكومة التونسية على ذلك وحذر الباهي الأدغم نائب رئيس المجلس الوطني التونسي من تلك التجاوزات مبينا بأنها تهدد السيادة التونسية على ترابها، ورفعت تلك

الاحتجاجات في تقرير السفير الفرنسي بتونس بتاريخ 5 سبتمبر 1956 إلى الحكومة الفرنسية⁽¹⁷⁾.

ونتيجة لعدة اعتبارات وجدت تونس نفسها مدمجة في نفس الثورة مع الجزائريين وسبب ذلك عرقلة كل تعاون كان محتملا بينها وبين باريس.

فمع تطور الثورة الجزائرية أصبح لجيش التحرير الجزائري مراكز هامة داخل التراب التونسي خاصة على الحدود منها مركز ملاق، مركز قرن الحلفايا (قرب الكاف)، مركز بيرينو في نواحي تالة، مركز تاجروين، مركز الشعاني قرب قصرين وقفصة... إلخ وكانت وحدات جيش التحرير تبدأ هجوماتها على العدو انطلاقاً من هذه المراكز، إضافة إلى ذلك شيدت معسكرات خاصة بقيادة الثورة خاصة على طول الحدود التونسية الجزائرية وهذا بهدف ربط وحدات جيش التحرير بخلايا جبهة التحرير في كل من غار الدماء، الكاف، فريانة، تالة، عين الدراهم، سوق لربعاء، ردايف، تاجروين، ساقية سيدي سويف، قفصة، قصرين، و قا بس، كما كانت أغلب هذه المراكز مخازن أسلحة وذخيرة، ومراكز استشفائية لجرحي جيش التحرير الجزائري⁽¹⁸⁾، وبهذا أصبح تواجد وحدات جيش التحرير الجزائري بأعداد هائلة على التراب التونسي يشكل خطراً على السيادة التونسية وعلى نظامها من جهة وعلى موقف تونس تجاه فرنسا من جهة ثانية.

وعلى الرغم من إعلان بورقيبة بتاريخ 24 مارس 1957 لاقتراحه على الحكومة الفرنسية عن طريق شارل صوماني، الكاتب العام للحكومة التونسية سابقاً بما يسمى بـ "بروتوكول الحياد" بالنسبة للقضية الجزائرية مقابل خروج القوات الفرنسية الباقية في تونس بعد معاهدة الاستقلال⁽¹⁹⁾ إلا أن الحكومة الفرنسية اتخذت و بتاريخ 20 ماي 1957 قرار تعليق المعونة المالية التي كانت تقدمها لتونس بموجب ما نصت عليه اتفاقية الاستقلال والبالغة 15 مليار فرنك فرنسي سنوياً، وأجلت صب 2 مليار فرنك فرنسي لصالح الحكومة

التونسية حسب الاتفاقية المالية لـ 20 أبريل 1957⁽²⁰⁾ على الرغم أن موريس فور كاتب الدولة للشؤون المغربية والتونسية كانت له نظرة مغايرة لذلك إذ أنه كان يرى بأن المساعدات الفرنسية للدولة التونسية الناشئة يجب أن تستمر لكن تكون مشروطة بمحياد تونس حيال القضية الجزائرية.

فموقف الحكومة الفرنسية كان صريحا لا يتغير: "فبما أن عيون بورقيبة مغلقة عن تهريب السلاح لداخل الجزائر، فإن المساعدات المالية للحكومة التونسية ستبقى متوقفة ..."(21).

ولما ألغت فرنسا تلك المساعدات وقررت تخفيض قيمة الفرنك الفرنسي، رفض بورقيبة على إثر ذلك تخفيض قيمة الدينار التونسي وجعله معتمدا على الفرنك الفرنسي، حيث أصبح الدينار التونسي في 3 نوفمبر 1957 متداولا على كامل تراب الجمهورية كعملة رسمية واحدة، ولكن استقلال العملة التونسية لن يحدث إلا بخروج البنك المركزي التونسي عن الوصاية الفرنسية في أكتوبر 1958⁽²²⁾.

إن السلطات الفرنسية كانت ترى أن بورقيبة لم يتخذ أي إجراء لإيقاف عملية تمرير السلاح عبر التراب التونسي لصالح الثورة الجزائرية وسكوته يدل على ذلك، وإن لم تستطع فرنسا أن تنتصر في معركتها من أجل عزل الثوار الجزائريين عن القاعدة التونسية فهذا يرجع بالدرجة الأولى إلى مساعدة تونس للثورة الجزائرية وإيمان بورقيبة "بحق الشعب الجزائري في نيل استقلاله" وبأقصى سرعة.

من جهته، بورقيبة لم يتوقف عن محاولة إقناع الحكومة الفرنسية لمنحه المساعدات المالية التي كان يبحث عنها، ولم يتوان في بدأ حملته لشرح موقفه وتبريره أمام ممثلين دبلوماسيين أمريكيين و بريطانيين وألمانيين وإيطاليين في تونس لمساعدته على ذلك.

لكن مساعيه ذهبت سدا، إذ أن دولة فتية كتونس لا تملك أي وسيلة للضغط بها على الدول الصديقة لتجبر فرنسا على احترام السيادة التونسية⁽²³⁾.

وعلى خلاف بريطانيا وألمانيا اللتان وقفنا إلى جانب قرارات الحكومة الفرنسية فقد تأسفت الولايات المتحدة الأمريكية عن قرار توقيف المساعدات المالية الفرنسية. وحاول كريستيان بينو تجنب وساطة الولايات المتحدة إلا أن هذه الأخيرة وجدت نفسها داخل هذه المسألة. ورأى لويس جوكس الكاتب العام في الكي دورساي (Quai D'Orsay) أن "توقيف المساعدات الفرنسية سوف يزيد من السخط..."⁽²⁴⁾. لكن موقف الحكومة الفرنسية بقي على حاله.

أما بالنسبة للمساعدات العسكرية فقد رفضت السلطات الفرنسية منع وصول أية شحنة من السلاح إلى الجيش التونسي، أيا كان مصدره، مبررة ذلك بأن جزء منه سيتسرب لجيش التحرير الجزائري.

من جهته، توجه بورقيبة إلى الدول الغربية وخاصة منها الولايات المتحدة الأمريكية، وأوضح بأن استمرار الحرب في الجزائر سوف يسبب أضرارا في كل الدول المستقلة في شمال إفريقيا، وطلب من الولايات المتحدة الأمريكية على أن لا تساعد فرنسا على ذلك وإلا سوف تفقد شعوب شمال إفريقيا ثقتها في المعسكر الغربي حيث كان يظهر جليا أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تولي تونس اهتماما خاصا لاسيما فيما يتعلق بمسألة تقديم المساعدات الاقتصادية والتقنية، لأن ذلك من شأنه أن يعطيها فرصة التغلغل السلمي في منطقة شمال إفريقيا ومن ثم إرساء أسس التحالف الإستراتيجي المعادي للشيوعية.

في هذا الإطار كان الرئيس بورقيبة قد زار الولايات المتحدة الأمريكية في 21 من

شهر نوفمبر سنة 1956 حيث التقى مع الرئيس إيزنهاور⁽²⁵⁾ Dwight D.

Eisenhower و أهم موظفي وزارة الخارجية الأمريكية، شكر في هذا اللقاء الرئيس بورقيبة الرئيس الأمريكي إيزنهاور على المساعدة المقدمة لبلاده والمقدرة بـ 45.000 طن من القمح. كما سأل الرئيس الأمريكي الرئيس بورقيبة- في نفس اللقاء- عن تطلعاته لحل القضية الجزائرية، فأجاب الأخير بأنه يفكر في وضع خطوط اتفاقية فرنسية مع الجزائر تستطيع الأخيرة بموجبها أن تحقق الاستقلال وأنه سيبدل كل الجهود من أجل تحقيق تلك الغاية (26).

وفي إطار ذلك فاتحت السفارة الأمريكية في باريس الحكومة الفرنسية في موضوع تقديم مساعدة اقتصادية إلى تونس للتخفيف من حدة الأزمة الاقتصادية التي كانت تواجهها تونس في تلك المدة، ويبدو أن السبب الذي دفع السفارة إلى عرض الموضوع على الجانب الفرنسي هو أن الولايات المتحدة كانت لا تريد إحراج الحكومة الفرنسية، وعلى الرغم من موافقة الأخيرة على هذا العرض الأمريكي من حيث المبدأ إلا أنها كانت ترى أن ذلك من الممكن أن يؤثر سلباً على موقفها في المفاوضات التي كانت تجريها حينذاك مع تونس بشأن الثورة الجزائرية، وقد عبر المسؤولون الفرنسيون عن ذلك بقول: " إن التونسيين سيشعرون بأنهم يستطيعون أن يحصلوا على دعم مادي أو مالي في مكان آخر... " (27).

ولما طلبت تونس رسمياً من الإدارة الأمريكية بعض المساعدات الاقتصادية والتقنية الأمريكية، اشترطت أن يكون ذلك عن طريق التنسيق مع الجانب الفرنسي لأن تونس لا ترغب في إحراج موقف الولايات المتحدة أمام فرنسا وعدم رغبتها في الإضرار بالعلاقات بين الدولتين، وقد كان رد المسؤولين الأمريكيين أنهم من حيث المبدأ مستعدون لتقديم مثل تلك المساعدة وأعلنوا أنهم سوف يقومون بإرسال بعثة رسمية لتحديد احتياجات تونس، ومن جهة ثانية طلبت الخارجية الأمريكية من سفيرها في

باريس أن يوضح للمسؤولين الفرنسيين أن الإدارة الأمريكية لا تستطيع أن تتجاهل الطلبات التونسية إلى ما لا نهاية ، وهو أمر قد يضر بالمصالح الأمريكية ، مع التأكيد بأن واشنطن تعترف بالنفوذ الفرنسي في شمال إفريقيا عموماً وتونس على وجه الخصوص.

و في 4 سبتمبر 1957، طلبت تونس رسمياً من الولايات المتحدة الأمريكية السلاح الذي كانت فرنسا قد رفضت بيعه لها بسبب الدعم العسكري التونسي لجهة التحرير الوطني. إذ صرح صدوق مقدم كاتب الدولة للعلاقات الخارجية التونسية للويس جون السفير الفرنسي في تونس: "أنه وبعد هجوم القوات الفرنسية على حيدرة -وهي قرية تونسية على الحدود الجزائرية- أصبح من الضروري الحصول على المساعدة العسكرية الأمريكية من أجل تعزيز وحدتها...". وقد عرضت هذه الحجة من أجل طلب المساعدة والحماية الأمريكية⁽²⁸⁾.....

وأسرع الكي دورساي لمحاولة إيقاف هذه المساعدة، لكن كاتب الدولة الأمريكية فوستر دلاس كان مقتنعاً بحق تونس في تجهيز جيشها الحديث وتنويع مصادر تموينه، "من أجل تونس قوية ومستقرة". وقال: "لأجل هذا الهدف ستخصص الولايات المتحدة مساعدة اقتصادية معتبرة ووافقت على دراسة المطالب التونسية التي لها علاقة بالمحافظة على أمنها الداخلي". وفي يوم 12 سبتمبر 1957، كتب دلاس لبينو قائلاً: "لا أريد أن أطور الموضوع بالإيجاب بدون أن أضمن تعهد فرنسا بالرد على المطالب التونسية الخاصة بتجهيز جيشها... ولا بد أن نأخذ بعين الاعتبار، في الوقت الراهن حتمية رد الفعل المباشر للدول الشيوعية، إن لم تقبل الدول الغربية بذلك. إن مصلحتنا كما تعلمون محددة بالدفاع عن العالم الحر...".⁽²⁹⁾

ويبدو أن أمريكا كانت تراوغ المطلب التونسي، إذ أنها كانت لا تريد أن تتدخل مباشرة لمساعدة تونس إذ كانت تعتبره من الشؤون الفرنسية، وتحاول بذلك الضغط على

هذه الأخيرة فقط من أجل منع التدخل الشيوعي في المنطقة، والدليل على ذلك تماطلها في إرسال المساعدة العسكرية التي طلبتها تونس منها، في الوقت الذي أسرعت فيها القاهرة بإرسال هبة تقدر بـ3000 بنديّة، حيث قبل الرئيس بورقيبة ذلك كخطوة لتجميد المعارضة اليوسفية، وتعبيراً عن التضامن العربي، الشيء الذي خلخل المخطط الأمريكي ودفع به على تسليم تونس وبشكل فوري مجموعة من الأسلحة لسد الباب على المساعدات العربية- المصرية- والشيوعية معاً⁽³⁰⁾.

يتضح من كل ذلك أن بورقيبة حاول أن يوضح للأمريكيين سياسته الواقعية فهو لم تكن لديه خطط -عدوانية- ضد "إسرائيل"، فضلاً عن رغبته في إيجاد حل نهائي للقضية الجزائرية بوصفها من العوامل المؤدية إلى عدم الاستقرار في شمال إفريقيا، وأخيراً جاء إعلانه عن رغبته في محاربة الشيوعية منسجماً مع السياسة الأمريكية آنذاك.

وفي إطار مبدأ إيزنهاور لعام 1957 الذي أصدره الرئيس الأمريكي دوايت إيزنهاور المبدأ الذي عرف باسمه "مبدأ إيزنهاور" المشروع الذي يعتبر صورة مصغرة لمشروع مارشال وهدفه إبعاد المنطقة العربية على النفوذ السوفياتي و تضمن عرضاً لإستراتيجية أمريكية جديدة خاصة بمنطقة الشرق الأوسط و منها وضع مائتي مليون دولار تحت تصرفه كي يستخدمها في الشرق الأوسط لتغطية مساعدات اقتصادية مخصصة لصيانة الاستقلال الوطني ولتقديم المساعدات العسكرية لأية دولة تطلبها، وفضلاً عن ذلك اقترح الرئيس الأمريكي أن تشمل المساعدات استخدام قوات الولايات المتحدة المسلحة لضمان وحماية وحدة الأراضي والاستقلال السياسي للدول التي تطلب مثل ذلك العون ضد الاعتداءات المكشوفة التي قد تقوم بها أية دولة خاضعة للشيوعية الدولية.

في إطار ذلك، رحبت تونس بالمبدأ المذكور واستفادته بمبلغ قدمته الإدارة الأمريكية كمنحه لتونس وقدره ثلاثة مليون دولار أمريكي كرمز للصداقة الأمريكية-التونسية،

وعلاوة على ذلك أوضح ريتشارد انه بإمكان تونس أن تحصل على المساعدات الأمريكية في حالة حدوث عدوان أو تهديد من الشيوعية الدولية، وفي معرض رده تطرق بورقيبة إلى القضية الجزائرية بوصفها بؤرة تجعل المنطقة عرضة وبشكل كبير للنشاط الشيوعي كما أوضح رغبته للعمل مع فرنسا لإيجاد حل لها، ومن جانب آخر طلب بورقيبة أن تمارس الولايات المتحدة وبريطانيا ضغوطاً "ودية" على فرنسا لحملها على منح الاستقلال للجزائر. كما تم توقيع اتفاق بين الحكومتين التونسية والأمريكية في 15 من ماي من العام نفسه يقضي بمنح تونس معونة مالية قدرها خمسة ملايين دولار تقدم على شكل بضائع أمريكية تبيعها الحكومة التونسية لحسابها الخاص مع فوائدها⁽³¹⁾، كما أعلن بورقيبة رداً على الإجراءات الفرنسية، في الرابع والعشرين من شهر ماي 1957 خروج بلاده من الاتفاق الاقتصادي والمالي والجمركي المعقود بين تونس وفرنسا منذ عام 1955.⁽³²⁾

وكان الرئيس إيزنهاور هو الذي قرر بنفسه كذلك تسليم 500 بندقية بذخيرتها باسم رمزي أخذت من مخزن القاعدة و"ليس" (Wheelus) في ليبيا. ولم تجد الحكومة الفرنسية بدا من وراء ذلك إلا تسهيل عملية دخول الأسلحة، إذ هدد فوستر دالاس بتنفيذ المخطط الأمريكي ابتداء من 14 نوفمبر 1957، إذا لم تسلم فرنسا السلاح للحكومة التونسية وبشروط محددة من طرف الولايات المتحدة الأمريكية⁽³³⁾.

وعلى الرغم من رمزية هذه المعونة يبدو أن السبب الذي دفع الإدارة الأمريكية إلى تقديمها هو رغبته في منع تونس من التوجه إلى الكتلة الشرقية الشيوعية و فقدان واحداً من أبرز الموالين للسياسة الغربية في شمال إفريقيا.

ولما تقدم الرئيس بورقيبة مع سلطان المغرب "بمشروع الوساطة" بتاريخ 21 نوفمبر 1957، بين جبهة التحرير الوطني وفرنسا من أجل عقد مفاوضات تنتهي إلى حل عادل يعيد إلى الشعب الجزائري سيادته، طبقاً لمبادئ الأمم المتحدة "ويضمن المصالح

المشروعة لفرنسا ومواطنيها"⁽³⁴⁾، اصطدم فيه بورقيبة بالمعارضة التامة من طرف حكومة لاغيار يوم 29 نوفمبر 1957

وصرح بينو من نيويورك بأن " فكرة المساعي الحميدة" التي جاءت بها كلا من تونس والمغرب لن تقبل إلا بالاتفاق مع جبهة التحرير الوطني حول توقيف النار، وليس من أجل حلول سياسية، وبأي حال فإن كلا من تونس والمغرب لا تستطيع أن تكون وسيطة لأنها ليست محايدة"⁽³⁵⁾.

رابعا : قصف ساقية سيدي يوسف وازدياد حدة توتر العلاقات الفرنسية التونسية:

لقد عرفت سنة 1957 توترات واضحة في العلاقات الفرنسية -التونسية بسبب موقف تونس من الثورة الجزائرية، حيث أراد الطرفان في نهاية هذه السنة التقارب بضغط من الولايات المتحدة الأمريكية وواقع المصلحة المشتركة بين البلدين، إلا أن ذلك لم يتبلور بعد على أرض الواقع بسبب ما أحدثه قصف ساقية سيدي يوسف الذي أزم الوضع وكانت له انعكاسات على المستوى الدولي والوطني على حد سواء إذ أنه ساهم في سقوط الجمهورية الرابعة الفرنسية.

م تتغاض قيادة الجيش الفرنسي بالجزائر عن الدعم التونسي للثورة الجزائرية على الحدود، وقررت أن ترد على العمليات العسكرية المنطلقة من الأراضي التونسية التي أصبحت تشكل قاعدة خلفية خطيرة عن طريقها يتم تمرير الأسلحة، وأصبحت ملجأ حصينا لإيواء جيش التحرير الجزائري.

ففي 2 جانفي 1958 وعلى إثر اشتباكات عنيفة على الحدود التونسية - الجزائرية بالقرب من ساقية سيدي يوسف تمكن خلالها جيش التحرير الجزائري من إلقاء القبض على أربعة جنود⁽³⁶⁾ فرنسيين نقلوا إلى منطقة الكاف، قام رئيس الحكومة لاغيار بتكليف الجنرال دي شاليه بنقل رسالة إلى الرئيس بورقيبة من أجل التوسط للإفراج على

المسجونين الأربعة، إلا أن بورقيبة رفض استقباله بحجة أنه حارب المقاومين التونسيين عام 1954. فاستبدل هذا الأخير برئيس ديوان لاغيار، لكن بورقيبة رفضه مرة ثانية وصرح قائلاً: "ينبغي أن تدرك فرنسا أن ذلك الوقت الذي كان يكلف فيه قائد جيش رفع احتجاج ما أو بإرسال بارجة حربية لدعم السياسة الاستعمارية قد ولى، وإذا ما تواصلت العمليات الحربية فإنني سوف أطالب بإرسال قوات تابعة لمنظمة الأمم المتحدة للانتصاب على الحدود"⁽³⁷⁾. وهو الشيء الذي سبب هياج الحكومة الفرنسية.

وفي 11 جانفي من نفس السنة، اشتبكت وحدات جيش التحرير الجزائري بالقوات الفرنسية أدت إلى مصرع 14 جندي في صفوف هذه الأخيرة. فقامت القوات الفرنسية بالجزائر بإبلاغ السلطات في باريس بأن "الطيران قد اكتشف عصابات من المهاجرين الجزائريين يعبرون الحدود انطلاقاً من الأراضي التونسية وينتشرون داخل المزارع والمشاتي الجزائرية (...). وأن عربات الحرس الوطني ترافض على الحدود لمساعدتها"⁽³⁸⁾.

وكانت نتيجة كل ذلك متابعة وحدات جيش التحرير الجزائري من قبل قوات الجيش الفرنسي على الحدود التونسية في كل مرة باسم "حق المتابعة" الذي كان قد قبل رسمياً من طرف مجلس الوزراء يوم 29 جانفي 1958⁽³⁹⁾. والذي أدى في يوم 8 فيفري 1958 إلى قصف قرية ساقية سيدي يوسف بطائرات B26 والتي كانت نتيحتها 72 قتيلاً و150 جريحاً⁽⁴⁰⁾.

وقد كان لقصف الساقية نقداً كبيراً من طرف الولايات المتحدة الأمريكية وحتى رد الفعل السياسي الفرنسي كان مناقضاً، عكس المواقف المتخذة عند تحويل الطائرة المغربية للزعماء الخمس في أكتوبر 1956، وكذلك أثناء عملية اجتياح قناة السويس.

وقد جاء على لسان كاتب الدولة الأمريكية جون فوستر دالاس: "إن السياسة المتبعة من طرف فرنسا في الجزائر سوف تجر الحرب إلى الدول المجاورة للجزائر بداية من

تونس ثم المغرب وليبيا وستجد فرنسا نفسها داخل حرب مع كل دول المغرب مدعومة من طرف مصر وباقي الدول العربية، معززة عسكريا وماليا من طرف الاتحاد السوفياتي والشيوعية العالمية⁽⁴¹⁾.

وأكدت التقارير الأمريكية بأن عملية قصف الساقية لم تكن خطأ عسكريا اقترفته السلطات الفرنسية وإنما حكومة فليكس غيار كانت على علم بذلك مسبقا. لقد كانت عملية القصف مسموحة من طرف روبر لاكوست المقيم العام في الجزائر، وحتى من طرف وزير الدفاع الفرنسي جاك شابون دلوما ومن طرف مجلس الوزراء عامة⁽⁴²⁾.

خامسا: الموقف الرسمي التونسي من التعسفات الفرنسية:

لقد أدت الاعتداء الفرنسية إلى وضع الرئيس التونسي في حالة صعبة مما دفعه إلى المزايدة، فتونس بالنسبة للجيش الفرنسي أو جيش التحرير الجزائري تشكل قاعدة إستراتيجية والفرنسيون لا يريدون أن تكون تونس قاعدة انطلاق جيش التحرير الجزائري، والجزائريون لا يريدون أن تصبح تونس جزء من إستراتيجية تطويقهم. لذلك فبورقيبة لم يكن قادرا على اتخاذ موقف الحياد وهو يشعر أن تحرير كامل سيادة البلاد قد أصبح مرتبطا بتطور الحرب في الجزائر، فأعلن مساء يوم قصف الساقية عن بدأ معركة الجلاء وطلب بالإخلاء التام للإقليم التونسي من طرف القوات الفرنسية دون استثناء بنزرت.

وفي 12 فيفري 1958، أعلنت تونس عن منع أية سفينة حربية دخول ميناء بنزرت. وفي 14 فيفري من نفس السنة، صادق مجلس النواب بمبادرة من رئيس الدولة على قانون ألغى معاهدة سنة 1942 المبرمة في عهد حكومة فيشي والتي تنص بأن "بنزرت ميناء فرنسي لا يشكل جزء من التراب التونسي"⁽⁴³⁾.

كما قرر بورقيبة إلغاء 5 مكاتب قنصلية وإخلاء المزارعين الفرنسيين للأراضي المجاورة للحدود (سببلة وسوق لربعاء...)، وقرر رفع عريضة احتجاج لمجلس الأمن لاستنكار

هذا الهجوم . وطلب من واشنطن أن تقف بجانبه للضغط على فرنسا للدخول في مفاوضات مع الجزائريين لوقف الحرب في الجزائر، إذ قال لمستشار الرئيس إزنهاور لشؤون شمال إفريقيا روبر مورفي: "إن نهاية سريعة لحرب الجزائر ستحمي شمال إفريقيا من فيروس الشيوعية"⁽⁴⁴⁾.

وبذلك فتح العدوان على الساقية المجال واسعا لواشنطن للتدخل المباشر في حرب الجزائر، فصرح جون فوستر دالاس كاتب الدولة الأمريكي "أن واشنطن سوف تبلغ باريس بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تفعل كل ما تستطيع من أجل المحافظة على شمال إفريقيا من أجل أمن الغرب"⁽⁴⁵⁾.

كانت واشنطن تنوي لعب دور هام في حل القضية الجزائرية - حسب ما اقترحه بورقيبة - وهو إقناع فرنسا بأن تستجيب لوقف إطلاق النار في الجزائر وفتح المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني - في إطار مؤتمر دولي تحضره كل من تونس، المغرب، ليبيا، الولايات المتحدة الأمريكية هدفه منح الاستقلال الداخلي للجزائر. وفي حالة رفض فرنسا، فإن أمريكا ستتوقف عن مساعدة فرنسا في هيئة الأمم المتحدة عند احتجاج تونس عن سياستها. كما ستتبنى أمريكا سياسة نشطة من أجل الدعم الاقتصادي والعسكري لكل من تونس والمغرب مما سيعرض المصالح الفرنسية للخطر في هذين البلدين جراء التأثير الأمريكي.

كما شرح بورقيبة موقفه لمورفي قائلاً: "إنني لست محايداً في هذا الصراع، لأن وقوفي إلى جانب الثورة الجزائرية سيجعلها دائماً قريبة من الغرب، أما فيما يتعلق بوجود الجيش الفرنسي بتونس فإنني أطلب انسحابه بلا شروط وفي أقرب وقت"⁽⁴⁶⁾.

وبعد لقاء مورفي مع بورقيبة، بعث مورفي برأيه إلى واشنطن حيث يرى بأن تقبل فرنسا بأن تسحب قواتها من تونس ما عدا بنزرت لأن تواجد القوات الفرنسية على

التراب التونسي لا يتماشى وسيادة هذه الأخيرة، وفرنسا لا تستطيع أن تحافظ على بنزرت إلا إذا سحبت قواتها من بقية التراب التونسي⁽⁴⁷⁾.

وعلى حكومة فيليكس غيار أن تقبل مساعي كل من بريطانيا والولايات المتحدة والتي يمثلها كل من هارولد بيلي وروبير مورفي (Harold Beeley et Robert Murphy) واللذان يريدان أن يتحاشى لجوء تونس إلى مجلس الأمن، كما اقترحا تشكيل لجنة دولية لمراقبة الحدود الجزائرية التونسية⁽⁴⁸⁾.

لقد عارضت حكومة فيليكس غيار التخلي عن مواقع الطيران في جنوب البلاد بحجة أنها جد مهمة وهي تشكل قلب مشكل المساعدة التونسية لجيش التحرير الجزائري، وإذا انسحبت فرنسا من تونس وشمال إفريقيا ككل فسوف يفقد هذا الأخير لصالح المعسكر الشيوعي⁽⁴⁹⁾.

من جهته رفض الرئيس التونسي ما جاء به بيلي ومورفي، والذي يقوم على وجود لجنة مراقبة موجودة في الجزائر بإمكانها أن تتوج إلى تونس في حالة وجود أي طارئ، وذلك لأنه لا يريد أن يضع نفسه في أي موقف يجعله يظهر فيه واقفا إلى جانب فرنسا ضد جبهة التحرير الوطني⁽⁵⁰⁾.

كما أن دعم تونس للثورة الجزائرية يمثل خيارا استراتيجيا ليس فقط بسبب إيديولوجية رجل قضى معظم حياته الثورية من أجل استقلال بلاده ولا يستطيع أن يكون محايدا أمام ثورة يخوضها شعب شقيق وجار، بل أنه كان كذلك خيارا مملى عليه من طرف اعتبارات سياسية لاقتناعه بأن استقلال تونس غير كامل مادامت الجزائر تحت بطش الاستعمار الفرنسي، خاصة إذا كانت السياسة الفرنسية تعتبر أن الجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا⁽⁵¹⁾.

إن قصف الساقية قد سرع وضعية التطور نحو القطيعة في العلاقات الفرنسية-التونسية، كما أدى إلى إسقاط حكومة فيليكس غيار يوم 15 أبريل 1958، الشيء الذي أدى بدوره إلى فشل المساعي الحميدة لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وحتى بريطانيا بين فرنسا وتونس، كما أن القرارات المتخذة في ندوة طنجة حول توحيد المغرب العربي من 27 إلى 30 أبريل 1958 طبعت بتراصف كل من تونس والمغرب بعيدتين عن جبهة التحرير الوطني. وكان من غير الممكن إجراء مفاوضات من أجل الاتفاق حول الارتباط ما بين فرنسا وفدرالية الدول المغاربية، ولكن كانت بالأساس حول إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي اعترفت بها تونس منذ إنشائها في 19 سبتمبر 1958، وصيغة الاعتراف بها رسميا جاءت على لسان الرئيس التونسي الذي اعترف بها في مؤتمر صحفي يوم 18 فيفري 1959 مصرحا مايلي: "لقد اعترفنا بالحكومة الجزائرية بوصفها ممثلا للشعب وللوطن وللدولة الجزائرية"⁽⁵²⁾. ولعل هذا ما زاد من حدة التوتر في العلاقات الفرنسية التونسية.

وكان شيئا منطقيًا أن تعترف الحكومة التونسية بذلك من أجل أن لا تدفع بالحكومة المؤقتة الجزائرية إلى الارتقاء في أحضان عبد الناصر والمعسكر الشيوعي. و لم تخف كل من تونس والمغرب أن السبب الرئيسي وراء إنشاء الحكومة الجزائرية هو التفاوض مع فرنسا من أجل إيقاف الحرب في الجزائر، وإخلاء القواعد العسكرية الفرنسية في كل من تونس والمغرب⁽⁵³⁾.

الخاتمة:

لم تستطع تونس التي كانت تحضر استقلالها أن تجتنب ما يحدث في الجزائر ووجدت نفسها مقحمة ضمن تطورات القضية الجزائرية ، ولم تكن سياسة البطش التي مارستها القوات الفرنسية بفعل إيقاف المساعدات الاقتصادية و العسكرية الفرنسية ولا

الإجراءات التعسفية من خلال قصف ساقية سيدي يوسف بحجة ملاحقة الثوار، عزم التونسيين على تقديم العون للثورة الجزائرية.

كما لم يتوان الرئيس بورقيبة في إيجاد حل لمشكلة توقيف المساعدات الاقتصادية والعسكرية لبلاده من طرف الحكومة الفرنسية و سعى جاهدا إلى إيجاد حل عن طريق الدول الغربية .

لقد كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تتعامل مع مسألة المساعدات لتونس ولاسيما العسكرية منها بحذر وتحفظ شديدين خشية أن يؤثر ذلك على علاقاتها مع فرنسا ويبدو أن ذلك يرجع إلى موقع فرنسا في ترتيبات الحرب الباردة التي كانت في أوجها آنذاك إذ كان صناع القرار في واشنطن يخشون من حدوث "تصدعات" في الكتلة الغربية عموماً وفي حلف الناتو على وجه الخصوص.

ولعل السياسة المعتمدة من طرف الرئيس بورقيبة، والمعادية للاحتلال وللمعسكر الشيوعي هي التي جعلت تونس تشكل بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية موضوعاً لمصلحتها الخاصة وآمالاً لمشاريع أمريكية في بلدان العالم الثالث.

الإحالات والهوامش :

1 - جريدة المقاومة، 1956/12/3م

2- محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص99.

3- رجل سياسي فرنسي، ولد بباريس في 4 ماي 1895 وتوفي في 13 ديسمبر 1972، عضو بالحزب الاشتراكي الراديكالي بعد الحرب العالمية الثانية. تقلد عدة مناصب من بينها نائب راديكالي بعمالة قسنطينة في 1946، وفي الفترة الممتدة من 1947 إلى 1952 تقلد فيها منصب وزير المالية والعلاقات الاقتصادية من سنة 1947 إلى 26 جويلية 1948 ووزيراً للدفاع الوطني من 26 جويلية إلى 11 سبتمبر 1948. ثم وزير العدل من 92 أكتوبر 1949 إلى 11 أوت 1951

- ونائب رئيس الحكومة وزير المالية والعلاقات الاقتصادية من 11 أوت 1951 إلى 20 جانفي 1952. رئيس الحكومة من 8 جانفي إلى 28 جوان 1953. نائبا و رئيس السلطة العليا في المجموعة الأوروبية للفحم والصلب من سنة 1955 إلى سنة 1958. **أنظر:** وكيبيديا الموسوعة الحرة.
- 4- **انظر:** La Dépêche de Constantine 3/11/1954
- 5- للتفصيل أكثر حول موضوع العلاقات الجزائرية-التونسية **أنظر:** لمياء بوقريوة، **العلاقات الجزائرية التونسية 1954-1962**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، 2005-2006
- 6- نفسه، ص ص 82، 88 ولإطلاع أكثر حول الموضوع طالع: **أعمال الملتقى الدولي التاسع حول تصفية الاستعمار بتونس: الأطوار والأبعاد (1952-1964)**، ماي 1998، سلسلة تاريخ الحركة الوطنية، عدد 9، تونس، 1998.
- 7- السعيد الصافي، **بورقيبة سيرة شبه محرمة**، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2000، ص 205.
- 8 - في الثاني عشر من ايار 1881 وقعت فرنسا مع الباي التونسي محمد الصادق على معاهدة باردو Bardo التي نصت على أن تحتل القوات الفرنسية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل ، وفي شهر جوان عام 1883 وقع الباي التونسي على معاهدة المرسى التي منحت فرنسا السلطة الكاملة في تونس وهكذا دخلت الأخيرة في الحماية الفرنسية المباشرة. **ينظر:** عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل، **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (القاهرة، 2001)، ص 358
- 9- **جاء في بنوده:**
- 1- الاعتراف الفرنسي باستقلال تونس.
- 2- إلغاء فرنسا معاهدة الحماية.
- 3- مباشرة تونس لمسؤولياتها في الشؤون الخارجية والأمن والدفاع وتكوين جيش وطني تونسي
- 10- رياض الصمد، **العلاقات الدولية في القرن العشرين**، ج2، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 1983، ص 265.

11- صلاح العقاد، المغرب العربي: الجزائر-تونس-المغرب الأقصى دراسة في تاريخه الحديث وأحواله المعاصرة، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، (مصر، 1969)، ص495.

12- -Samia El Machat, "Les Relations Franco-Tunisiennes dans la tourmente Algérienne (1957-1961)", Acte du VIII^e colloque international sur histoire Orale et relations Tuniso-Françaises de 1954 à 1962, la parole aux témoins (tenu le 10 et 11 mai 1996 à Tunis), Institut Supérieur d'Histoire du Mouvement Nationale, Tunis, 1998, p.p 203, 204.

13- انظر:

Archives National Tunisiens : Mouvement Nationale, Politique Tunisienne, Date 26/04/1956, Carton 68, Dossier1.

14- انظر:

A.N.T : M.N, Note de renseignements, Date 12/02/1956, C68, D1.

وكذلك:

A.N.T : M.N -Commentaires sur le discours du président du conseil à l'Assemblée nationale constituante, Date 31/05/1956, A.N.T, M.N, C68, D1.

A.N.T, M.N -Politique franco-tunisienne, Date 07/05/1956, C68, D01.

15-Gian Polo Calchi Novati, « Le bombardement de sakiat-sidi-Youssef et les péripéties de la politique tunisienne face a la guerre d'Algérie », in .Actes du Ixe colloque international sur

processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964), I.S.H.M.V, Tunis, 1999, p61.

16- الحبيب بورقيبة: من أقوال المجاهد الأكبر لحبيب بورقيبة ، ط1، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة ، تونس، 1984، ص183

17-El Machat, Op.cit, pp 204-205

18- للتفصيل أكثر حول موضوع العلاقات العسكرية الجزائرية-التونسية أنظر: لمياء بوقريوة، مرجع سابق،

ص ص 141، 178

19- الصافي، مرجع سابق، ص 230.

20-El Machat, Op.cit, p 205

21 - الصافي ، مرجع سابق، ص ص.203

22-El Machat, Op.cit, pp 205-206.

23- سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة، ت: محمد حافظ الجمامي، الجزائر، 2002، ص 500 . ففي 17 سبتمبر 1957 عرض ملك المغرب في خايط ألقاه في طنجة حلا للمشكل الجزائري عن طريق التفاوض وفي 7 أكتوبر 1957، قدم الباهي الأدمم نائب رئيس المجلس التونسي اقتراحا في الأمم المتحدة صاغه بورقيبة من أجل تسوية للقضية الجزائرية بعقد ندوة من أربعة أطراف فرنسا، جبهة التحرير الوطني، تونس، المغرب.

24 -El Machat, Op.Cit, p206

25- دوايت ايزنهاور: الرئيس الرابع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية، ولد في ولاية تكساس عام 1890، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية تقدم في سلك الخدمة العسكرية بسرعة بالغة حتى وصل إلى رتبة جنرال، وفي عام 1950، عين القائد الأعلى للقوات الحليفة في أوروبا بعد أن كان قد ترك الجيش، وفي عام 1953 انتخب رئيساً للجمهورية كمرشح للحزب الجمهوري ووجدد انتخابه في عام 1956،

- طرح في عام 1957 مشروعه الذي عرف باسمه "مشروع ايزنهاور"، استمر في الرئاسة إلى عام 1961، و توفي عام 1969.
- 26- للإطلاع أكثر حول موضوع العلاقات التونسية الأمريكية في هذه الفترة من خلال أرشيف وزارة الخارجية الأمريكية المنشور، أنظر مقال الدكتور: ناظم رشم معتوق الأمانة، "تونس والولايات المتحدة الأمريكية (1956-1958) دراسة في العلاقات السياسية"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع عشر، ديسمبر 2011، ص 16-29
- 27- نفسه.
- 28-El Machat , Op.cit. , p207
- 29-IBID. p208
- 30-IBID
- 31- ناظم رشم معتوق، مرجع سابق
- 32- نفسه
- 33- El Machat, Op.cit. pp 208-209
- 34- الصافي ، مرجع سابق، ص. 231
- 35- نفسه.
- 36- ويذكر الصافي سعيد في مرجعه المشار إليه سابقا أنهم كانوا ثلاثة جنود.
- 37- الطاهر بلخوجة، لحبيب بورقيبة: سيرة زعيم، علامات للطباعة والنشر، الشرقية، تونس، (ب س ط)، ص 43
- 38- المرجع نفسه، ص. 44.
- 39-El Machat, Op.cit.p.210
- 40- حسب الإحصاءات التي وجدت في جل المراجع التي تتحدث عن قصف الساقية ومنها بلخوجة، مرجع سابق، ص. 44.
- 41 -Irwin M. wall, Traduit par ph.E.Roviart, "Les États-Unis la Grande Bretagne et l'affaire de Sakiet Sidi yousef" in: Actes du

VIIIe colloque International sur histoire orale et relations tuniso-françaises de 1945 à 1962 la parole aux témoins, tenu le 10 et 11 mai 1996 à Tunis, I.S.H. M. N, Tunis, 1998, p217.

لقد تلقى الجيش الفرنسي ضربات موجعة عديدة، من طرف فرق جيش التحرير الجزائري، ضد قواعده العسكرية الموجودة على الشريط الحدودي، المتاخم للأراضي التونسية، حيث استطاعت الكتيبة الثالثة لجيش التحرير الوطني يوم 20 أكتوبر 1957، بالقاعدة الشرقية تحت قيادة لعياشي حواسنية وعبد الوهاب صوالحية، من شن هجمات متلاحقة على ثلاث قواعد عسكرية فرنسية، وحطمتها نهائياً، وتم خلالها تحرير الجزائريين المحتجزين والتحق جميع أفراد الكتيبة، بالمنطقة الحدودية قرية ساقية سيدي يوسف، للمزيد من التفاصيل انظر:

-المنصف بن فرج، ملحمة النضال التونسي الجزائري من خلال حوادث ساقية سيدي يوسف، المغرب للنشر، تونس، 2002،

ص 22 وانظر أيضا **Histoire militaire de la guerre d'Algérie**, Ed, Albin Michel paris, 1982, p195

42- Irwin M. Wall, Op.cit, p.218

43- بلخوجة، مرجع سابق، ص.45..

44- الصافي ، مرجع سابق، ص..233

45 -M. Wall, Op.cit. pp 222-223.

46- الصافي ، مرجع سابق، ص. 233

47-Irwin M. Wall, Op.cit. p. 226

48-El Machat, Op.cit. p. 210

49-M. Wall, Op.cit, p.227.

50- El Machat ,Op.cit, p. 211

51-Noureddine Boujellabia , **La bataille de Bizerte , telle que je l' ai vécu**,Sud Edition, Tunis, 2004, p38

52- El Machat, Op.cit .p212

53- IBID.

التطور التاريخي للتسويق السياسي قراءة في تجليات الثورة السورية إعلاميا

د/ رضوان بلخيري/ جامعة العربي التبسي /تبسة

ملخص:

يعد التسويق السياسي في وقتنا الحاضر هو احد الاتجاهات المعاصرة لدراسة التسويق الحديث ، إلا انه لم يلق الاهتمام اللازم من قبل الباحثين و الكتاب و خاصة المتخصصين في مجال التسويق ، مما انعكس على قلة الأدبيات الموضوعية في هذا المجال ، و عدم تطور هذا الاتجاه بالشكل الذي يتناسب مع أهميته لمختلف المجتمعات و لأنه يمس حياتهم بشكل مباشر أو غير مباشر ..و عليه فان الإطار المفاهيمي لهذا الاتجاه بقي غامضا و مبهما لدى الكثيرين حتى المختصين منهم، فقد يعتقد البعض بان التسويق السياسي ما هو إلا تقنية من تقنيات التسويق ، أو أحد التقنيات المستخدمة في العمل السياسي، أو أنه يقع ضمن الفكر الاستراتيجي المعاصر ، أو أنه يمثل جانبا مهما من العلوم السلوكية ؛ إلا أنه يعد مجموعة من الخطط والبرامج الممنهجة والمبنية وفق أسس علمية صحيحة، و على الرغم من أن هذه الاعتقادات قد تكون ذات جوانب صحيح لكنها تبقى ناقصة غير معبرة عن العمق الصحيح للإطار المفاهيمي لما يتضمنه التسويق السياسي.

الكلمات المفتاحية: التسويق، التاريخ، السياسة، الثورة، سورية، الشخصية، الرموز، السياسية.

Abstract:

Political marketing in contemporary times is one of the modern trends of modern marketing study, but it has not received the attention of researchers and writers, especially

specialists in marketing, Which was reflected in the lack of literature developed in this area, And the lack of development of this trend in a manner commensurate with the importance of different communities and because it affects their lives directly or indirectly, Thus, the conceptual framework of this trend remains ambiguous and vague to many, even specialists, some believe that political marketing is only a technique of marketing techniques, Or one of the techniques used in political action, or that it falls within contemporary strategic thinking, Or is an important aspect of behavioral science; however, it is a set of plans and programs systematic and built on the basis of scientific correct, Although these beliefs may have true but incomplete aspects, they do not reflect the correct depth of the conceptual framework of political marketing.

Keywords: Marketing, History, Politics, Revolution, Syria, Personality, Symbols, Politics.

أولاً: ضبط المفاهيم

1- تعريف التسويق - السياسة:

- تعريف التسويق: " التحليل والتنظيم والتخطيط والسيطرة على نشاطات وعلى استراتيجيات وعلى موارد المشروع التي تؤثر تأثيراً مباشراً في الزبون، بقصد إشباع رغبات واحتياجات مجموعة الزبائن المختارين بشكل مريح " ¹.

- **تعريف السياسة:** "السياسة هي رعاية شؤون الأمة داخلياً وخارجياً، وتكون من قبل الدولة والأمة، فالدولة هي التي تباشر هذه الرعاية عملياً، والأمة هي التي تحاسب بها الدولة".

2- **تعريف الدعاية السياسية:** "على أنها مجموعة متناسقة من التقنيات الهادفة إلى إيصال المعلومات و الأفكار و المشاعر إلى الناخبين . و هذا الاتصال يخلق و يقوي ، أو يحطم بعض الآراء و المعتقدات لدى الناخب."

3- **تعريف التسويق الانتخابي:** " هو حمل أو تشجيع أكبر عدد ممكن من الناخبين على الإدلاء بأصواتهم لصالح حزب أو مرشح سياسي معين."

4- **تعريف التسويق السياسي²:**

* **تعريف رينج Wring:** التسويق السياسي هو استخدام المرشحين أو الحزب لأبحاث استطلاع الرأي وتحليل بيئي لإنتاج وتعزيز عرض تنافسي يساعد على تحقيق أهداف المنظمة وإشباع جماعات الناخبين، في علاقة تبادلية مع أصوات الناخبين.

* **ليز مارشمينت:** التسويق السياسي هو نتيجة المزج بين التسويق والسياسة، وعملياً يمثل اختراق للمجال السياسي من خلال التسويق، .. في حين تري "كافانا" أن الأحزاب مثل رجال الأعمال يبحثون عن الترويج لمنتجاتهم.

* **ماريك:** التسويق السياسي عملية معقدة فهو نتيجة جهد أكثر عالمية يستعرض كافة عوامل الاتصال السياسي للسياسيين ، ويؤكد علي أن التسويق السياسي منهج عام للاتصال السياسي ومن احدي وسائله

* وفي موضع آخر نجد أن التسويق السياسي يعرف كما يلي: " هو مجموعة من العمليات والأنشطة التي تؤدي إلى نجاح المرشح في الانتخابات السياسية، أو هو نظام متكامل

تتفاعل فيه مجموعة من الأنشطة التي تعمل فيه بهدف تخطيط وتسعير وتعزيز (تحشيد) المرشح من أجل فوزه في الانتخابات التي يطمح إليها³.

****التعريف الإجرائي:** هو مجموعة من الأنشطة التي تستهدف تعظيم وتنظيم عدد المؤيدين لمرشح سياسي أو لحزب معين أو برنامج أو فكرة معينة بما في ذلك الدعم المادي الجماهيري باستخدام كافة وسائل الاتصال الجماهيري أو أي وسائل أخرى ضروري.

5- الفرق بين التسويق السياسي و بعض المفاهيم الأخرى:

أ- الفرق بين التسويق السياسي و التسويق الانتخابي

* - أوجه التشابه

يخلط الكثير من المهتمين بين التسويق السياسي والتسويق الانتخابي وفي هذا المجال قد يكون من المفيد بداية القول أن كلاهما يشترك في الآتي:

1. الهدف:

- من حيث الهدف كلاهما يستهدف تقديم صورة ذهنية جيدة لدى الناخبين عن الحزب أو مرشحه.

- وكلاهما يسعى إلى إقناع جمهور الناخبين بالتصويت للحزب أو المرشح للحصول على التأييد الجماهيري.

2. المتطلبات والوسائل: وهي متعددة ومتباينة وأهمها يتمثل في: ⁴ دراسة السوق الانتخابي تمهيدا لتخطيط الحملة الانتخابية.

- التعرف على آمال وطروحات الناخبين.

- رأي الجماهير في الحزب.

- مدى استعداد الناخبين للإدلاء بأصواتهم في صناديق الاقتراع.

- إعداد البرنامج الانتخابي بالإضافة إلى تحديد الموضوعات التي يتم الاعتماد عليها لجذب أو الحصول على تأييد الجماهير
- تحديد إذا ما كانت الحملة الانتخابية ستعتمد أيديولوجية معينة أم تتم على أساس المرشح أو الحزب ذاته.
- اختيار الوسائل الملائمة للاتصال الجماهيري (اتصال شخصي، مؤتمرات، صحف منشورات، وسائل مرئية أو مسموعة...).

* - أوجه الاختلاف

- أما من حيث أوجه الاختلاف فيمكن القول بأن التسويق السياسي أكثر شمولاً واستمرارية عن التسويق الانتخابي، فبمجرد أن ينجح المرشح في حالة التسويق الانتخابي قد تنقطع صلته بجمهور الناخبين، أما في التسويق السياسي فإن الأمر يتطلب استمرارية الاتصال حتى بعد كسب الانتخابات
 - إن التسويق الانتخابي قد يتلاءم مع مرشح فردي، وليس مع مرشح حزبي كما أنه ليس بالضرورة هنا أن يحصل المرشح على نسبة معينة من عدد الناخبين، وبالتالي يمكن القول بأن التسويق الانتخابي هو امتداد للتسويق السياسي والاجتماعي، كما يمكن القول أيضاً بأن التسويق الانتخابي يهدف إلى حمل أو تشجيع أكبر عدد ممكن من الناخبين على الإدلاء بأصواتهم لصالح مرشح سياسي معين.
- ب- الفرق بين التسويق السياسي و التجاري:**

يمكننا أن نتلمس خيوط الفرق بين التسويق السياسي والتسويق التجاري من خلال الجدول التالي:⁵

التسويق السياسي	التسويق التجاري
يتم تحويل العمل السياسي من قبل رؤساء الأحزاب، ويتم التركيز على الأمور الحزبية والسياسية.	يتم اختيار المنتجات بواسطة الموزعين ويتم تسليمها إلى المستهلكين عموماً، وكلما زادت المبيعات زاد الطلب.
توجيه الحملة الانتخابية بتوجيه خارجي من قبل الخبراء ويتم التركيز على المرشح، وتجري محاولات لإيجاد شعور مناسب حول المرشح من قبل الناخب.	البيع والتسويق = إيجاد أسواق لمنتجات، واستعمال الدعاية المعتمدة على صورة الشركة.
توجه الحملة بواسطة خبراء التسويق السياسي من الخارج ويتم التركيز على الناخب، والتصويت هو الذي يحدد الرسالة المرسله إلى الناخب.	تشخص الشركات احتياجات المستهلك ومن ثم تطور المنتجات التي تلي تلك الاحتياجات.
يقدم الفاعل السياسي أو المرشح للانتخابات مظهراً جسدياً وسلوكياً معيناً.	كل منتج / سلعة لها خصائص متميزة: اللون، الشكل، العرض، الحالة
كل مرشح في الانتخابات يعرض بالتسويق وتقديم البرنامج.	يرتبط كل منتج بالخدمات التي يقدمها بفضل إيجابياته.
يوظف الفاعل السياسي أو المرشح تقنيات متنوعة وينزلها على أرض الواقع محاولة	لأجل إشهار المنتج وتشجيع شرائه توظف عملياً مجموعة من البرامج

الاشهارية وتخفيضات في أماكن البيع.	منه كسب الأصوات أو دعوة الآخرين بالانخراط في الحزب مثلاً.
توظيف السلوك الفعلي الواقعي لغرض تعريف الزبائن والزبائن المحتملين وكذلك النماذج الإحصائية لعرض تقييم قيمة كل زبون.	يستخدم الفاعل السياسي أو المرشح أدوات تواصلية لغرض تعرف أين وكيف ولمن يصوت الأفراد، كما يوجه الاتصال إلى الناخب شخصياً.
تسويق جودة المنتج من خلال العلامة والسمة.	يتم التركيز في العمل السياسي على المرشح ويتم التشديد على إيجاد أفضل رجل سياسي كاريزماتي أو مرشح مثالي.

ثانياً: التسويق السياسي

1 التطور التاريخي للتسويق السياسي

ليس للتسويق السياسي تاريخ ولادة. فمنذ أن ظهر الإنسان وبدأ يتكلم ويرسم ويكتب، بدأ يمارس الإقناع. وهكذا نشأت أولى أشكال «الدعاية». وتاريخ الدعاية طويل وقديم، لكنها تطورت واعتمدت على المزيد من الأساليب مع ظهور المطبعة ابتداءً من العام 1436. فقد أتاحت المطبعة للدعاية الوصول إلى عدد أكبر من الناس. ولكن مع انتشار الصحافة، وخاصة الصحافة الشعبية، ولاحقاً الراديو والتلفزيون، اعتمدت الدعاية على أساليب فنية متنوعة. ومع ظهور الاقتراع الشامل المباشر ظهرت أشكال جديدة في أساليب الضغط الجماعي والتأثير على الناخبين أو

المقترعين. وهكذا ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية أولى الاستعراضات الشعبية والمسيرات تأييداً لهذا المرشح أو ذلك. وهكذا كان الأمر بالنسبة لهتلر مثلاً أو موسوليني. في النصف الثاني من القرن العشرين، ساهم تقدّم التقنيات بمدّ التسويق السياسي بأدوات جديدة: مثل استطلاعات الرأي العام، المعلوماتية، علم النفس الاجتماعي. وأصبحت هذه التقنيات من أهمّ الأدوات في التسويق السياسي.

فالرئيس الأميركي روزفلت هو أول من استخدم أحدث الوسائل الدعائية في التسويق السياسي. فهو أول من أدخل في جهاز الحكومة قسم «العلاقات العامة»⁶ وهكذا استُبدل مصطلح «الدعاية» بمصطلح «التسويق (ماركتنغ) السياسي»؛ إذ كان مصطلح الدعاية ما زال مرتبطاً في أذهان الناس بأساليب التلاعب والتحريف التي مارستها أجهزة «بروباغاندا شتافل Propaganda tqafel» التي قادها غوبلز Gobbels النازي، وبأساليب بافلوف بافلوف Iov - pav التي طبّقها ستالين. لكن، وبشكل دقيق، طبّقت أولى أساليب التسويق السياسي المنهجية خلال الحملة الانتخابية التي خاضها إيزنهاور في العام 1952، وقد صمّمت هذه الحملة وإدارتها وكالة الأعلان «تادبيتز Ted bates» الأمريكية. بعد ذلك، وفي العام 1960 وظّف ولأول مرّة، جون كنيدي في حملته تقنيات التحليل الاجتماعي. السياسي المتطورة لمعرفة اتجاهات الرأي العام الشعبي.

وفي العام 1968، ثم في العام 1972، وبعد دراسة دقيقة لأساليب الدعاية المتلفزة، ركّز نيكسون في حملته الانتخابية على أسلوب المخاطبة عبر الشاشة الصغيرة، وأوّل من طبق أسلوب التسويق السياسي الحديث في فرنسا، كان الخبير ميشال بنجران Michel Bongradn في خدمة المرشح جان لوكانوييه Jean lecanuet، ثم

تلاه نيك مالونيان Niek Malounian إذ صمّم حملة جان جاك سيرفان شرايبر، لكن حملة انتخابات الرئاسة الأولى التي جرت في فرنسا في العام 1974 شهدت تطبيق أساليب التسويق الانتخابي بشكل دقيق وواسع، وعلى يد فريق متكامل لكلّ من المرشحين فاليري جيسكار ديستان، وفرنسوا ميتران، وجاك شابان ـ دلماس. كما ساهم التطور التكنولوجي الهائل في مجال وسائل الاتصال خاصة منها الانترنت ومختلف مزاياها... و ظهور الشبكات الاجتماعية مثل "تويتر و الفيس بوك" وهكذا دخل التسويق السياسي في الممارسة العادية والضرورية كل الحملات الانتخابية، خاصة في بلدان أوروبا الغربية وفي أمريكا الشمالية، وحتى البلدان العربية⁷.

*و من عوامل ظهور التسويق السياسي:

1) العامل الإيديولوجي:

يظهر التسويق السياسي في البيئات التي تحكمها الاختلافات، أي عدم وجود فوارق إيديولوجية قاطعة فيها، في غياب التحكم او عدم مصداقيتها، يمكن التمييز بين المرشحين، عبر خصائصهم الشخصية و قدرتهم على الاتصال بالآخرين⁸.

2) العامل السياسي:

يظهر التسويق السياسي، في الأنظمة الديمقراطية، و ليس في الأنظمة الديمقراطية السلطوية، أي في سياقات تحكمها المنافسة التي تعد مقياسا أساسيا للديمقراطية.

2- خصائص التسويق السياسي :

- يستخدم التسويق السياسي تقنيات تسويق السلعة والخدمات في مجال تسويق الأفكار وبرامج الأحزاب والمرشحين السياسيين.

- إن التسويق السياسي أسلوب إدارة لحملات انتخابية باستخدام كافة وسائل الاتصال الجماهيري
- إن المتخصصين في التسويق السياسي عادة ما يقدمون خدمات تساعد على تغيير أو بناء رأي عام حول برنامج الحزب المرشح، بدرجة أكبر من النصائح الخاصة بتكوين أو اتخاذ القرارات السياسية.
- التسويق السياسي يسعى إلى إحداث استجابة لحاجات حقيقية وليس لخلق حاجة ترتبط بسلعة كما يفعل الإعلان التجاري .
- التسويق السياسي لا يجد ولا ينال من حرية المواطن في الاختيار، كما أنه لا يعتبر علمًا سياسيًا .
- معرفة الجمهور المستهدف لدى ذلك المرشح سواء كان شخصاً أو حزباً أو جماعة.
- البعد السياسي (الإيديولوجي) في الدولة التي يتم فيها هذا النوع من التسويق.
- البعد الاجتماعي والثقافي.
- النظر إلى المستهلك المضاد من بقية الأحزاب والتيارات السياسية الأخرى.

4-أنواع التسويق السياسي⁹

أ- التسويق السياسي الشامل: كمنهج وسياسة وإستراتيجية تستهدف الكيان السياسي كاملا، وهذا امتداد للتحول من نمط الحزب ذو التوجه التسويقي إلى نمط الدولة ذات التوجه التسويقي.

ب- تسويق المؤسسات : وهذا النموذج وإن كان يجد له مجالا خصبا وتشجيعا من الدوائر الفاعلة في القرار السياسي بالغرب، فإن حضوره باهت في الدول العربية حيث لم تنجح الأحزاب والمؤسسات والجماعات الحضرية أو القروية في هذا المجال، ولم تعمل على تطوير أو تحديث أساليبها العتيقة في الممارسة.

ج- تسويق الأفكار والسياسات: يرتبط في حالة العالم العربي والإسلامي بشكل واضح ب" المبادرات الخارجية وبمشاريع الإصلاح الدولية وبالأجندة الدولية بشكل عام، وقدم بشكل بئس من خلال مؤسسات المجتمع المدني في أكثر من مكان في العالم العربي مفتقدا لأبسط القواعد العلمية للاتصال السياسي والقواعد الفنية لما يسمى مزيج التسويق السياسي".

د- تسويق الأشخاص والرموز السياسية:

ويتضح هذا النوع جليا في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تبني الشخصيات السياسية الكاريزماتية لتسوق للرأي العام المحلي والعالمي.

يمكننا القول أخيرا أنه في الوقت الذي أخذ التسويق السياسي يزحف على المجال السياسي في الدول الغربية وبأنماطه الأربعة وعن وعي وإدراك ومقاربة شمولية، تحول فيها التسويق السياسي من التركيز على: " بيع المنتجات المتواجدة (من خلال

الدعاية لسياسات الحزب وقادته وصوره) إلى إحلال الزبون في المقام الأول من خلال البحث في حاجات الناخبين ورغباتهم، ومحفزاتهم، كما تكشفها الاستفتاءات ومجموعة التركيز"، فإننا نجد في العالم العربي غياب التسويق السياسي الشامل، وتسويق الأفكار والسياسات في مقابل وجود تسويق للرموز السياسية من زعماء وحاشية، يخدم النظام القائم وبقائه.

5-وظائف التسويق السياسي:

التسويق السياسي من مطالب إدارة التسويق السياسي الناجح ، وطبقا لعلماء نظريات التسويق السياسي فإنه يقوم بـ 8 وظائف رئيسية:¹⁰

1-وظيفة الإنتاج: خلال ممارسة التسويق السياسي هناك تبادل بين الأحزاب السياسية والناخبين في السوق الانتخابي ، فكل حزب يقدم بعض المنتجات وهي الوعد بحكومة رشيدة ، وفي بعض الحالات المنتج قد يكون صورة المرشح - ايدولوجية او سياسات اجنبية محددة ، لذا فإن عملية التسويق مصممة لتسويق المنتج ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية وظيفة المنتج الأساسي للحزب الديمقراطي هي بيع الصورة السياسية لأوباما والحكم الرشيد المعتمد على التغيير.

2-وظيفة التوزيع: تشير للظروف المتعلقة بإتاحة التبادل لشريك التبادل وهذه الوظيفة لها بعدين توصيل الحملة وتوصيل العرض ، وتقوم وظيفة توصيل الحملة بتزويد شريك التبادل الأساسي والناخبين بإتاحة المعلومات المناسبة حول المنتج السياسي

ويشمل ذلك بث المعلومات المتصلة بالسياسات الحزبية والبرامج ووضع المرشحين في القنوات السليمة والتأكد ان وسيط التوزيع يلائم ايدولوجية الحزب.

3-وظيفة التكلفة: في التسويق السياسي تشير وظيفة التكلفة إلى إدارة المعوقات السلوكية والاتجاهية للناخبين من خلال استراتيجيات حملات تم حسابها بدقة ، بحيث يحصل الناخب على المعلومات المتصلة بالمنتج بدون انفاق نفود على ذلك.

4-وظيفة الاتصال: يشمل الاتصال وظيفة إبلاغ شريك التبادل الأساسي بالعرض وإتاحته وغالبا ما ينظر إليه انه صميم التسويق السياسي ، وبالنسبة للحزب السياسي يتضمن المحتوى السياسي أفكار سياسية وبرامج مستقبلية وتفسير للواقع السياسي المعقد ، وغالبا ما تشمل وظيفة الاتصال تبسيط الرسائل السياسية والموقف السياسي¹¹.

5-وظيفة ادارة الأخبار: ترتبط بوظيفة الاتصال وتستهدف شركاء التبادل الثانويين فهي إدارة شهرة المرشح أو الحزب، ومن أمثلة ذلك أنشطة العلاقات العامة ووسائل الإعلام وإدارة حملات الإعلان عبر الإنترنت وتعد جميعها وظائف لإدارة الأخبار ، و في عصر ثورة الاتصالات تلعب إدارة الأخبار دورا حيويا في نجاح التسويق السياسي.

6-وظيفة زيادة التمويل: لا يمكن لإدارة التسويق السياسي أن تستمر بدون زيادة التمويل ، فنجاح الوظائف الأخرى يعتمد بدرجة كبيرة علي وظيفة زيادة التمويل ، ولتزويد المرشح السياسي بالمصادر الملائمة ، لذا يعتمد الحزب السياسي على رسوم العضوية الحزبية وعلى التبرعات.

5- الثورة السورية كنموذج عن التسويق السياسي

لا شك و نحن نتابع أخبار الثورات العربية و بما فيها أخبار الثورة السورية نلاحظ ما يبذله الشعب السوري في الداخل من أجل نشر ثورته في أوساط طبقات الشعب المختلفة لفضح النظام و كسب المزيد من التأييد الشعبي و المحلي و الدولي لهذه القضية حيث تأتي هذه الجهود بعدة وسائل كي تحقق التأثير المرغوب فيه، وفي سوريا تشكل بالمفهوم التسويقي أساليب ترويج للدفاع عن فكرة محددة و هي: الحق في الحرية والإبقاء على الثورة حتى الانتصار.

و نحن هنا سنتعرف على الوسائل التي يستعملها الشعب السوري في دعم الثورة و الدفاع عنها و الإبقاء عليها و سنركز على وسائل التسويق المستعملة من قبل الثوار التي من رغم من بساطتها إلا أنها كانت مميزة و شديدة التأثير، و أول و أهم الوسائل المستخدمة لتسويق هذه الثورة هي:

أ-المظاهرات : و التي تتميز ب:¹²

- أنها ترتبط بالعيد الأسبوعي للمسلمين كل جمعة و لذلك لها دلالة عميقة تتعلق بالمنطلقات الدينية لدى المتظاهرين.
- لكل جمعة شعار خاص بها مثل: الشعب السوري ما ينهزم، صبرا سورية... الخ
- هذه المظاهرات تتميز بالسلمية لكن يتم مقابلتها بأساليب قمعية شديدة من النظام.
- تخرج هذه المظاهرات من مناطق متفرقة.

ب-الإعلام السوري و الفضائيات العربية:

بالرغم من التضيق الإعلامي الشديد على أخبار الثورة السورية و أوضاع الشعب السوري إلى أن شباب الثورة لم يقصروا في محاولة إيصال كل أخبار الثورة لوسائل الإعلام.

فالوسيلة الثانية من الوسائل المستعملة لتسويق الثورة السورية هي الإعلام السوري و الفضائيات العربية، حيث يرجع الفضل في استمرار الثورة إلى نشاط الإعلام و الذين عملوا جاهدين على تصديرها لوسائل الإعلام و الفضائيات العربية بالرغم من الصعوبات التي يتعرضون لها من طرف النظام السوري.

ج- الرسوم الكاريكاتيرية:

و أيضا من الأساليب المستخدمة في تسويق الثورة السورية هي الرسوم الكاريكاتيرية فهذا الأسلوب يتميز بنقل المعاني العميقة بصورة و كلمات مختصرة جدا.

د- مواقع التواصل الاجتماعي:

ونقصد بها الفيسبوك و تويتر و أيضا اليوتيوب و غيرها من برامج المحادثة و الاتصال والتواصل عن طريق الأنترنت حيث أجمع كثير من الخبراء على أن شباب الثورة السورية وجد ضالته في أدوات التواصل الاجتماعي لكي يعبر عن موافقه السياسية و كذا لكي يعرض للعالم ما يحدث في سوريا لحظة بلحظة.

خاتمة

من خلال ما سبق يمكن أن نستنتج أن للتسويق السياسي أهمية كبيرة وهو كمنشأ له نطاق واسع المدى ومتعدد الأطراف وعملياته ومشكلاته متشابكة كما انه يهيئ الاستقرار السياسي والمناخ المناسب لنمو الاقتصاد وجذب الاستثمارات لإيجاد استقرار سياسي ، ويعمل على تبديد المخاوف وتعريف المرشحين وبرامجهم وتقديم التطمينات لهم ودراسة رأي الجمهور وتسجيل آرائهم عن طريق الإقناع وطرح الأفكار والطروحات من خلال المبادئ العامة والمبسطة لإزالة الضباب وإمكانية الرؤية والعمل على تطبيق فلسفة التسويق السياسي وهي تلبية حاجات ورغبات الناخبين ورضاءهم ومعرفة الهدف وذلك عن طريق استخدام التحليل والتنظيم والتخطيط وضبط النشاطات والاستراتيجيات والطاقت وأيضاً لتحسين وضع الحزب ومساهماته المالية والانتماءات لحزب معين أو برنامج سياسي أو مرشح سياسي.

وفي هذا السبيل يستخدم التسويق السياسي جميع الوسائل الضرورية والتقنيات الممكنة للأساليب الحديثة للوصول إلى الهدف على سبيل المثال الإعلان السياسي والحملات الدعائية والسياسية عبر الانترنت من خلال مشاركة الاستشاريين ومديري الحملات السياسية

الهوامش

¹ - عبد المنعم، فؤاد (2007) ، التسويق الاجتماعي والتخطيط للحملات الإعلامية، ط1، عالم الكتب، القاهرة، ص 28.

² - أبو زيد، فاروق(2002). مشكلات الاتصال السياسي في مصر، ط1، مركز البحوث والدراسات السياسية، القاهرة، ص 22.

³ - نفسه، ص 22.

-
- ⁴-عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص 45.
- ⁵- مقلد، علي (2004)، فن تسويق الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر، سوريا، ص 34.
- ⁶- البشر، محمد (1997)، مقدمة في الاتصال السياسي، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، ص 82.
- ⁷- نفسه، ص 83.
- ⁸- نفسه، ص 90.
- ⁹- خليل المساعد، زكي (1997). التسويق في المفهوم الشامل، زهران للنشر والتوزيع، الأردن، ص 167.
- ¹⁰- نفسه، ص 184.
- ¹¹- نفسه، ص 185.
- ¹²- (wikipedia.org/wiki/Marketing_politique)، تم التصفح 2017/1/12

جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في إرسال البعثات الطلابية إلى

الخارج 1931-1956 - جامع القرويين بفاس أنموذجا-

أ/ بن بوزيان عبد الرحمان / جامعة 20 أوت 1955 / سكيكدة.

rahmane1402@hotmail.fr

الملخص بالعربية:

لقد أسست مدينة فاس بالمغرب الأقصى لثقافة المقاومة منذ أن احتضنت توقيع معاهدة الحماية على المغرب في 30 مارس 1912، وتعد هذه المدينة من المدن الرئيسية في استقطاب الجزائريين قبل وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر لما تتمتع به من موقع جغرافي ودور حضاري وثقافي باعتبارها العاصمة العلمية للبلاد، فقط كانت محط رحال الكثير من المهاجرين الجزائريين من مختلف المدن الجزائرية لا سيما الغربية منها كتلمسان، ومعسكر، ومستغانم، ووهران، وندرومة..، وقد لعبت دورا حساسا في تعليم وتكوين النخب الوطنية الجزائرية التي انغمرت في صراع مرير في مواجهة المحتل منذ سنة 1830 وإلى غاية 1962، سنوات لم تهدأ فيها قوات الاحتلال الفرنسي عن إذلال الشعب الجزائري.

بعدها اتسعت حركة التعليم العربي الحر بالجزائر مع أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، وأصبح لديها طلاب مؤهلون لاستئناف دراستهم الثانوية والجامعية، قررت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين توجيه بعثات طلابية إلى فاس بالمغرب الأقصى، وإلى "جامع القرويين" ومعهد "الرصيف" بفاس على وجه الخصوص، وقد ارتبط اسم فاس كثيرا بالثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، أين ارتبطت أسماء العديد من علماء ومشايخ العلم

والثقافة في الجزائر باسم جامع القرويين، فغص بالعشرات من طلبة العلم، أخذوا منه المعارف الدينية المختلفة، ووجد الطلبة الجزائريون فيه السند القوي في الكفاح، فكان له الفضل الكبير على الحركة الوطنية الجزائرية، حيث أمدّها بالشباب المثقف والمتحمس، ليساهموا بها في نشر العربية والإسلام لكفاح الاستعمار.

Abstract:

The city of Fez in Morocco had established to the culture of resistance since it hold the signature of the treaty of Fez in 30 March 1912, making Morocco into a French protectorate. This city is considered as one of the principal cities attracting Algerians before and after the French colonial of Algeria, for what it's enjoying of geographical location and cultural and civilisational role as the scientific capital of the country. It was the destination of a lot of Algerian migrants coming from different Algerian cities, especially the western ones, as Tlemcen, Mascara, Mustaganem, Oran, and Nedroma. It played an important role in educating and forming Algerian national elites which were engaged in a strong confrontations with the colonialists since 1830 to 1962. In this period the French colonial forces didn't cease of humiliating the Algerian people.

After that the movement of free Arab education expanded in Algeria in late thirties of the last century, and has had students who were qualified to began their school and academic studies,

the Association of Algerian Muslim Ulama decided to send students missions to Fez in Morocco, and especially to the university of Al Quarouiyine, and Er-Racif Institute in Fez. The name of Fez was too much linked to the Arab and Islamic culture in Algeria, where the names of a lot of scientists and scholars of science and culture in Algeria were linked to the name of the university of Al Quaraouiyine, which was overcrowded with tens of students who learned different religious knowledge. Algerian students found in it a strong support in their struggle, and it has the great merit on the Algerian national movement, it supplied it with cultivated and enthusiastic youths who will contribute to the propagation of Arabic and Islam in the sake of struggling the colonial.

كان التعليم العربي الحر خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر مقصورا على التعليم الابتدائي، في الزوايا والكتاتيب يفتقر إلى معاهد أو ثانويات، فكان هناك ما يشبه التعليم الثانوي الحر أيضا، وهذا النوع كانت تقوم به مدرسة مازونة،¹ وبعض الزوايا مثل زاوية الهامل وزاوية اليلولي، وزاوية ابن الحملاوي، ومعهد الحياة في ميزاب، ومساجد الجنوب عموما، وهذه المؤسسات كانت تعلم العلوم الإسلامية، والفقه، وعلوم اللغة، ومختلف المواد المكملة لثقافة عربية إسلامية متينة.²

وجراء السياسة التعليمية الفرنسية التي حاربت هذا النوع من التعليم، بإحلال مكانه تعليم يتنافى ويتعارض مع مقومات الشخصية العربية الإسلامية،³ بدل الجزائريون جهد كبير في تأسيس المدارس الحرة، والتي وصل عددها سنة 1952 إلى ثلاثمائة مدرسة حرة

لتعليم القرآن واللغة العربية، كان من بينها 140 مدرسة تشرف عليها جمعية العلماء الجزائريين، والتي كانت تدير بها حسب برنامج موحد ومنظم، إلا أنها في العديد من المرات كانت تتعرض إلى عراقيل، من غلق ومصادرة وسائلها، ومتابعة وسجن معلميها، ذلك ما كان يؤثر على الاستمرارية في التدريس من قبل الطلبة، الذين كان شغفهم بالعلم ليس له حدود.⁴

أما التعليم العالي الحر فلا وجود له،⁵ لذلك اكتفى الطلبة الراغبون في مواصلة تعليمهم العالي بلغتهم العربية بالتوجه إلى المغرب الأقصى وإلى جامع القرويين،⁶ أو إلى تونس إلى جامع الزيتونة لتعلم الدين والثقافة، وهم يتحملون في ذلك المشقة الشديدة من أجل تحصيل العلم ودراسة التراث الإسلامي، كما اتجه بعضهم صوب جامعات المشرق العربي، وهذا الخلل هو الذي جعل جمعية العلماء المسلمين تجتهد وتسعى إلى إرسال بعثات طلابية إلى القرويين بالمغرب الأقصى، بحكم قربه من العمالة الوهرانية، من أجل تثبيت تواجدها في العمالة الوهرانية ومواجهة الطريقة المنحرفة، التي كانت تتخذ من فاس الدعامة الأساسية لها.⁷

كما يجب الأخذ بالاعتبار ذلك الاهتمام المتجذر لسلطين المغرب بتقريب الطلبة والعلماء، الذين وجدوا في حالة اللا استقرار بعد ضعف الدولة الزيانية، وعدم اهتمام العثمانيين بتقريب العلماء، وما تبعه من غزو صليبي فرنسي، فرصة للاستفادة منهم، واستغلالهم لتثبيت ملكهم، وكم من عالم جزائري اشتغل في بلاط ملوك المغرب، قديما وحديثا، فهي كلها عوامل جعلت من فاس مزارا لكل طالب علم، بعدما ضيق عليهم التعليم وصودرت موارده في فترة الاحتلال.⁸

لقد تحكمت عوامل عديدة في هجرة الطلبة الجزائريين إلى المغرب الأقصى،⁹ وبالخصوص إلى القرويين، فلم تكن كلها أسباب سياسية، فقد كان طلب العلم أهم مقصد لهم، وقد وجد البعض الحياة في المغرب أفضل وأرحب منها في الجزائر، فاخترتوا الإقامة هناك، ثم عددا منهم كانت لهم جذور تاريخية من أسر وأنساب وتجارة وغير ذلك، وقد كان الجو العلمي في المغرب أفضل منه في الجزائر رغم تقلب الأحوال السياسية فيه، فكثرت مراكز التعليم والعواصم العلمية، ووفرة المكتبات ووجود القرويين، وتقدير ولاية المغرب لأهل العلم، كل ذلك لعب دورا في جلب طلبة العلم واهتمام أوليائهم إلى هناك.¹⁰

وهنا نطرح الأسئلة التالية: ما هي طبيعة الثقافة التي قدمها جامع القرويين كإضافة للجزائريين؟ وماهي العراقيل والصعوبات التي وقفت في وجه الطلبة الجزائريين؟ وما هو الدور الذي لعبته جمعية العلماء في الإشراف على الطلبة، في التوجيه والتأطير؟ إلى أي مدى بلغ أثر هؤلاء الطلبة حريجي القرويين داخل الحركة الوطنية والثورة التحريرية؟

1-التعريف بجامع القرويين:

يرجع الفضل في بناء وتأسيس جامع القرويين بفاس إلى فاطمة بنت محمد الفهري في فاتح رمضان عام 245هـ الموافق لـ30 نوفمبر 859م، وأصبح الجامع والجامعة الدينية الثقافية الملحقة به مركزا للنشاط الفكري والثقافي والديني قرابة الألف سنة، وبعد أن وسعه يعقوب المريني صار يستوعب 22 ألف مصل، وتعتبر جامعة القرويين في العصر الحديث أقدم جامعة ثقافية في العالم،¹¹ فهي أقدم من جامعة بولون Bologne في إيطاليا التي تأسست سنة 1119م، وجامعة أكسفورد البريطانية التي تأسست سنة 1229م، وجامعة السوربون الفرنسية التي تأسست في باريس سنة 1257م، وكان يدرس بها إلى

جانب علوم القرآن والتفسير والأحاديث النبوية والفقه، والقانون العام وقوانين الميراث، وعلوم اللغة العربية والمنطق، ومختلف العلوم الطبيعية، كالرياضيات والجغرافيا والفلك.¹²

يعتبر جامع القرويين المركز الأساسي للحياة العلمية في تاريخ المغرب الأقصى، مما جعله يلعب دور ديني وسياسي كبير ليس في تاريخ هذا البلد وحده، وإنما تاريخ بلاد المغرب الإسلامي وحتى مشرقها، فقد كان بمثابة معقل أساسي للمذهب المالكي، ومكان تصدر منه البيعة والفتوى.¹³

ومع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عرف جامع القرويين نهاية مرحلة نظام التعليم التقليدي، وقيام نظام إصلاحي جديد، الذي بدأ حيز التطبيق عقب ظهري 30 مارس 1931،¹⁴ و31 مارس 1933، أين حددت مدة الدراسة داخل القرويين في 12 سنة موزعة على ثلاثة مراحل، التعليم الابتدائي، والتعليم الثانوي، والتعليم العالي، كما حددت المقررات الدراسية ووزعت على شعبتين أساسيتين، هما الشعبة الدينية، والشعبة الأدبية، وتغير نظام الامتحانات من نظام الإجازة التقليدي إلى نظام الامتحانات، كما أن العالم الذي كان يتقاضى راتبه عن طريق الأحباس تحول إلى موظف ينتظر راتبه الشهري كغيره من الموظفين الإداريين.¹⁵

هكذا اعتبر جامع القرويين، فهو المهدي الذي انفجرت منه الثقافة العربية الإسلامية في غرب العالم الإسلامي، فأصبح قبلة للأنظار، ومطمح الزوار، تسارع إليها العلماء والطلبة من كل الأقطار،¹⁶ وارتبط اسمه كثيرا بالثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، فقد ارتبطت أسماء العديد من علماء ومشايخ العلم والثقافة في الجزائر باسم جامع القرويين، لا يسعنا المقام هنا لذكرها كلها،¹⁷ كما لا يجب أن ننسى دعوة علمائها لتأييد كفاح الجزائر المسلح ضد الاحتلال الفرنسي الذي وقع عليها غداة 05 جويلية 1830،

فأصبحت مدينة فاس وجامع القرويين هدفا لهم لتحقيق أنواع العلوم بعدما نضبت منابعه في الجزائر جراء السياسة الفرنسية التي قضت عليه.¹⁸

2- فاس في اهتمامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

إن الحركة الإصلاحية السلفية قديمة متداخلة في الأقطار المغاربية كلها، ما تكاد تظهر في بلد حتى تنتقل وتنتشر في غيره بواسطة الطلاب والمريدين، والكتب والمجلات، وكانت المعاهد والمساجد والزوايا هي مراكز للتكوين، وتشابه كثيرا العوامل المؤثرة في ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر وبلاد المغرب الأقصى، فكان مجلة "المنار" و"العروى الوثقى" الأثر البالغ في ظهورها، ساعدت في بروز عدة مشايخ حملوا لواء الحركة الإصلاحية والسلفية، منهم الشيخ شعيب الدكالي، وقبله الشيخ محمد بن كنون، وعبدالله السنوسي، ثم محمد العربي العلوي،¹⁹ وغيرهم...²⁰

دخلت بلاد المغرب الأقصى في اهتمامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مبكرا، وعلى الخصوص مدينة فاس باعتبارها حاضرة للثقافة العربية الإسلامية، وتواجد منارتها العلمية العامرة جامع القرويين، ومحاوله منها نشر أفكارها الإصلاحية، ولأن مدينة فاس كانت وقت ذاك معقل عبد الحي الكتاني عميد وكبير مشايخ الطرق الصوفية، لا في المغرب وحده، ولكن في كامل إفريقيا الشمالية، الذي تصدى لكل المحاولات النهضوية الدينية والسياسية في المغرب، لذلك فقد جند كل الطرق الصوفية في المغرب والبعض منها في الجزائر بدعم من سلطات الحماية في المغرب الأقصى، وإدارة الاحتلال في الجزائر، لمحاولة إفشال مخططاتها الإصلاحية.²¹

يظهر اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بحاضرة فاس سعياً منها إلى تثبيت دعائم الإصلاح فيها، لتأمين إرسال البعثات الطلابية إليها فيما بعد، وقد استغلت طبيعة نظام الحماية الذي كان أقل قيوداً من نظام الاحتلال المباشر في الجزائر، وذلك عن طريق صحافتها مثل "مجلة الشهاب"، و"المنتقد"، و"جريدة البرق"، وكان لمجلة الشهاب بحكم طول مدة صدورها الأثر الأكبر، حيث شارك عدد من علماء فاس الكتابة فيها، وتفاعلوا مع قضايا الأمة الإسلامية، ووحدة بلاد المغرب،²² وقد أحدثت مقالاتها هزة كبيرة في شرق المغرب، وقد مثلت مدينة وجدة قاعدة هامة، انطلقت منها الأفكار الإصلاحية نحو الأوساط الفاسية، وقد أكد على ذلك الأستاذ المصلح قدور الورطاسي خريج جامع القرويين بقوله "كأن حركة المغرب الأقصى"،²³ وعن أثر هذه الصحافة يذكر: "كنت أقرأ نتائجها تغزوا مدينة وجدة، أول نقطة مهمة ما وراء غرب الجزائر.."، وقد وصف أثر صحافة جمعية العلماء المسلمين بأنه "كان لصحف ومجلات ابن باديس أثرها الفعال- في الحركة الإصلاحية بالمغرب الأقصى-"²³ وعن أثر هذه الصحافة يذكر: "كنت أقرأ له-للشيخ ابن باديس- ما ينشره في الصحف والمجلات الجزائرية".²⁴

لقد كان لعلماء وطلبة تلمسان الأثر الكبير في نشر الفكر الإصلاحي داخل المغرب الأقصى، وفي ذلك يذكر قدور الورطاسي: "إزاء ما قام به أهل فاس في هذا الإقليم، لا ينبغي أن ننسى ما أسهم به التلمسانيون كذلك هناك من فنون الحضارة ونقل الأفكار السلفية من جمعية العلماء بالجزائر. ولا يعني ذلك أن أهالي الإقليم كانوا مجرد تلاميذ لهؤلاء، ولكن يعني أن الفاسيين والتلمسانيين بطبيعة حضارتهم وارتباطهم بمساقط رؤوسهم يسر لهم كل ذلك أن يكونوا جسراً بين الحركتين السلفيتين في فاس والجزائر، فهم الذين قاموا بمهمة الربط".²⁵

2-البعثات الطلابية إلى المغرب الأقصى:

عندما اتسعت حركة التعليم الحر بالجزائر وأصبح لديها طلاب مؤهلون لاستئناف دراستهم الثانوية والجامعية، قررت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسها الشيخ البشير الإبراهيمي توجيه بعثات طلابية إلى جامع القرويين ومعهد الرصيف،²⁶ وقد بلغ عددهم سنة 1951 حوالي 135 طالبا،²⁷ في غالبيتهم من عمالة وهران (111 طالب)، وبالأخص من ندرومة ومغنية، وقامت بتأمين منح دراسية لهؤلاء الطلبة.²⁸

وإذا ألقينا نظرة عن المكانة الاجتماعية لهؤلاء الطلبة، فإننا نجدهم في غالبيتهم من أبناء الفقراء، وهم أبناء أهل الزوايا والفلاحين، وبعض العائلات التقليدية، فكانوا يدرسون غالبا وهم يعرفون أن لا مكان لهم -التوظيف- داخل إدارة الاحتلال، وأن دراستهم كانت حبا للثقافة العربية الإسلامية لذاتها وتعبيرا عن الانتماء إليها، فكانت الدراسة تعني لهم الهجرة والاعتراب من اجل العلم وليس من أجل الخبز على حد تعبير المؤرخ أبو القاسم سعد الله.²⁹

وتذكر المصادر التاريخية أنه تكونت بفاس لجنة مهمتها توجيه الطالب الجزائري ومراقبة أخلاقه داخل القرويين وخارجه، وتكونت الهيئة المديرة للجنة من السادة: -جباري عبد القادر رئيس، عمار بيضة نائب أول، ابن رابح مسعود نائب ثاني، غربي عبد الرزاق نائب ثالث.

-رحال عبد القادر كاتب عام، كوجيتي محمد نائب.

-رحال الجيلالي أمين المال، شنيكة محمد نائب أول، مساس حناني نائب ثاني، أبو خدمة محمد نائب ثالث.

-عبد الحق بن وطاف مستشار فني، قايد حمد مندوب الحسابات.³⁰

كما وفرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إعانة مالية تدفع للتلاميذ على حسب طبقاتهم في التعليم، فتلامذة التعليم النهائي تعطى لهم ألف فرنك لكل تلميذ، وتلميذ الثانوي تسعمائة فرنك، وتلميذ الابتدائي خمسمائة، وأوكلت الجمعية للدكتور عبد الله منصور التلمساني مهمة السهر على صحة التلاميذ، وكانت هذه الجمعية تجتمع أسبوعيا للاطلاع على أوضاع الطلبة، أين قامت بتخصيص دار الطالب الجزائري لإقامة الطلبة بفاس الذين كانت غالبيتهم من عمالة وهران وخاصة تلمسان وندرومة وهران.³¹

وقد نشرت جريدة البصائر في العدد رقم 47 بتاريخ 30 أوت 1947 إعلانا لمدرسة ابن غازي بفاس دعوة لتلاميذ المغرب العربي، من أجل الالتحاق بها، وهي تستطيع أن تقبل التلاميذ بشرط أن يتجاوز سن التلميذ اثني عشرة سنة.³²

وإلى جانب ذلك ظهرت جمعيات أخرى ساعدت الطلبة الجزائريين على مواصلة تعليمهم خارج مدينة فاس، وعلى الخصوص في المعهد الإسلامي بمكناس، وفي الرباط ووجدة وأبركان.³³

3-الزيارات التاريخية لشيخو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى جامع

القرويين:

لم يكن لجامع القرويين بفاس حظ وافر من زيارات شيخو جمعية العلماء المسلمين مقارنة بجامع الزيتونة، وقد يكون ذلك راجع لبعده عن عاصمة النهضة بالشرق الجزائري قسنطينة مهد الحركة الإصلاحية، والتضييق الذي فرضته سلطات الاحتلال في الجزائر والحماية في المغرب على حركة العلماء بين أقطار

المغرب العربي، وقد حاول ابن باديس زيارة المغرب في أوت 1937 للمشاركة في تأيينية الشيخ أبي شعيب الدكالي وزيارة الشيخ محمد بن العربي غير أن السلطة الاستعمارية اعترضت سفره، لقطع العلاقة بين علماء المغرب العربي، وفصل بعضهم عن البعض، وقد تأسف ابن باديس كثيرا لهذا التصرفات القمعية، وعبر عن احتجاجه في مجلة الشهاب بمقال صريح عنوانه: "الاستعمار يحاول قطع الصلة بين الإخوان".³⁴

غير أن ذلك لم يمنعهم من توجيه إرشاداتهم وتوجيهاتهم عبر صحافة الجمعية، أو عن طريق إرسال الرسائل إلى الطلبة الجزائريين، خاصة في المناسبات الدينية أو الاحتفاليات التاريخية، وقد وجه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عدة توجيهات للطلبة بالقرويين محذرا أيهم من الدخول في الأحزاب والتنافس في الانتخابات وإهمال العلم، وقد وجه رسالة قائلا فيها: "العلم.. العلم.. أيها الشباب لا يلهينكم عنه سمسار أحزاب، ينفخ في ميزاب، ولا داعية انتخاب..".³⁵

وقد قام حمزة بوكوشة³⁶ بجولة إلى المغرب الأقصى دامت أربعين يوما، التقى خلالها العديد من علماء نهضتها وعلى رأسهم إمام السلفيين³⁷ بالمغرب محمد بن العربي العلوي،³⁸ وعدد من الطلبة الجزائريين المتواجدين هناك، ويقول عن هذه الزيارة: "وقد زرت جامعة القرويين، وخزانتها العامرة،³⁹ وقد زرت مدير الجامعة محمد الفاسي.. أين أبدى استعداداه للمساعدة الأدبية لتلامذة معهد ابن باديس إذا ما أرادوا الالتحاق بالقرويين..".⁴⁰

4-النشاط الوطني للطلبة الجزائريين بجامع القرويين:

وجد الطلبة الجزائريون في جامع القرويين السند القوي في الكفاح، فكان له الفضل الكبير على الحركة الوطنية الجزائرية، حيث أمدّها بالشباب المثقف المتحمس، فغصت جامعة القرويين بعشرات من طلاب العلم، أخذوا منها المعارف ليساهموا بها في كفاح الاستعمار ونشر العربية الإسلام.⁴¹

لقد ساهم الطلبة الجزائريين في العديد من المناسبات في إحياء ذكرى وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومثال ذلك الاحتفال بالذكرى السابعة لوفاته بدار غنيم بفاس، وقد حضرها عدد كبير من الطلبة الجزائريين بفاس، ومن بينهم الدكتور منصور، والأستاذ رابح الخطاب، والأستاذ الجباري، والأستاذ غنيم، وبعد افتتاح الحفلة بآيات من القرآن الكريم تعاقب على الخطاب كل، محمد بن قادة الندرومي، ومحمد بن ميلود معطى الله، والطاهر بن محمد المغنوي، وأبو هجرة الطيب السيفر، ومحمد المصايفي،⁴² ومحمود آغا بوعبيد، ومحمد بن ددوش، ومحمد بوزيان، والسميع بن الشيخ القسنطيني، والحبیب بن الشيخ محمد البوزيدي، ومحمد البجاوي،⁴³ ومن هيئة إدارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين البارزين ومن مدرسي معهد ابن باديس كان الأستاذ العباس بن الشيخ الحسين من المتخرجين من القرويين.⁴⁴

وقد نقلت جريدة البصائر وصفا شاملا لمظاهر الاحتفال بنفس المناسبة في الذكرى التاسعة بجامعة القرويين، وجاء فيها "احتفل الطلبة الجزائريين بجامعة القرويين بفاس احتفالا مهيبا بالذكرى التاسعة لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس..، فعلى الساعة السادسة من مساء يوم الثلاثاء 21 جمادى الثانية أخذ الطلبة الجزائريون، وعددهم يناهز المئتين..بيت الطالب الجزائري بالقرويين⁴⁵..وكانت فرقة الكشفة الجزائرية بفاس ضاربة صفوفها بباب الدار، ومشرفة على تنظيم الحاضرين، افتتحت

الجلسة بتلاوة آيات من الذكر الحكيم رتلها التلميذ النجيب البشير الغزوي، ثم ألقى رئيس الحفل السيد محمد بن قادة الندرومي قصيدة.. في ذكرى الفقيه، ثم قدم السيد محمد بن معطى الله فألقى كلمته، ثم ألقى السيد محمد اليعقوبي كلمة عنوانها 'الشخصيات الفذة في تاريخنا'..، وقام الأستاذ عبد الوهاب بن منصور فارتجل خطابا.. شرح خلاله الأطوار التي مرت بها الجزائر بعد الاحتلال، وعرض للشخصيات الفذة التي ظهرت على مسرح التاريخ الجزائري، ثم أشار إلى الأعمال الجيدة التي قام بها الشيخ ابن باديس"، وقد توالى الخطب والمحاضرات العلمية، وجاءت كالتالي: محمد بن مدين المستغامي "هل عرف التاريخ مصلحا كعبد الحميد"، الطاهر بن محمد المنصوري "دمعة على مجاهد"، أحمد السطيفي "عبد الحميد بين موجات الاستعمار".⁴⁶

وقد امتد نشاط هؤلاء الطلبة إلى مختلف مدن العمالة الوهرانية، خاصة في العطل المدرسية، فتنقلوا بين تلمسان ووهران، وإلى غاية مدينة معسكر، وتذكر الوثائق الفرنسية أنه في 17 أوت 1951 نظم عدد من طلبة القرويين في نمرور⁴⁷ عدة أنشطة ثقافية احتفالية، أين لقيت تجاوبا من الأهالي، أين نظمت عدة مسرحيات استرجع الحاضرون من خلالها أجماد تاريخهم الإسلامي، وكانت الفرصة فرصة لجمع التبرعات والحث على إعادة بعث الثقافة لعربية الإسلامية من خلال تشييد المدارس والحرص على التكفل بالطلبة الذين يدرسون بالخارج في القرويين أو الزيتونة.⁴⁸

5- قراءة في اسهامات بعض الطلبة الجزائريين بالقرويين في الحركة الوطنية

الجزائرية والثورة التحريرية:

بالرغم من قلة عدد الطلبة الجزائريين الذين التحقوا بجامع القرويين مقارنة بإخوانهم الذين التحقوا بالزيتونة، وذلك لعوامل عديدة سبق ذكرها، فإن تأثيرهم كان مؤثرا في

الحركة الوطنية الجزائرية، من خلال تبنّيهم للنضال السياسي بالانخراط في الأحزاب الوطنية، أو بالإسهام في حركة التعليم في مدارس جمعية العلماء المسلمين وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، والتحاقهم بجيش وجبهة التحرير الوطني والمشاركة في التحرير، فكان لهم دور فعال في إحياء المناسبات، والمشاركة في اللقاءات والمؤتمرات المساندة للقضية الجزائرية، والإسهام في الأسابيع التي كانت تقام لجمع التبرعات لفائدة الثورة، وإلقاء المحاضرات، وإقامة الندوات بإشراك أعيان البلد لتوسيع التعريف بالقضية الوطنية، وإنشاء الجرائد الحائطية، والنشرات والمجلات الثقافية والإعلامية، والمشاركة في الكتابة فيها شعرا ونثرا،⁴⁹ وقد عبر شاعر الثورة مفدي زكريا في إلياذته عن أثر جامع القرويين واصفا ذلك:

تماوَج في فاسَ رجع الصّدَى *** من القرويين يَغزو المدَى⁵⁰

تذكر المصادر التاريخية أن عدد الطلبة الجزائريين في جامع القرويين عشية الثورة التحريرية قد بلغ حوالي 120 طالب،⁵¹ وسأحاول ذكر ممن تميزوا في النضال السياسي أو الثوري، لا يسع المقام لذكرهم كلهم.

عبد الله المنصوري التلمساني 1895-1972

ولد بمدينة تلمسان وتعلم بالمدرسة الرسمية التي تلقى فيها الثقافتين العربية والفرنسية، تحصل على البكالوريا بمدينة الجزائر ثم غادر إلى مدينة ليون ليتخرج من كليتها الطبية، انتقل إلى المغرب وبالضبط إلى مدينة فاس حوالي سنة 1928، وأثناء إقامته هنالك إلى غاية 1948 اغتنم الفرصة واهتم بالحركة الإصلاحية والفكر الإسلامي، من مؤلفاته "الفكر الإسلامي في انقراض الإنسان المعاصر".⁵²

علام منور: 1897-1984

ولد بعرش العمامرة بلدية زمورة -غليزان-، تعلم القرآن الكريم بمسقط رأسه، ثم هاجر إلى القرويين، شارك في الحرب العالمية الأولى، ودرس بمدرسة مازونة وقديل، وعين أمران، وجامع الصفاء بمدينة واد أرهيو، وكان من بين رجال الإصلاح الذين استقبلوا الشيخ ابن باديس سنة 1931، وأصبح عضوا نشطا في شعبة المدينة، بعد الاستقلال تنقل بين مساجد الولاية للإمامة.⁵³

محمد بن محمد القباطي: 1907-1986.

ولد في حي أولاد زيري بلدية الغزوات-تلمسان-، هاجر إلى جامع القرويين بفاس، أين التحق بملقات دروسه وتحصل على الشهادة النهائية سنة 1938، وبعد عودته إلى الجزائر اشتغل في التعليم والإرشاد بمغنية، ثم انتقل إلى مدرسة التربية والتعليم بالغزوات لمدة سنتين أين تعرض لمضايقات الإدارة الاستعمارية، التي رأت في نشاطه الوطني الإصلاحية خطرا على سياستها،⁵⁴ وبعدها نقل إلى مدرسة التربية والتعليم بسيدي بلعباس سنة 1951 وبقي فيها إلى غاية إغلاقها سنة 1956، أين تم اعتقاله وإدخاله معتقل سان لو، ليطلق سراحه ويلتحق قرر الالتحاق بصفوف جيش التحرير بالمغرب، وخلال عملية اجتياز خط شال أصيب بجروح نتيجة انفجار لغم، وقد كلفته جبهة التحرير الالتحاق بالعرائش للقيام بالتعليم والتوجيه فيها.⁵⁵

بعد الاستقلال اشتغل في التعليم الثانوي بمدينة سيدي بلعباس، وعين سنة 1966 عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى، له مجموع من الآثار العلمية أهمها "اقتصاديات الوطن العربي" بالاشتراك مع سفراء الدول العربية، تطوان، المملكة المغربية، 1961.⁵⁶

عبد الحميد بن محمد بن بشير القباطي: 1911-1966

من رجال الإصلاح الديني، ولد بأولاد زيري بلدية الغزوات، تلقى تعليمه الأولي على يد والده محمد بن البشير القباطي مثله مثل إخوته محمد، والأخضر، أين أخذوا عنه المبادئ العلمية في العربية والعبادات، وعلى يده حفظوا القرآن الكريم، ومنه أخذوا فكرة الإصلاح وعرفوا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هاجر إلى فاس والتحق بالقرويين، ثم عاد والتحق بالجامع الأخضر ليدرس على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس،⁵⁷ ليتفرغ إلى ميدان التعليم والتوجيه والإرشاد، تنقل بين مدارس جمعية العلماء المسلمين، مدرسة "التوحيد" بالمرسی الكبير، ومدرسة "الإصلاح بوادي رهيو بغليزان، ومع اندلاع الثورة التحريرية التحق بها سنة 1956، وشارك في معارك جيش التحرير بجبال الونشريس، ليرسله جيش التحرير إلى المغرب إلى غاية الاستقلال.⁵⁸

الأخضر القباطي: 1913-1971

ولد بحجي أولاد زيري بالغزوات، ما يميزه عن بقية إخوته هو تعلمه الفرنسية في المدارس العمومية بالغزوات، وفي سنة 1933 هاجر إلى القرويين بفاس رفقة أخيه عبد الحميد، شارك في مظاهرات فاس سنة 1937 وبعد ملاحقات سلطات الحماية للمتسببين فيها، قرر العودة إلى الجزائر، والتحق رفقة أخيه عبد الحميد بالجامع الأخضر بقسنطينة.⁵⁹

اشتغل بالتدريس في مدرسة "الإصلاح" بعين تموشنت في سنة 1945، وبعدها في سنة 1950 نقلته لجنة التعليم إلى مدرسة "دار التعليم" بأولاد ميمون إلى غاية غلقها سنة 1956، أين ألقى عليه القبض وأدخل معتقل "أفلو"، أين قضى فيه أكثر من سنتين، لينقل بعدها إلى معتقل بطيوة إلى غاية الإفراج عنه قبيل الاستقلال.⁶⁰

العباس بن الشيخ الحسين: 1912-1989

ولد في قرية "أولاد خليفة" من ميلة، تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن بالزاوية التي كانت تشرف عليها عائلته، هاجر إلى تونس والتحق بجامع الزيتونة، غير أنه لم يطل البقاء وتوجه إلى فاس والتحق بجامع القرويين، أين مكث هناك مدة ثماني سنوات، خلالها انخرط في الحركة الوطنية المغربية، وناضل في صفوفها ما جعل سلطات الحماية تعجل بإبعاده إلى الجزائر في سنة 1938، أرسله الشيخ ابن باديس إلى بني صاف أين أسس ناديا إصلاحيا، وفي سنة 1947 أصبح أحد الأعضاء الإداريين في جمعية العلماء المسلمين، ثم مدرسا بمعهد ابن باديس، ومفتشا لمدارس جمعية العلماء،⁶¹ شارك سنة 1951 في اجتماع اللجنة العامة لمنظمة الأمم المتحدة في باريس رفقة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، كان متعاطفا مع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري،⁶² التحق بصفوف جبهة التحرير بالخارج، أين مثلها ثلاثة سنوات في مصر، وبعد الاستقلال في سنة 1964 عين مستشارا لدى رئاسة الجمهورية الجزائرية، وفي نفس الوقت رئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى.⁶³

محمد بن ميلود معطى الله: الملقب ب"التلميذ الصغير" 1920-1996

من مواليد قبيلة بني وارسوس-دوار المعاطلة- التابع لبلدية ندرومة المختلطة، هاجر إلى فاس بالمغرب الأقصى، وانخرط في سلك الطلبة النظاميين بجامع القرويين، وبعد 14 عاما في الطلب والتحصيل نال الشهادة العالمية بامتياز عام 1951، وهي أعلى شهادة تمنح في جامع القرويين إذ ذاك، وبعد عودته إلى الجزائر انظم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أين عمل معلما وواعظا وخطيبا، درّس بمعهد ابن باديس موسم 1951-1952م، ثم عين إماما بمسجد دار الحديث عام 1953، لينتقل بعدها إلى

مدرسة عبد المؤمن بن علي بندرومة، ليتولى إدارتها بعدما التحق مديرها عبد الوهاب بن منصور بالمغرب، ومع اندلاع الثورة التحريرية ألقى عليه القبض وتنقل بين سجون "أفلو" و"بوسوي"، إلى أن أطلق سراحه سنة 1957، اين كلف من قبل الثورة بالإصلاح بين الناس، ويرجع مرة أخرى إلى المغرب إلى غاية الاستقلال، ليصبح بعده عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى إلى غاية وفاته سنة 1996.⁶⁴

- عبد الوهاب بن منصور: 1920-2008

من مواليد مدينة فاس-من أصول جزائرية-، شارك في الحركة الوطنية المغربية خلال مزاولته لدراسته بجامع القرويين بفاس، لينتقل بعدها إلى تلمسان للتدريس بمدرسة دار الحديث،⁶⁵ ثم نقل إلى مدرسة ندرومة،⁶⁶ في آخر الأربعينيات أين كان يلقي محاضرات في التاريخ الإسلامي وتاريخ العرب قبل الإسلام وكذلك تاريخ إفريقيا الشمالية بالنادي الإسلامي، وكان متأثرا كثيرا بعلال الفاسي رئيس حزب الاستقلال المغربي، ومن المطالبين بوحدة المغرب العربي،⁶⁷ وقد كانت خطبه وطنية شديدة اللهجة ضد الإدارة الاستعمارية وبعض الطرقية المنحرفة، أصدر مجلة العبقريّة بتلمسان عام 1947، ولم تدم إلا أشهر قليلة،⁶⁸ ويعد عبد الوهاب بن منصور من الأبرز الذين كتبوا في المقالة التاريخية رفقة محمد علي دبوز، والتي كانت جريدة البصائر ميدانا لها.⁶⁹

وخلال الثورة التحريرية هاجر إلى المغرب بعد ملاحقته من السلطات الاستعمارية ليعود بعد الاستقلال إلى الوطن، غير أنه لم يجد توافقا مع التغيرات السياسية التي عرفتها الجزائر آنذاك، فقرر الرجوع إلى المغرب والاستقرار بها نهائيا، وقد زار تلمسان رفقة ملك المغرب الحسن الثاني في ماي 1971.⁷⁰

محمد بوزيان: 1927-2005

ولد بقرية تيان بوضواحي الغزوات، حفظ القرآن، ثم انتقل مدينة أبركان بالمغرب أين درس مبادئ الفقه والنحو، وفي آخر الأربعينيات سافر إلى فاس والتحق بالقرويين، وقدم بها دروسا هناك في الفقه والنحو، اختار النضال في صفوف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، لينتقل بعدها مباشرة إلى القاهرة والتحق بكلية دار العلوم.⁷¹

محمود آغا بوعياض: 1928-2006

ولد بتلمسان، دخل الكتاب في سن الرابعة من عمره، ليلتحق فيما بعد بالمدرسة الابتدائية ثم الثانوية، وتابع دروسه بمدرسة دار الحديث بتلمسان، تمكن من اتقان اللغة العربية والفرنسية معا، وأضاف لهما اللغة الإسبانية، حصل على شهادات عديدة منها: دبلوم جامعة القرويين بفاس عام 1949، ودبلوم الدراسات العليا المغربية بالرباط 1948-1949، ودبلوم معهد الدراسات الإسلامية العليا من جامعة الجزائر في 1954، وتحصل على شهادة الدكتوراه الدرجة الثالثة في التاريخ بتفوق سنة 1975 بالجزائر العاصمة، وقد اشتغل مديرا للمكتبة الوطنية الجزائرية ما بين 1962-1991، وبعدها عين مستشارا لدى رئيس الجمهورية 1999-2006.⁷²

شايب الذراع علي: 1931-1958:

من مواليد غليزان، والده كان متخرجا من مدرسة مازونة، انخرط بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان مشاركا في جريدة البصائر، وفي سنة 1950 هاجر إلى فاس حيث درس بجامع القرويين، لينظم بعدها إلى الثورة التحريرية أين عرف باسم "السي نورالدين"، استشهد رحمه الله عليه سنة 1958 بمدرسة -نواحي تيارت-.⁷³

شايب الذراع محمد: 1929-—

ولد ببني يسعد بلدية منداس-غليزان-، حفظ القرآن الكريم وأخذ الفقه على يد شيوخ تيارت وغليزان، وفي سنة 1945 التحق بمدرسة جمعية العلماء المسلمين بتيارت، وفي سنة 1946 درس الفقه والنحو والتاريخ والمنطق على يد الشيخ الميسوم بلمشري، انتقل سنة 1947 إلى مدينة فاس حيث درس بجامعة القرويين، وبعد عودته إلى الجزائر، انضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتحق موسم 1950-1951 بمعهد الشيخ ابن باديس، ليتوجه بعدها في سنة 1952 إلى جامع الزيتونة، وعاد منها سنة 1953 ليشغل مدرسا بمدرسة "الحياة" بوهران، انخرط في العمل الجهادي لصالح الثورة التحريرية إلى غاية الاستقلال.⁷⁴

استنتاج:

من خلال هذه الدراسة يتبين لنا أن طلبة عمالة قسنطينة كانوا أكثر حظا منهم من عمالة وهران، وذلك بقربهم من عواصم النهضة العربية في الشرق، مثل القاهرة ودمشق وحتى الزيتونة، فإن سكان العمالة الوهرانية لم يساعدهم قرب القرويين بفاس منهم، والذي لم تقطع فيه الثقافة العربية الحديثة أشواطاً في الإصلاح والتحديث، كما أننا نسجل تأخر في اهتمام جمعية العلماء المسلمين بطلبة عمالة وهران في إرسال البعثات الطلابية إلى القرويين، وذلك يفسر بعدة أسباب، لعل أهمها هو الطابع التقليدي والجمود الفكري والثقافي الذي تربع على عرشه رجال من الزوايا الذين تصدوا لأي محاولة إصلاح.

من خلال إلقاء نظرة على أرقام الطلبة في الخارج عموماً، فإنه يلاحظ أن أغلب الطلبة الجزائريين كانوا متمركزين في تونس حيث كان فيهم طلبة الزيتونة وطلبة المعاهد الأخرى، وربما يأتي المغرب بعد تونس من حيث العدد، ثم مصر إذا أخذنا المشرق فقط بعين الاعتبار، وقد قيل إن حوالي 400 طالب جزائري كانوا في الزيتونة عشية الثورة بينما كان في القرويين حوالي 186 وحوالي 50 في مكناس بين 1960-1961.⁷⁵

¹ - يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن 16م، واستمرت طيلة أربعة قرون من الإشعاع العلمي والديني، ويمكن مقارنة أيام إشعاعها بالمعاهد العليا في فاس وتونس، وقد أقبل عليها طلبة علم كثر، كما نسجل عدد من طلبة المغرب الأقصى قد مر عليها. للتفصيل ينظر ميلود ميسوم: "مدرسة مازونة: مسيرة علمية تزيد عن أربعة قرون"، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة الجليلي اليابس، ع6، جوان 2013، ص29-40.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص54.

³ - حول سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر ينظر بالتفصيل إلى عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

⁴ - أحمد توفيق المدني: جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، المطبعة العربية، الجزائر، 1948، ص90-91.

⁵ - وفي هذا المجال يجب الإشارة إلى أن معهد عبد الحميد بن باديس الذي أسسته جمعية العلماء بقسنطينة سنة 1952، قد أصبح فرعاً من فروع جامع الزيتونة يحتذي حذوه في البرنامج والشيخ، فكانت امتحانات المعهد بعد ذلك الالتحاق بجامع الزيتونة، إذا أرادوا، ونفس الإجراءات خضع لها أيضاً المعهد الكتاني وطلبته في قسنطينة، وقد بلغ الذين كانوا يزاولون تعليمهم باللغة العربية في الزوايا والمعاهد نحو ثلاثة آلاف طالب، وهو عدد ضئيل بالنسبة لشعب تعداده قرابة تسعة ملايين، ويعتبر

اللغة العربية إحدى عناصر هويته الوطنية. للتفصيل أكثر ينظر المدني أحمد توفيق: كتاب الجزائر، ط2، دار الكتاب، البليدة، 1963.

⁶ - تذكر المصادر التاريخية بأن الجزائر عرفت إنشاء عدة معاهد عليا على شكل جامعات، من حيث البرامج والمواد المدرسة، غير أنها لم تعرف الاستمرارية، فعلى سبيل المثال كان هناك المدرسة التاشفينية بتلمسان، التي بناها السلطان الزياني أبو تاشفين، لكن مع دخول العثمانيين تراجع إشعاعها العلمي والديني، كما كان هناك جامع الباي محمد الكبير في معسكر، ويبدو أنه كان يخطط له ليكون قاعدة كبيرة لنشر التعليم في المنطقة ينافس به القرويين في فاس، ولكن تطور الزمن لم يحقق له ذلك، بعد انتقال عاصمة بايليك الغرب إلى وهران بعد تحريرها. للمزيد حول الموضوع ينظر أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص260.

⁷ - محمد القورصو: "الطريقون يتصدون لانتشار الإصلاح في عمالة وهران 1931-1935-مدينة تلمسان نموذجاً"، الملتقى الوطني الثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية، المنعقد بدار الثقافة-تلمسان-، 03-04 جوان 2006، منشورات وزارة المجاهدين، 2007، ص208.

⁸ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج10، ص57.

⁹ - عرفت عمالة وهران عدة دفعات من الهجرات باتجاه المغرب بداية من فترة الاحتلال، فالهجرة الأولى خرجت من مدينتي وهران ومستغانم واستقرت بمدينة وجدة المغربية، أما أهل تلمسان فاستقروا بمدينة فاس، والدفعة الثانية كانت بعد احتلال تلمسان ومعسكر سنة 1836، وتميزت بهجرة قبيلتي "الحشم" و"بني عامر"، وتواصلت هذه الهجرات إلى أن عرفت أوجها مع صدور قانون التجنيد الإجباري. للتفصيل أكثر ينظر محمد القورصو: تأسيس ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة وهران، رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ، وهران، 1977، ص16.

¹⁰ - من الشخصيات الوطنية التي تخرجت من القرويين وكان لها أثر كبير في المقاومة، هناك الشيخ البوحميدي الوهاصي الذي خاض المقاومة الوطنية العسكرية تحت لواء الأمير عبد القادر، وهناك الشيخ العلامة عبد القادر المجاوي من كبار علماء الإصلاح في الجزائر، وأحد أبرز أقطاب التعليم

- العربي الإسلامي، ومن الذين مثلوا الاتجاه المحافظ في مطالب الحركة الوطنية مع مطلع القرن العشرين. للتفصيل أكثر ينظر بلعربي خالد: "دور أبو عبد الله البوحيمي الوهاصي في إدارة دولة الأمير عبد القادر"، المجلة المغربية...، المرجع السابق، ص 13-16. وكذلك جريدة البصائر، ع723، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الشيخ عبد القادر المجاوي، 05 أكتوبر 2014.
- ¹¹ عبدالرحيم الوردغي: فاس في عهد الاستعمار الفرنسي 1912-1956-ملاح من مدينة فاس أصولها..تغيراتها..حالاتها الاجتماعية والسياسية-، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص11.
- ¹² - راجع حوله بالتفصيل نجيب زيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج2، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995، ص134-137.
- ¹³ - للتفصيل أكثر عن دور هذه الجامعة ينظر إلى محمد العبادي: "جامع القرويين وتاريخ المغرب الفكري-دور جامع القرويين في تكوين الشخصية الثقافية المغربية التقليدية-، محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني-أعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني1-، سلسلة ندوات ومناظرات8، جامعة الحسن الثاني - كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الدار البيضاء، 1996، ص16.
- ¹⁴ - محمد معروف الدفالي: "القرويين والصراعات السياسية في المغرب الحماية-محاولة رصد أولي-"، مجلة أمل-المغرب، ع2، السنة الأولى، 1992، ص85.
- ¹⁵ - محمد العبادي: المرجع السابق، ص23.
- ¹⁶ - للمزيد أكثر حول الأدوار التاريخية التي لعبها جامع القرويين ينظر إلى جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي ندوة تكريمية لعميدها عبد الوهاب التازي سعود، إشراف: فاطمة الجامعي الحبابي، مطبعة فضالة، المحمدية-المغرب-، 1996.
- ¹⁷ - كانت مدينة فاس قبلة للعديد من العلماء وطلبة العلم الجزائريين على مر العصور، وتميزت فترة القرن 10هـ/ 16م دون غيرها، أين عاد حكم المغرب الأوسط للعثمانيين، ودخول تلمسان عاصمة الزيانين في قلب الصراعات السياسية، فكان جامع القرويين بمثابة الجامعة لهم، فتولوا فيه التدريس والخطابة، وتولى بعضهم أعلى المناصب وهو الإفتاء في عهد حكم المرينيين والسعديين، وأذكر منهم

أحمد بن يحيى الونشريسي أبو العباس التلمساني 1430-1509م، الموسوعة الحية في الفقه المالكي صاحب كتاب الفتاوى الذي سماه "المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والاندلس والمغرب"، والفقيه العلامة الوهراني أحمد بن أبي جمعة شقرون أبو العباس (المتوفي سنة 1514) المدرس بالقرويين، والفقيه العقباني أحمد بن محمد أبو العباس (المتوفي 1572م) فقيه المالكية، والمدرس بجامع القرويين، والشيخ العلامة محمد بن أحمد التلمساني المعروف بابن الوقاد التلمساني (المتوفي 1592م)، كان أديبا وفقهيا وعارفا بالتفسير والحديث، تولى الفتوى والخطابة بفاس، والفقيه العالم أحمد بن محمد بن يحيى أبو العباس المقري (المتوفي 1631) الذي أخذ العلم عن شيوخ فاس، له العديد من المؤلفات في التاريخ والأدب وعلوم الدين بلغت 28 مؤلفا، أهمها كتاب "نفح الطيب في غصان الأندلس الرطيب"، هذه ما هي إلا عينة قليلة من علماء الجزائر الذين ارتبط انتاجهم العلمي بجامع القرويين، ولا يسعنا المقام هنا لذكر كلهم. للتفصيل أكثر حول الموضوع ينظر ابن مريم التلمساني أبي عبد الله محمد بن محمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908. وكذلك أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، ج2، تح: عبد الله الكامل الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء-المغرب-، 2004.

¹⁸ - محمد يعيش: الجالية الجزائرية في المغرب الأقصى ودورها في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1930-1962، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص75.

¹⁹ - محمد بن العربي العلوي: عالم مصلح ومجدد، ولد بمراكش واصل الدعوة السلفية التي بدأها من قبله السيد عبد الله السنوسي والشيخ أبو شعيب الدكالي بالغرب، ولي القضاء بمدينة فاس ثم عين رئيسا لمجلس الاستئناف الشرعي، واعتلى بعدها منصب وزارة العدل والدين، وكان له موقف عظيم في الدفاع عن فكرة استقلال المغرب الأقصى. راجع عنه بالتفصيل علال الفاسي: "علم من أعلام النهضة الإسلامية"، جريدة البصائر، ع30، 5 أفريل 1948، ص6-7.

²⁰ - محمد الصالح رمضان: "أقطاب السلفية في الجزائر ورؤيتهم الدينية والوطنية"، مجلة التراث-مجلة تاريخية، أثرية-، جمعية التاريخ والتراث الأثري، ولاية باتنة، ع4، ديسمبر 1989، ص78-79.

²¹ - للتفصيل أكثر ينظر أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس، ج1، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1984، ص304.

²² - نفسه، ج2، ص158-160.

²³ - قدور الورطاسي: المطرب في تاريخ شرق المغرب- من عهد الكاهنة داهيا الجراوية الزناتية إلى سنة 1956، ط1، مطبعة الرسالة، الرباط، 1985، ص251.

²⁴ - نفسه، ص252.

²⁵ - نفسه، ص267.

²⁶ - كان بمثابة كلية مختصة في علوم الدين خلال الخمسينات من القرن العشرين، ونسجل عدد من الطلبة الجزائريين ينظر

Archive de la Wilaya d'Oran: boîte 'I22', « Situation des Tolbas Algériens au Maroc 1950-1951 », 'Rapport sur le Tolba Algériens au Maroc', n°1445, 15 Juin 1951.

²⁷ - قد يبدو هذا الرقم ضئيل جدا، لكن مقارنة بعددهم سنة 1940 الذي بلغ حوالي 19 طالبا، فإن جهد جمعية العلماء المسلمين يبدو واضحا. Ibid -

²⁸ - Ibid, Note sur les 'Tolba' Algériens du Maroc (Qaraouyine - Centre d'études Islamiques de Maknès) 1950-1951, P2.

²⁹ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج10، ص281.

³⁰ - للتفصيل أكثر عد إلى حمزة بوكوشة: "الجمعيات الجزائرية بالمغرب الأقصى"، جريدة البصائر، ع32، 19 أبريل 1948، ص3.

³¹ - نفسه، ص2.

³² - راجع ذلك في جريدة البصائر، ع47، 30 أوت 1948، ص6.

³³ - من هذه الجمعيات هناك وحدة الجمعيات الجزائرية بالرباط تأسست سنة 1937، وقد خرجت عنها جمعية وجدة سنة 1946 التي كان يرأسها الحاج بوسيف. راجع عن هذه الجمعيات المصدر نفسه.

³⁴ - مجلة الشهاب، مج 13، ج 7، سبتمبر 1937، ص341.

³⁵ - محمد البشير الإبراهيمي: "ثلاث كلمات صريحة"، جريدة البصائر، ع54، 25 أكتوبر 1948، ص2.

³⁶ - أحد علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من مواليد سنة 1907 في الوادي، بعد تعلمه بمسقط رأسه هاجر إلى تونس في سنة 1924 والتحق بجامعة الزيتونة أين تخرج منها بشهادة التطويق، شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر، قدم دروسا في نادي التقدم بالبلدية، وأصدر سنة 1937 جريدة "المغرب" في وهران، عينه الشيخ ابن باديس رفقة الفضيل الورتلاني لنشر الحركة الإصلاحية في فرنسا، اعتقل خلال الثورة التحريرية سنة 1956، وبعد الاستقلال التحق بوزارة الأوقاف، ثم أدمج في سلك التعليم، اهتم بالشعر والكتابة، توفي سنة 1994. للتفصيل أكثر ينظر محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، دار هومو، الجزائر، 2000، ص62-65.

³⁷ - وهي تتشابه مع مثيلتها في الجزائر، فهي لم تستهدف الاستعمار مباشرة، وكان للشيخ أبي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي الفضل الأكبر لدخولها إلى المغرب الأقصى، وترجع جذور دخول السلفية الحديثة إلى الاتصال بعلماء شنقيط الذين كانوا يتواردون على وجدة، وكما كان لمجلة المنار والشهاب صدق كبير في المغرب، وقد كان لحركة الشيخ ابن باديس آثار كبيرة على مدينة وجدة أول نقطة مهمة وراء غرب الجزائر. للتفصيل أكثر أنظر عبد المالك مرتاض: الإسلام والقضايا المعاصرة، دار هومو للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص46. وكذلك الورتاسي: المرجع السابق، ص 250-251.

³⁸ - حول علاقته بالعلماء المسلمين الجزائريين ينظر مولود عويمر: "الشيخ محمد بن العربي العلوي وصلته بالجزائر"،

<http://www.odabasham.net/تراجم/29053-الشيخ-محمد-بن-العربي-العلوي->

31-03-2013, وصلته-بالجزائر-

³⁹ - كانت المكتبة تحتل جزءا كبيرا من بناية الجامعة، وكانت تحتوي على حوالي ألفي 2000 كتاب، منها ألف وستمائة 1600 مخطوط. عن أهمية هذه الخزانة أنظر -بوعزة بوضرساية: المسألة البربرية في السياسة الاستعمارية الفرنسية 1830-1930، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2004-2005، ص326.

⁴⁰ - حمزة بوكوشة: "أربعون يوما في المغرب الأقصى"، جريدة البصائر، ع31، 12 أفريل 1948، ص3.

⁴¹ - عن دور جامع القرويين ينظر إل كلمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ألقاها الشيخ محمد خير الدين نائب رئيس الجمعية بمناسبة احتفال جامعة القرويين بذكرها المائة بعد الألف. ينظر الكلمة كاملة في محمد خير الدين: مذكرات، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، ص312-317.

⁴² - نشر مقالا له بعنوان "ما ذنب الأطفال" في جريدة البصائر، ع314، 15 أفريل 1955، ص6.

⁴³ - مجلة العبقرية، ع2، ماي 1947، ص61-62.

⁴⁴ - جريدة البصائر، ع79، 9 ماي 1949، ص8، ص3.

⁴⁵ - تعرضت دار الطلبة الجزائريين بفاس إلى فاجعة عظيمة إثر سقوط الدار التي اتخذها الطلبة مركزا لهم لعقد اجتماعاتهم، وقد راح ضحية ذلك سبعة من العلماء والطلبة والعاملين وجرح حوالي أربعين طالبا، وكان من بين الضحايا الأستاذ عبد القادر الجباري المشرف على الجالية الجزائرية بفاس. حول الموضوع أنظر عبد الوهاب بن منصور: "وفاجعة ثانية"، جريدة البصائر، ع101، 2 جانفي 1950، ص2.

⁴⁶ - نفسه، ع79، 9 ماي 1949، ص8.

⁴⁷ - حاليا دائرة الغزوات التابعة إداريا لولاية تلمسان، في أواخر سنة 1844م خضعت للاحتلال الفرنسي فاتخذت مركزا لتموين جيوشه وأخذت اسم «نمور» نسبة للجنرال الذي كان يحكم المنطقة ثم سميت باسم الغزوات بعد الاستقلال.

⁴⁸ - A.W.O: boîte 'I22', Op.cit, P9.

⁴⁹ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج10، ص279.

⁵⁰ - مفدي زكرياء: إليادة الجزائر، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص92.

⁵¹ - يبقى هذا العدد قليل إذا ما قارناه مع عددهم في الزيتونة الذي قارب الألف، وفي الأزهر وصل إلى 150 طالب، وقد ارتفع عدد الطلبة في القرويين ليصل إلى 300 طالب مع نهاية سنة 1958. للتفصيل أكثر ينظر جريدة المجاهد: 31 نوفمبر 1958.

⁵² - أنظر في ذلك: الشيخ أبو عمران: "الفكر الاسلامي والإنسان المعاصر في رأي د. عبد الله المنصوري التلمساني 1895-1972"، مجلة الأصالة، ع26، 1975، ص195-196.

⁵³ - محمد مفلح: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة غليزان 1931-1957، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص52.

⁵⁴ - A.W.O: Rapport Mensuel sur les Problèmes Religieux en Algérie, Juin 1948, P05.

⁵⁵ - محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ج4، ص247.

⁵⁶ - نفسه، ص248-251.

⁵⁷ - محمد مفلح: المرجع السابق، ص133.

⁵⁸ - محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ج4، ص247.

⁵⁹ - نفسه، ص255.

⁶⁰ - نفسه، ص256.

⁶¹ - نفسه، ج1، ص71-72.

⁶² - A.W.O: B.M.Q.I, Janvier 1952, P3.

⁶³ - محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ص 74-75.

⁶⁴ - ينظر بالتفصيل محمد بري: "رزء عظيم..! الشيخ العلامة محمد معطلا.. في الخالدين"، مجلة العصر، ع5، 15 مارس 1997، ص28.

⁶⁵ - عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس في شعر ابن خميس، ط1، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1365، ص4-5.

⁶⁶ - تعرض للعديد من المضايقات من طرف الإدارة الاستعمارية خاصة في ندرومة بسبب خطبه المعادية للطرقيين، وعلى إثر إحتفال أقيم بمدرسة ندرومة استدعي عبدالوهاب من طرف رئيس البلدية للتحقيق في الخطب التي ألقيت في الإحتفال رفعت ضده عدة دعاوى قضائية، واتهم في العديد منها بإلقاء دروس بدون رخصة، أو مهاجمة الإدارة الفرنسي. أنظر مثال ذلك في

A.W.O : L'Activité Musulmane dans le Département d'Oran,
N°380, Mai 1951, P11.

⁶⁷ - لقد سعى الطلاب المغاربة من الجزائر والمغرب وتونس خلال الخمسينيات الماضية لإيجاد إطار وحدوي لعملهم السياسي والاجتماعي، وذلك لتأسيس منظمة طلابية مغربية واحدة، تجمع شمل طلاب أقطار المغرب الثلاثة، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل سنة 1953 بسبب انسحاب الطلبة التونسيين عن المجموعة وتأسيسهم جمعية خاصة بهم، أطلقوا عليها إسم "الإتحاد العام للطلاب التونسيين". ينظر عمار هلال: نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة أول نوفمبر 1954، ط5، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص23.

⁶⁸ - أنظر في ذلك محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ج2، ص181. وكذلك

A.W.O : Bulletin Mensuel des Questions Islamiques, N°303,
Décembre 1949, P106.

⁶⁹ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج10، ص441.

⁷⁰ - عبد الوهاب بن منصور: مع جلاله الحسن الثاني في فاس وتازة ووجدة وتلمسان 21-27 مايو 1970، المطبعة الملكية الرباط، 1970، ص109.

- ⁷¹ - راجع عنه بالتفصيل المجلس الإسلامي الأعلى: كراسات المجلس - تكريم المرحوم بوزيان التلمساني-، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، ع7، نوفمبر 2007، صص 9-15.
- ⁷² - راجع حوله بالتفصيل المجلس الإسلامي الأعلى: كراسات المجلس - خاص بذكرى وفاة المرحوم الدكتور محمود آغا بوعبياد-، م.م.إ.أ، ع6، جوان 2007، صص 23-43.
- ⁷³ - محمد مفلح: المرجع السابق، ص 64.
- ⁷⁴ - محمد مفلح: المرجع السابق، ص 123-124.
- ⁷⁵ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج10، ص 276.

الطرق الصوفية في الجزائر

د/عبد الكريم بليل / قسم علم الاجتماع / جامعة الشاذلي بن جديد / الطارف.

ملخص:

تمثل الطرق الصوفية إحدى سبل نشر الدعوة و التوعية في العالم الإسلامي، و قد حظيت بدعم شعبي بالجزائر و ساهمت في نشر العلم و المعرفة، و حافظت على قيمة إسلامية و أعراف عربية و أمازيغية بالمجتمع؛ و هنا نعرف بأهم الطرق باختصار، مع الترجمة لمشايجها.

Summary:

Sufism is one of the methods of propagating advocacy and awareness in the Islamic world, with the support of the populist in Algeria, and contributed to the dissemination of knowledge and knowledge, and maintained the values of Islamic and Arab and Amazigh traditions of society; Here we present the most important Sufi methods in short, with the sheikhs.

كلمات مفتاحية: التصوف، الصوفية، الطريقة، الزاوية، التعليم.

مقدمة:

يمثل التصوف نزعة إنسانية، تعاقب ظهورها في حضارات مختلفة، بصور متفاوتة في التعبير عن شوق الروح للتطهر و الزهد فيما يتسابق عليه الناس من خضرة ونضرة الدنيا، و رغبة في التعالي ن شهوات المادة، و نبذ حطام اللذات؛ بغية الإرتقاء في سلم الصفاء الروحي، و التسامي في مراتب الكمال الخلقى.

و لم يكن المسلمون بدعا في نزوع طائفة منهم فرادى و زرافات لنبد زخرف الدنيا، و السعي نحو زخرف الروح، بيد أن لكل خصائص تميزه عن غيره، من اختلاف وسائل، و

مفارقة في الغايات، فيصير لكل حضارة هويتها في ابراز تلك النزعة الإنسانية، بأن تصبغها بلغة و مفردات و عقائد تناسب نسقتها العام الديني و الحضاري. و التصوف كحركة دينية انتشرت عهد الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري؛ كنزعات فردية تدعو إلى الزهد، و إن كان لها ارهاصات سابقة. و عصر بني العباس مبلغ الفتوة للحضارة الإسلامية، و فيه بلغت العلوم شأوا عظيما، و فتحت أبواب الدنيا على المسلمين، و من سنن الحضارات إن بلغت الترف المادي والعلمي؛ أن تولد الفلسفة في العلوم.

و كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري، ظهر تيار زاهد في الدنيا بما فيها، و أصحابه قد يكون بعضهم ممن غرف من الدنيا حد التخم؛ فعافها بعد أن كان لها سيد، كالمملوك و الأمراء و كبار التجار و الأثرياء، و آخرون سحقتهم السنون حتى انقطع رجاؤهم من الدنيا؛ فأملوا نصيبا لهم في الدار الآخرة، و ذي طائفة عاملة ناصبة، لا تألوا جهدا في كد التعب؛ و طول التهجد، و لا تنوء بنكد العيش؛ و لا تمل قليلا يقيم الصلب ليهب، و قد عرف هذا التوجه بالتصوف؛ و ما فتى أن انتشر من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه.

أولا: نشأة الطرق الصوفية في الجزائر.

لم يظهر التصوف في المغرب العربي معاصرا للمشرق العربي؛ بل تأخر حتى عهد المرابطين في أوائل القرن الخامس الهجري، و لم يكن قد عرف علوم المكاشفات و الحقائق، بل تمثل في صور الزهد و النسك و المجاهدة، فكان هنالك اختلاط بين الصوفية و الفقهاء، و لم يتميز كل فريق عن الآخر، لأنهم لم يشهدوا الصراع القائم في المشرق بين الفقهاء و الصوفية، لبعده التصوف المغاربي عن المظاهر المخالفة للشريعة، و عن دعاوى الباطن، و التفريق بين الشريعة و الحقيقة، فكان ظاهر للباحثين أن أكثر

المشايخ الصوفية بالمغرب العربي من الفقهاء، و أن أكثر الطرق الصوفية كان لها اهتمام بالغ بالعلوم و الفنون، فكان بينهم المحدثون و القراء و الفقهاء و المتكلمون و اللغويون و المفسرون.

في منتصف القرن الخامس الهجري دخلت بعض الكتب الصوفية من المشرق، و فوجئ علماء المغرب بما في كتاب "الإحياء" لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، فأنكروا ما فيه، و تبرؤوا من مقالات التصوف به، و عارضه كثير من الصوفية، و أفتى القضاة و على رأسهم القاضي عياض المالكي صاحب مصنف " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " بحرق الكتاب و منع قراءته.

يقسم بعض الباحثين أطوار التصوف في المغرب العربي إلى أربعة عصور:

العصر الأول: يتمثل في زمن أبي مدين، في القرن الخامس.

العصر الثاني: من القرن السادس إلى السابع زمن الشاذلي.

العصر الثالث: من القرن السابع إلى التاسع، و هو عهد الجزولي.

العصر الرابع: من التاسع إلى الرابع عشر⁽¹⁾.

و قد ظهرت الطرق الصوفية في الجزائر في حوالي القرن السادس الهجري، و البعض يؤرخ لها منذ عهد أبي مدين الغوث (ت 594هـ / 1197م)⁽²⁾. فهو واضع أول طريقة عرفت هنا بالجزائر و هي الطريقة المدينية، التي نشرها في بجاية و ضواحيها، و تخرج على يديه المئات بل الآلاف من الطلبة ممن لهم الولاية⁽³⁾، و هو تتلمذ على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني و ألبسه خرقة الصوفية⁽⁴⁾.

و يعود انتشار التصوف السني في بداية العهد الموحدى (514 - 668 هـ/ 1120 - 1269 م) إلى الأمن و الاستقرار اللذين تحققا في ظل الوحدة المغاربية و السلطة المركزية تحت حكم الموحدين، و عرفت تطورها الكامل في القرن 14م أثناء

الفترة المرينية (642 - 869 هـ/1244 - 1464 م)، و حكم بني عبد الوادي (بنو زيان) (633 - 962 هـ/1235 - 1554 م).

و حازت الطرق درجة رفيعة في المجتمع الجزائري، لمشاركتها في الحياة اليومية للمجتمع و قيامها بمهام: الإرشاد، التعليم، و القضاء، و إصلاح ذات البين، و الإيواء، و الإطعام. فكانت الزوايا نقطة تلاقي أطراف متنوعة و مؤسسات عدة اجتماعية و سياسية و عسكرية و دينية، فهي مركز الدائرة و محور اهتمام السلاطين و الرعية على حد سواء. و ظلت وسيطا بين الحكام و الرعايا، تسعى لقضاء مصالح الطبقات الكادحة المحرومة، و تعمل على معالجة أوضاع المسلمين بطريقتها الخاصة. تنشط في الأرياف و القرى و المداشر التي كانت بعيدة عن رعاية الدولة، فسدت الفراغ الناشئ عن بعد المسافات بين الحواضر.

باعتبار التعليم ميدانا ضروريا و حتميا لتطوير الحركة الفكرية و العلمية، فقد كان أحد الميادين التي تجلّى فيها النشاط الإيجابي للصوفية، و برزت فيه الزوايا كمعاهد لتخريج الطلبة المتخصصين في علوم شتى، لما حوته الزوايا من مشايخ و مكنتات. و يعود اهتمام الناس في تلك المرحلة بالتعليم بالزوايا إلى جملة من العوامل:

1- تسابق الأولياء في توجيه أبنائهم لتعلم الفقه - علم الظاهر- قصد بلوغ المناصب العليا عند الحكام كالقضاء و الحسبة و مختلف الخطط الإدارية، فاتجه التعليم في المغرب وجهة وظيفية.

غير أن المناهج التعليمية الصوفية في الزوايا كانت ذات وجهة علمية تربوية أولا و قبل كل شيء، ثم وجهة وظيفية لاحقا، لمن تفوق و توسع أكثر، و تيسر له الالتحاق بالمؤسسات الإدارية أو القضائية. و إن كان الكثير من مشايخ التصوف ينصرفون عن المناصب الرسمية، كما أن من مهام الزاوية الفصل في الخصومات، ثم توسع دورها في

القضاء أكثر في مراحل تطور أدوارها لأسباب عدة، منها أن الزوايا كانت أكثر انتشارا و قربا من المحاكم و مراكز القضاء الرسمية الموجودة في الحواضر و فقط، و مشايخ الصوفية كانت لهم هبة و وقار في قلوب الناس أكثر من غيرهم، فكان لفصلهم في المنازعات قبولاً أوسع، و غالب الناس من البسطاء يميلون لفصل المنازعات بالتراضي و الود، فيلجؤون للمشايخ لتحسن النيات و تطيب الأنفس. و في المنازعات القبلية تمتعت الزوايا بهيبة أكثر، و الزاما روحيا أكبر على كبراء القبيلة.

2- اقتصار التعليم على الفئات الاجتماعية المسورة، حيث بإمكانها الإنفاق على أبنائها، لأن أجرة المعلم في سائر أنحاء المغرب حتى القرن 6هـ يدفعها الولي. بينما كانت الزوايا تقدم التعليم مجانا، مما ساعد على تعميم التعليم بين جميع فئات المجتمع، مع توفير الزاوية للمسكن و المأكل للطلبة فجعلها قطبا يجذب الطبقات الفقيرة لتدفع بأبنائها للدراسة على نفقة الزاوية، فخففت أعباء السفر و تكاليف العيش و مصاريف الدراسة، بل كانت الزاوية تمنح للطلب في العطل مصاريف السفر لأهلهم، و هي من أولى الأفكار عن " المنح الجامعية " للطلبة.

3- تدخل الدول المتعاقبة في سياسة التعليم و مناهجه و مقرراته، فكانت كل دولة توجه دين الناس على دين ملوكها، فالمرابطين اهتموا بفقهاء الفروع فنظروا له و دعموا المذهب المالكي أكثر، و منعوا كتب الفلسفة و المنطق، و الموحدين اهتموا بفقهاء الحديث و علم الكلام و الفلسفة، فحضوا الطلبة و مولوا المدارس في إطار هذا التوجه، و هكذا العادة مع من تلاهم من الحكام.

أما الزوايا فجعل المتصوفة يعملون فيها على إخراج التعليم من طوق الوصاية و من دائرته الوظيفية إلى إطاره التربوي و العلمي، فضلا عن هدفهم في تعميمه على كل الفئات لأن هنالك شريحة اجتماعية كبيرة عاجزة عن دفع مستحقته المالية.

4- غالب الزوايا الرئيسية كانت تنشأ من مشايخ نهلوا من العلوم قدرا، و شدوا الرحال شرقا و غربا، و بلغوا من التحصيل ما جعلهم في حاجة لبذل ما عندهم من العلم للناس، و تكوين طلبة لهم ليرثوا علمهم و ينشروه بين الناس، ناهيك عن رغبة المشايخ في تطبيق مناهجهم و تجاربهم التربوية من خلال تلقين مختلف العلوم النقلية و العقلية. فالتصوف كدعوة لا بد له من نشاط جماعي و اقتراب من المجتمع بمختلف طبقاته، ليمارس دوره التربوي و الإرشادي، و هنا برز **التصوف الشعبي**، و أولى ارهاصاته البارزة انتشار الزوايا في أرجاء البلاد، و توسع المهام المنوطة بها.

ثانيا: أهم الطرق الصوفية بالجزائر.

برزت في الجزائر طرق صوفية عديدة، بصفتها منطقة المغرب الأوسط في عهد المرابطين (448 - 541 هـ / 1056 - 1147 م)، ثم الموحديين (514 - 668 هـ / 1120 - 1269 م)، خاصة ببجاية التي كانت تمثل أكبر الحواضر وقتها، و كانت عاصمة الحماديين (398 - 547 هـ / 1007 - 1152 م) التابعين أصالة للدولة الزييرية بتونس (362 - 563 هـ / 972 - 1167 م)، و ازداد علوها أيام الدولة الحفصية (625 - 941 هـ / 1227 - 1534 م) لأنها على تخوم حدودها، ثم تلمسان التي سطعها نجمها أكثر أيام الدولة الزيانية (633 - 962 هـ / 1235 - 1554 م) باتخاذها عاصمة.

و لم يكن هنالك كيان لدولة ذات حدود تمثل الجزائر، بل كانت إما خاضعة لعواصم بتونس، أو أخرى بالمغرب، أو مقسمة بين تونس و المغرب، أو بعض الدول التي كانت تشغل مساحة معينة من مساحة الدولة الجزائرية حاليا، كدولة الرستميين (160 - 296 هـ / 776 - 908 م) أو الحماديين أو الزيانيين.

و أشهر الطرق ثمانية: القادرية، الشاذلية، الخلوتية الرحمانية، التيجانية، العيساوية،

الطبية، السنوسية، العمارية. و امتازت هذه الطرق بحركة علمية و اجتماعية، فلم تكن منزوية عن العامة و المجتمع السياسي أو الديني أو حتى العسكري، مما أكسبها مكانة في قلوب الناس، و حظوة لدى الحكام، فكانت تتصدر لأدوار عديدة هامة منها:

الإرشاد و التوجيه.

التربية و التعليم .

القضاء الشرعي.

إصلاح ذات البين.

الرعاية الاجتماعية لليتامى و المشردين و طلبة العلم الفقراء و عابري السبيل.

تحريض الناس على الجهاد و القيام بجراسة الحدود في الرباط.

غير أن أهم انجازات الطرق الصوفية؛ يكمن في الانتشار في البوادي و القرى النائية، التي كانت تعاني من الإهمال المادي و العلمي، كما سعت لتعميم التعليم بجعله مجاني، بل أضافت تكفل الطرق بالطلبة عبر مواردها ومؤسساتها المتمثلة في الزوايا، فكان لها القدرة على ملأ الفراغ الثقافي و الروحي و حتى السياسي، الناتج عن اتساع المساحة، وتباعد التجمعات السكانية و المركزية في الحكم، وتمركز غالبية العلماء والدعاة في الحواضر الكبرى. فكانت الطرق الصوفية مؤسسة للتأطير، قادرة على جمع المسلمين وحفظ مصالحهم و توجيههم. و ميزتها آنذاك: بعدها عن القرار السياسي، والنأي بالطلبة عن مخالطة أولي السلطان، تجنباً للتحكم في برامجها أو توجيهاتها التربوية، فكانت الطرق تمتلك هيبة و احتراماً، جعلها تحصل على سلطة مركزية تلتقي عندها جميع الأطراف.

يذكر سعد الله أبو القاسم أن: " عدد الطرق الصوفية الفاعلة في الجزائر بلغ أكثر من ستة وعشرين طريقة، منها فقط حوالي أربعة أنشئت في العهد الاستعماري، "كالسنوسية" و"العلوية". والباقي كان موجوداً منذ العهد العثماني (924 هـ/1518

م / 1246 هـ / 1830 م). ومن هذا العدد ما هو مؤسس في المغرب كالطيبية والعيسوية والدرقاوية، وما هو مؤسس في المشرق كالقادرية⁽⁵⁾. ومن أوائل الطرق في الجزائر و أشهرها ما يلي:
الطريقة المدينية:

تنسب لأبي مدين شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني (594 هـ / 1198 م)،
" الشيخ الفقيه المحقق، الواصل القطب، شيخ مشائخ الإسلام في عصره، إمام العباد و
الزهاد و خاصة الخلاء، من فضلاء العباد "⁽⁶⁾.

أفرد ذكره و بسط أخباره أبو العباس أحمد بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني
في كتابه " أنس الفقير و عز الحقيير"، و ترجم له الكثير.

نزل في حواضر المغرب الأقصى، كطنجة و سبتة و مراکش، و فاس⁽⁷⁾، و سكن
بجاية و كثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور (554 - 595 هـ =
1160 - 1199 م)⁽⁸⁾، توفي بتلمسان، و قد قارب الثمانين أو تجاوزها. له "
مفاتيح الغيب لإزالة الريب و ستر العيب "⁽⁹⁾.

أخذ علم التصوف عن أبي عبد الله الدقاق و أبي الحسن السلاوي⁽¹⁰⁾، و أخذ في
المجاهدات و رياضة النفس في جبال إيروجان جنوب مكناسة على يد الصوفي المربي
أبي يعزى (ت 572 هـ)⁽¹¹⁾، ثم قرأ الرعاية للمحاسبي و "إحياء علوم الدين" للغزالي
على الصوفي أبي الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم⁽¹²⁾.

و "الطريقة المدينية" هي أول ما عرفت الجزائر من الطرق، و يعد أبو مدين الغوث، "
لسان الطريقة الصوفية و محيها ببلاد المغرب"، و شيخ مشائخ المغرب، و أحد
أكابر عبادته في وقته، و يعد أشهر ممثل للتيار الصوفي السني في بلاد المغرب الإسلامي
ككل.

و " يبين لنا كتاب التراجم من العرب على أن أبا مدين كان متفننا في علوم الإسلام المختلفة نقلها و عقليها.

و نرى مما تقدم أن أبا مدين كان بفاس في الوقت الذي انبعثت فيه مذاهب الموحدين في بلاد المغرب، و الذي نهضت فيه العلوم الكلامية و الفقهية بتأثير تلك المذاهب.

و لكن يظهر أن الطالب الأندلسي الحديث لم يبد أي ميل نحو هذه الأنظار الجديدة لأن ذوقه وجهه إلى التصوف بصفة خاصة، و ساقه في هذا الطريق الشيخ أبو يعزى، الذي بلغ به إلى مرتبة الصوفي الكامل بالقيام و الصلاة و التقشف المتواصل الشديد و لم يجد أبو مدين - لفقره المدقع - أية صعوبة في التخلص من هذا العالم و من ملذاته الزائلة، فتنقل متدرجا في كل مراتب الصوفية حتى بلغ مرتبة " القطب " و " الغوث " (13).

استوطن أبو مدين مدينة بجاية، و كانت تحت سلطة الموحدين، فقضى بها أكثر من خمسة عشر عاما، يدرس بها بعض كتب التصوف، و ذلك بزواية أبي زكريا الزواوي بحومة اللؤلؤة. و منهجيته تختلف عما تلقاه في المدارس الثلاث، حيث مزج بين التصوف المغربي و النظريات الصوفية الشرقية و الأندلسية. وثار على أسلوب المجاهدات النفسية القاسية للمدرسة المغربية (14).

فغير من معنى الزهد و التقشف السطحي القائم على التخلي عن ملذات الدنيا و زينتها، فلبس الثياب الحسنة و تزين برائحة المسك و الطيب حتى شبه الملوك (15).

و حصر معنى الزهد و التقشف في تطهير القلب من حب الدنيا، و ملئه بحب الله تعالى، و يتم بالذكر. و هذا المنحى الصوفي كان له أثر عميق على المدينيين في بجاية و تلمسان، خاصة متصوفة أسرة المرازقة، و طريقة أبي الحسن الشاذلي. كما اختصر نظريات التصوف المشرقي و الأندلسي في عبارات واضحة و بسيطة، لكنها عميقة (16).

و هو ما اشتهر بالطريقة المدينية فيما بعد، و انتسب إليها العديد من العلماء و الفقهاء.

و لما اشتهر أمره وشى به بعض علماء الظاهر عند الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى (ت 595هـ)، فبعث إليه للقدوم ليختبره، و لما بلغ "وادي يسر" من حوز "تلمسان" لاحت له "رابطة العباد" قال لأصحابه: " ما أحلى هذا الموضع للرقاد، فتوفي هناك، و دفن بالعباد " (17).

– التصوف عند أبي مدين:

تسليم كلك لله وحده، و هو الطريق الموصل إلى معرفة الله، و يجب لبلوغ هذه الغاية قطع كل العلائق. فكان يقول: " التعظيم إمتلاء القلب بإجلال الرب "، " جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة و الوسواس، و قلوب العارفين محلا للذكر و الاستئناس " (18).

و هو عنده لا يكون إلا بعد تحصيل العلوم الشرعية. " و حتى يترجم هذه العلمية إلى ملموس، اعتمد المسجد و الرابطة و بيته إطارا لنشاطه العلمي و الصوفي. فهو يدرس الوعظ بعد صلاة الصبح بمسجد أبي زكريا يحي الزواوي بحومة اللؤلؤة، ينشر من خلاله طريقته الصوفية البسيطة " (19).

و يلقن في بيته و مسجده الثاني العلوم و المعارف، كتفسير القرآن، و تدريس الحديث و الفقه، و إطلاع المريدين و الطلبة على حيثيات مصنفات التصوف الشرقية كالرسالة القشيرية و الإحياء⁽²⁰⁾، و المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، حتى يوسع من مداركهم و يرشدهم إلى أصول طريقته و منابعها الأصلية، و يراقب الجانب التطبيقي من أورادهم برابطة ابن الزيات⁽²¹⁾.

و كان الشيخ يقرر فتاويه على المذهب المالكي⁽²²⁾، مع تحصيله للحديث؛ فقد أخذ سنن الترمذي عن الصوفي الحسن بن علي بن غالب⁽²³⁾.

و اشترط الشيخ في كل من يريد الولوج إلى رحاب التصوف أن تتوفر فيه أربعة شروط

هي: الزهد و العلم و التوكل و اليقين⁽²⁴⁾.

و على كل شيخ مرب أن يكون عالما بالفقه و التصوف، حتى لا ينحرف إلى البدع، و أن يكلف تلامذته فقط بالأوراد التي يعلمها، و أن يتجافى عن أخطائهم و يسامحهم في ذلك.

و لعل أبرز عامل جعل طريقة أبي مدين ترقى إلى مستوى أخلاقي و فكري رفيع هو التزامها بالقرءان و السنة⁽²⁵⁾.

و مبنى طريقته على الزهد و التوكل، و قد وصف من قبل الذين ترجموا له بأنه كان زاهدا فاضلا عارفا بالله، و أقام مدرسته على هذا الأساس، و جل من انتسب إليه يعتبر من الزهاد.

و عبر عن ذلك بقوله: " أسس هذا الشأن - أي التصوف - على الزهد و الاجتهاد "⁽²⁶⁾.

و قوله: " لا يسموا إلا من أوتي قلبا سليما، الذي يسلم مما سواه، و لا يكون في الوعاء إلا مما جعل فيه مولاه، فقلب العارف يسرح في ملكوت بلا شك "⁽²⁷⁾.

و جمع الشيخ أبو مدين بين أفكار المدارس الصوفية الثلاث: التصوف المغربي، التصوف المشرقي، التصوف الأندلسي " ابن العريف "⁽²⁸⁾.

و استمرت طريقته قائمة في بجاية و غيرها من المدن المغربية، ممثلة في محمد بن علي الصنهاجي القلعي (ت628هـ)، و محمد بن إبراهيم الأنصاري أبو علي منصور الملياني. و قد أخرج أبو مدين التصوف من داخل حواضر المغرب الأوسط كقلعة بني حماد و بجاية و تلمسان و قسنطينة و بونة أواخر القرن السادس الهجري إلى البوادي و الأرياف، و بهذا يكون قد فتح باب التصوف الشعبي على مصراعيه أمام العامة .

و من أشهر تلامذته: عبد الرزاق الجزولي، عبد السلام بن مشيش، يوسف الكومي

شيخ محي الدين بن عربي، محمد بن علي بن حماد الصنهاجي.

و نقلوا فكره و طريقته إلى مختلف الأقطار التي حلوا بها مثل المغرب و الأندلس و مصر و بلاد الشام، فانتشرت في مناطق عديدة من العالم الإسلامي، و عرفت نهضة كبرى في عهد عبد السلام بن مشيش (ت 665هـ) ثم ازدادت نشاطا على يد أبي الحسن الشاذلي، شيخ الطائفة الشاذلية، و الذي نسبت إليه الطريقة فيما بعد.

الطريقة الزروقية:

تنسب إلى الولي الصالح العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بـ " زروق " (846 - 899 هـ / 1442 - 1493 م).

و هو " الإمام العالم الفقيه المحدث الصوفي الولي الصالح الزاهد القطب الغوث العارف بالله الحاج الرحالة المشهور شرقاً و غرباً، ذو التصانيف العديدة و المناقب الحميدة و الفوائد العتيدة.

قد عرف بنفسه و أحواله و شيوخه في كناشته و غيرها، فقال: ولدت يوم الخميس طلوع الشمس ثامن و عشرين من المحرم سنة ست و أربعين و ثمانمائة.

ثم نقلني الله بعد بلوغي سادس عشر إلى القراءة، فقرأت الرسالة على الشيخين علي السطي و عبد الله الفخار قراءة بحث و تحقيق، و القرآن على جماعة منهم القوري و الزرهوني، و كان رجلاً صالحاً، و المجاصي، و الأستاذ الصغير بحرف نافع. و اشتغلت بالتصوف و التوحيد، فأخذت الرسالة القدسية و عقائد الطوسي على الشيخ عبد الرحمن الجدولي، و هو من تلاميذ الأبي، و بعض التنوير على الفوري، و سمعت عليه البخاري كثيراً. و تفقّهت عليه في كل أحكام عبد الحق الصغرى و جامع الترمذي، و صحبت جماعة من المباركين لا تحصى كثرة بين فقيه و فقير. و أما تأليفه فكثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، و لا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة و تحقيقات مفيدة سيما في

التصوف، فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه.. و هو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة و الشريعة "(29)".

و له تأليف عديدة منها:

شرحان على الرسالة.

شرح إرشاد ابن عسكر.

شرح مختصر خليل .

شرح الوغليسية.

شرح القرطبية.

شرح الغافية.

شرح العقيدة القدسية للغزالي.

نيف و عشرون شرحاً على الحكم.

شرحان على حزب البحر.

شرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي.

شرح الحقائق و الدقائق للمقرزي.

شرح قطع الششتري.

شرح الأسماء الحسنى.

شرح المراصد في التصوف لشيخه ابن عقبة.

النصيحة الكافية لما خصه الله بالعافية.

إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح و التمكين.

القواعد في التصوف.

النصح الأنفع و الجنة للمعتصم من البدع بالسنة.

عدة المرید الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق.

" ذكر حوادث الوقت " : كتاب جليل فيه مائة فصل بين فيه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية. و له تعليق لطيف على البخاري قدر عشرين كراساً اقتصر فيه على ضبط الألفاظ و تفسيرها. و جزء صغير في علم الحديث. و له رسائل كثيرة لأصحابه مشتملة على حكم و مواعظ و آداب و لطائف التصوف مع الاختصار، قل أن توجد لغيره⁽³⁰⁾.

توفي في تكرين من قرى مسرارة، من أعمال طرابلس الغرب⁽³¹⁾.

و طريقة الزروقية طريقة صوفية سنية اشتهرت في المغرب الإسلامي، و تفرع عنها ثلاثة عشر فرعاً تعتبر امتداداً لها، و انتشرت في مصر و الحجاز و لبنان و فلسطين و جزيرة رودس و تشاد و النيجر.

أصول طريقته خمسة أشياء:

تقوى الله في السر و العلانية.

إتباع السنة في الأقوال و الأفعال.

الإعراض عن الخلق في الإقبال و الإدبار.

الرضا عن الله تعالى في القليل و الكثير.

الرجوع إلى الله تعالى في السراء و الضراء.

فتحقيق التقوى بالورع و الاستقامة.

و تحقيق السنة بالتحفظ و حسن الخلق.

و تحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر و التوكل.

و تحقيق الرضا عن الله بالقناعة و التفويض.

و تحقيق الرجوع إلى الله بالحمد و الشكر في السراء و اللجأ إليه في الضراء .

تفرعت عن الطريقة الزروقية ثلاث عشرة طريقة صوفية خلال الخمسة قرون الماضية، و من هذه الطرق: البكرية، العيساوية، الراشدية، السهلية، الشيخية، و الناصرية، الدرقاوية. الطريقة اليوسفية:

تنسب إلى الشيخ الولي الصالح أبو العباس سيدي أحمد بن يوسف (927 هـ / 1521 م) الراشدي نسبا؛ الملياني دارا، " متصوف صالح، من أهل المغرب، تنسب إليه الطريقة اليوسفية، قال فيه صاحب لقط الفرائد: الرجل الصالح و حاشاه أن يقول ما قيل عنه " (32).

و هو من أعيان مشائخ المغرب العربي، و أحد أوتاد التصوف الإسلامي، و انتهت إليه تربية المريدين و رئاسة السالكين بـ " البلاد الراشدية " و المغرب بأسره، و اشتهر ذكره في الآفاق شرقا و غربا. ولد بقلعة بني راشد التي تقع بين غليزان و معسكر، تنتمي أسرته إلى بني مرين. و أخذ عن علماء تلمسان و وهران، ثم انتقل إلى بجاية أين تتلمذ للشيخ زروق، عارض الملياني الحكم المريني معارضة شديدة، و ذلك بسبب تحالف المرينيين مع الأسبان، و اتصل بالأتراك، و ساعدهم على مقاومة الأسبان. أسس زاويته بـ " رأس الماء " بوادي الشلف، و كون فيها المريدين.

اتصل بعلماء عصره مثل الخروبي و الخياط و غيرهما. و زار المشرق و تعرف على علمائه الكبار، ثم عاد إلى وطنه و راسل العلماء في تلمسان و فاس و القاهرة و دمشق. أخذ عنه أحمد بن علي البوعمراني، محمد الشريف الزهار، أحمد بن المبارك الراشدي، محمد الصباغ، و غيرهم. و عم نفوذه الصحراء الجزائرية و المغرب الأقصى، و انتشرت طريقته اليوسفية الشاذلية و اشتهرت، و كون عدد من أتباعه جماعة تسمى بالشرافة أو اليوسفية، و قد انحرفوا عن الدين فعاب عليه الفقهاء، إلا أن الملياني تبرأ منهم و قاومهم.

توفي الشيخ أحمد بن يوسف في سنة (931هـ / 1524م)، و دفنه ابنه محمد بن مرزوقة في مدينة مليانة. و نشر طريقته اليوسفية كبار تلامذته كالشيخ أحمد بن المبارك الراشدي (ق 10هـ / 16م)، و الشيخ أحمد بن موسى الحسيني "الكرزازي" (ت 1016هـ = 1608م)، و محمد بن عبد الجبار الفجيجي.

الطريقة القادرية:

انتشرت الطريقة القادرية في المغرب العربي عن طريقين هما: مصر و الأندلس، حيث استقر في مصر أحد أبناء الشيخ و هو الشيخ عيسى مؤلف كتاب "لطائف الأنوار" في التصوف.

أما عن طريق الأندلس فقد انتشرت عبر ذرية ابنه إبراهيم و عبد العزيز بعد هجرتهم من الأندلس لفاس.

و هنالك روايات على أن إبراهيم ابن الشيخ عبد القادر هاجر مباشر من المشرق لفاس ثم لمنطقة الأوراس بالجزائر، و أسس زاوية المنعة⁽³³⁾.

من أبرز رجالاتها: الشيخ المختار الكنتي (ت 1826م)، قُدر أتباعها في نهاية القرن التاسع عشر: 24 ألف مريد، 558 مقدم، 33 زاوية. كما مثلتها "زاوية القيطنة" على وادي الحمام التي أسسها الحاج مصطفى بن المختار الغريسي (جد الأمير عبد القادر) (ت 1200هـ / 1784م)، و تولى أمرها والد الأمير عبد القادر الشيخ محيي الدين، ثم خلفه بعد وفاته ابنه الأكبر الشيخ محمد العيد (أخو الأمير الأكبر). قادت المقاومة في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر بزعامة الشيخ محي الدين بن مصطفى الغريسي و ابنه الأمير عبد القادر الجزائري، و تعاونت معها بقية الطرق. أورد رين إحصاء رسميا للطريقة سنة 1882م، حيث بلغ عدد الزوايا في الجزائر 29 زاوية قادرية، و 268 مقدا قادريا، و بلغ أتباعها 14574 خونيا⁽³⁴⁾.

الطريقة التيجانية:

أسسها أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد الشريف التجاني (1150 - 1230هـ / 1737 - 1815م).

و هو " عالم بالأصول و الفروع، ملم بالأدب، من فقهاء المالكية. ولد في عين ماضي، و دخل فاس سنة 1171هـ و سمع بها شيئاً من الحديث، ثم دخل تلمسان و درس بها. و حج سنة 1186هـ فمر بتونس و أقام بها مدة. و عاد الى فاس، ثم رحل الى "توات" و أُخرج منها، فاستقر بفاس (سنة 1213هـ) إلى أن توفي " (35).

تلقى العلوم و انخرط في سلك الصوفية صغيراً، حتى إذا توفي والده سافر إلى الحج في سنة 1186 هـ، حيث إلتقى في مكة بالشيخ أحمد بن عبد الله الهندي، و اجتمع في المدينة بالشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، فأخذ عنهما كثيراً من الأسرار. ثم ذهب إلى مصر فالتقى بالشيخ محمود الكردي، و بعد فترة من تلاقيهما؛ قال له الشيخ الكردي: أنت محبوب من الله، فما هو مطلبك ؟ قال التجاني: القطبانية العظمى. فقال له: لك أكثر من ذلك (36).

و ألف التجاني في آداب و أسرار الطريقة كتاباً دونه الحاج علي حرازم بن العربي برادة سماه

" جواهر المعاني و بلوغ الأمان في فيض أبي العباس التجاني ". و " اتصل أثناء سفره بأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الزواوي الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية، فأخذ عنه أورايد الطريقة الخلوتية " (37).

و تبرز صوفية التجانية في المصنف منبثقة عن صوفية محي الدين بن عربي في كتابه " فصوص الحكم"، و من كتاب عبد الكريم الجيلي " الإنسان الكامل"، أي أنها تقوم على نظرية وحدة الوجود، و الاعتقاد بالحقيقة المحمدية و أن الشيخ التجاني يتلقى من الحقيقة

المحمدية ما تلقاه من الأسرار "يقظة لا مناما"، أي انه يرى النبي و يملئ عليه النبي أسرار الطريقة و الشريعة مباشرة و معاينة (38).

من أورد الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي " الدور الأعلى " و "الكبريت الأحمر" لابن عربي (39).

الطريقة الدرقاوية:

تفرعت عن الطريقة الشاذلية، و تعد من الإرث الصوفي الروحي لأبي مدين الغوث، و سميت بدرقاوة نسبة لشيخها العربي بن أحمد بن الحسين بن محمد يوسف الملقب " أبو درقاوى" الشريف الإدريسي (ت 1823م) (40).

و قد وجدت هذه الطريقة أتباعاً كثيرين في الجهات الوسطى و الغربية من البلاد الجزائرية بإقليم التيطري و الناحية الوهرانية. اشتهر العربي الدرقاوي بالإستقامة و الزهد في متاع الدنيا و احتقار السلطان، و ذلك ما أوصاه به شيخه لابن عبد الرحمن الفاسي، و يتميز أتباعه عن غيرهم بإعفاء اللحم الطويلة، و لبس الخرق و العقد ذي الحبات الخشبية الكبيرة و حمل العصا، و كان الواحد منه يسمى " أبو دربالة " أي صاحب الخرقة القديمة (41).

و قد بلغ عدد زوايا طريقة درقاوى في الجزائر حسب إحصاء عام 1882م 32 زاوية يشرف عليها 286 مقدا، و 14574 مریدا، و أهم فروعها الكنانية و الحراقية و الهبرية (42).

الرحمانية:

تفرعت عن الطريقة الخلوتية و نسبت لمؤسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري الأزهري، المولود عام 1720م في قبيلة "آيت إسماعيل"، التي كانت في حلف قشتولة بقبائل جرجرة.

زاول دراسته بزاوية الشيخ "الصديق واعراب" في بني إيراثن، ثم واصل تعلمه في الجزائر العاصمة. و عام 1739م توجه للحج، و في العودة استقر بجامع الأزهر لفترة طويلة، و أصبح مريدا للشيخ الصوفي محمد بن سالم الحفناوي، و دخل بذلك الطريقة الخلوئية، و عهد إليه شيخه بالقيام بالدعوة في السودان و الهند؛ فنجح كثيرا⁽⁴³⁾.

و بعد ثلاثين عام من الغياب عن وطنه عاد بأمر من شيخه للقيام بنشر الطريقة في الجزائر. ثم أسس زاوية في مسقط رأسه "آيت إسماعيل"، و شرع في الدعوة، فالتف حوله جموع الناس و الأتباع و المريدون، و لقيت دعوته نجاحا كبيرا في منطقة القبائل المستقلة عن حكم العثمانيين.

ثم انتقل إلى الحامة أحد ضواحي العاصمة، و بعد مشاكل من الحكام العثمانيين و بعض مشايخ الطرق الصوفية و محنة و محاكمة توفي الشيخ عام 1793م، و دفن بالحامة فكثرت زوار قبره فنقل القبر لمسقط رأسه، و صار يعرف الشيخ ب "بوقبرين".

و ازداد أتباع الطريقة بعد وفاته، فبلغ أتباع الطريقة 156214 خونيا في عام 1898م⁽⁴⁴⁾، و من أهم مراكز الطريقة الحامة و آيت إسماعيل و زاوية صدوق بسطيف و قسنطينة و طولقة و أولاد جلال. و قد تزعمت الطريقة الثورات ضد الاحتلال الفرنسي.

الخاتمة:

نخلص من العرض أن الجزائر زحرت بطرق صوفية كثيرة، و ازداد النشاط الصوفي بها لما حظيت من علماء و مشايخ توافدوا عليها من المغرب الأقصى و الأندلس، و قد كان لها بالغ التأثير في المجتمع الجزائري باختلاف طبقاته، كما تفاعل أهل الطرق مع مجريات الأحداث و التحولات السياسية و الاجتماعية و تداول الأيام و الدول، فكانوا بين مسابير و مغضوب عليه، لكن نشاط الزوايا و الطرق استمر في تعليم المجتمع مبادئ

الشريعة و تحفيظ كتاب الله تعالى، و الدراسة للتصوف الجزائري ينبغي عليه أفراد كل طريقة بما لها، ثم النظر في المتفق بينها و المختلف.
و نسأل الله تعالى في الختام تسيير البحث المتوسعة في كل طريقة على انفراد، و أن يرزقنا الفائدة من هذا البحث.

الهوامش

(1) التصوف الإسلامي في المغرب: علال الفاسي. مجلة الثقافة المغربية، العدد الأول: السنة الأولى، ذو القعدة 1389 يناير. ص38.

(2) شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث: عبد الحليم محمود. دار المعارف. ط()، دت. ص(51-53).

(3) البستان في ذكر الأولياء و العلماء في تلمسان: ابن مريم؛ مراجعة: ابن أبي شنب. المطبعة الثعالبية: الجزائر. ط()، 1908. ص108.

(4) المرجع السابق: ص112.

(5) تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي: بيروت. ط(1)، 1998.

ص .

(6) عنوان الدراية: الغبريني. ص22.

(7) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص12.

(8) هو: يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي الكومي الموحد، أبو يوسف، المنصور

بفضل الله: من ملوك الدولة المؤمنية في المغرب الأقصى، و من أعظمهم آثارا. ولد بقصر جده " عبد المؤمن " بمراكش. و بويع له بعد وفاة أبيه سنة 580 هـ. و وجه عنايته إلى الإصلاح، فاستقامت الأحوال في أيامه و عظمت الفتوحات.

- الاستقصا: ابن القاضي. ج1، ص(164 - 184).

(9) تعريف الخلف: الحفناوي. ج2، ص(172 - 178).

- البستان: ابن مريم. ص108.

- (10) التشوف: ابن الزيات. ص 319.
- (11) الوفيات: ابن قنفذ. ص 284.
- (12) الاستقصا في معرف أخبار المغرب الأقصى: السلاوي. ج 2، ص 210.
- (13) أبو مدين الغوث: عبد الحليم محمود. ص (52-53).
- (14) شجرة النور الزكية: ابن مخلوف. ص 164.
- (15) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص 94.
- (16) أبي مدين الغوث: عبد الحليم محمود. ص 55.
- (17) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص 40.
- (18) عنوان الدراية: الغبريني. ص (62،63).
- (19) أعلام المغرب العربي: عبد الوهاب منصور. ج 2، ص 16.
- (20) عنوان الدراية: الغبريني. ص 57.
- (21) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص 37.
- (22) البستان: ابن مريم. ص 108.
- (23) نفح الطيب: المقرئ. ج 7، ص 137.
- (24) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص 18.
- (25) نفح الطيب: المقرئ. ج 7، ص 137.
- (26) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص 19.
- (27) نفح الطيب: المقرئ. ج 7، ص 139.
- (28) التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين: الطاهر البونابي. ص (120-121).
- (29) نيل اللابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا. ص 74.
- (30) البستان: ابن مريم. ص (45 - 50).
- الضوء اللامع: السخاوي. ج 1، ص 222.
- شذرات الذهب: ابن العماد. ج 7، ص 363.

- شجرة النور الزكية: ابن مخلوف. ص 267.
- (31) فهرس الفهارس و الأثبات و معجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني؛ تح: إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي: بيروت. ط(2)، 1982. ج1، ص455.
- (32) الأعلام: الزركلي. ج1، ص275.
- (33) نشأة المرابطين و الطرق الصوفية: فيلاي مختار الطاهر. دار الفن الجرافيكي: باتنة. ط(1)، دت. ص37.
- (34) Rinn :Marabouts et khounas.p173.
- نقلا عن: نشأة المرابطين و الطرق الصوفية: فيلاي مختار الطاهر. ص39.
- (35) معجم أعلام الجزائر : عادل نويهض. مؤسسة نويهض الثقافية: بيروت. ط(2)، 1980. ص62.
- (36) الصوفية في نظر الإسلام: سميح عاطف الزين. دار الكتاب اللبناني: بيروت. ط(3)، 1985. ص554.
- (37) نشأة المرابطين: فيلاي. ص46.
- (38) الصوفية في نظر الإسلام: سميح عاطف الزين. ص600.
- (39) جواهر المعاني: الشعراي. ج1، ص126.
- (40) نشأة المرابطين: فيلاي. ص53.
- (41) المرجع نفسه: ص50.
- (42) دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران: محمد بن يوسف الزباني. ص(92-93).
- (43) نشأة المرابطين: فيلاي مختار. ص40.
- (44) دائرة المعارف الإسلامية: مجموعة من الباحثين؛ تر: أحمد الشنتاوي و آخرون. ج10، ص80.

ايدولوجيا التيار الاستقلالي الجزائري من خلال صحافته - صحيفة المنار نموذجا.

د. عادل جربوعة/كلية الإعلام والاتصال والسمعي البصري/جامعة قسنطينة 3

adjerboua@yahoo.com

ملخص:

يبرز التيار الاستقلالي في كل مرة تظهر فيها ظاهرة الاستعمار، التي أصبحت مثل الوباء في العصور، أو الموضه في حياة الناس، والجزائر مثلها مثل بقية الدول تعرّضت هي الأخرى لهذه الظاهرة المدمّرة والتي أتت على الأخضر واليابس، وحاولت طمس الهوية الوطنية من قلوب المواطنين فأبى الوطنيين ذلك ودفَعوا ودفَعوا عن الأرض والعرض بكل ما يملكون من قوة ودم، منهم من استعمل السلاح ومنهم من استعمل القلم تأليفا وتأريخا وصحافة، ومن بين الصحف البارزة في تلك الفترة والحاملة لراية التحرر صحيفة صحيفة المنار التي تعد من الجرائد المناهضة للاستعمار والمقاومة له بشتى الطرق السلمية والعلمية إلى العنيفة، فجازفت كشقيقاتها في وقت عصيب بالغالي والنفيس لغرض واحد هو استقلال الجزائر.

الكلمات المفتاحية: ايدولوجيا، التيار الاستقلالي، الصحافة الحزبية.

Abstract :

The independent trend emerges every time the phenomenon of colonialism, which has become like an

epidemic in the ages or the fashion of people's lives, appears. Algeria, like other countries, has also been exposed to this destructive phenomenon, which has come to the green and the land. And they defended and defended the land and supply with all their power and blood, including the use of weapons and some of them used the pen and historical history and the press, and among the prominent newspapers in that period and carrying the banner of freedom newspaper Al-Manar, which is anti-colonial newspapers and resistance in various ways The Scientific and scientific to violent, Fjaszewt Khqiqatha at a difficult Balgali and precious time for the sole purpose of Algeria's independence.

Keywords: Ideology, Independent Current, Party Press.

مقدمة:

كان مطلع القرن العشرين على الجزائر تنشيطاً لأبنائها الجزائريين ودفعتهم لمواجهة الاستعمار الفرنسي الذي غزى البلاد دونما اعتبار لشعبها، لذلك عكف هؤلاء إلى تشكيل أحزاب سياسية كانت بمثابة الإطار التنظيمي والهيكل الرسمي للحركة الوطنية، فتلك الأحزاب حاولت جاهدة تطوير نشاطها وحيويتها وتجديد مختلف التيارات السياسية التي انقسمت إلى ثلاث تيارات رئيسية بارزة أحداها طالب بالمساواة بين الجزائريين والأوروبيين مع الأمير خالد ورفاقه خلال الحرب

العالمية الأولى ثم تطور مطالباً بالتجنيس والاندماج مع فرحات عباس وفشل قبيل الحرب العالمية الثانية ليتطور بعدها إلى الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري طالب بإقامة جمهورية مرتبطة بفرنسا ويعتقد بجدوى "الثورة بالقانون" ورسالة فرنسا التمديدية، وتيار آخر استقلالي محض برز بعد الحرب العالمية الثانية في شكل نجم شمال إفريقيا بين أوساط العمال الكادحين المهاجرين في ديار الغربة بفرنسا وأوروبا وفي تعصّب التيار الأوروبي المزيف وكان ينادي بالاستقلال التام للجزائر وشمال إفريقيا ككل، لينتقل في أواخر العشرينيات من القرن العشرين إلى الجزائر وفي الثلاثينيات برز تحت اسم "حزب الشعب الجزائري"، وهما عبارة عن وجهان لعملة واحدة بحيث شكّلا تياراً وطنياً ثورياً اختلف في توجهه عن بقية الحركات الوطنية الأخرى.

ومن مبادئه أنه اعتمد على نفسه وعلى الجماهير والمنظمات الشعبية المكونة له، ومما ميزه عن بقية التيارات حول حملته لقضية وطن وليس مجرد المطالبة بحقوق اجتماعية أو ثقافية أو نقابية أو سياسية. وبعد الحرب العالمية الثانية حدّدت جماعة هذين الحزبين الانطلاق تحت لواء حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. من ضمن تشكيلاتها السرية هيئة عسكرية عرفت باسم المنظمة الخاصة أسست خلال المؤتمر الحزبي الأول عام 1947 وكلفت بالإعداد للثورة المسلحة، وكان لبعض أعضائها دوراً بارزاً في تفجير ثورة أول نوفمبر 1954. وتيار آخر إصلاحياً بدأ على شكل نادي الترقّي وتطور إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثلاثينيات ودافع عن شخصية الجزائر العربية

المسلمة في إطار الشعار الخالد (الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني). وتيار آخر هو التيار الشيوعي على التراث الجزائري المرتبط بالحزب الشيوعي الفرنسي وبالأحزاب الشيوعية الأخرى في أوروبا الغربية وروسيا وتغلغل في أوساط العمال من المنظمة النقابية الفرنسية (S.G.T).

وكل هذه التيارات استخدمت في كل القطاعات الموجودة في المجتمع ووسائل اختلقتها لتدافع عن مطالبها التي في بدايتها الصحافة. لذلك ستكون دراستنا هذه عن ايدولوجية التيار الاستقلالي من خلال صحافته ونأخذ صحيفة المنار نموذجا.

الإطار النظري: التيار الاستقلالي

1- التعريف بالتيار الاستقلالي: هدفه الاستقلال التام وقد برز بعد الحرب العالمية الأولى¹ يتبناه مصالي الحاج الذي كان عضوا في الحزب الشيوعي سابقا في شكل هيئة "نجم شمال افريقيا" بين أوساط العمال الكادحين المهاجرين في ديار الغربة بفرنسا وأوروبا وفي كنف اليسار الأوروبي المزيّف سنة 1926 وكان ينادي صراحة دون لفّ أو دوران باستقلال الجزائر والشمال الإفريقي وانسحاب القوات الفرنسية وتشكيل حكومة وطنية²

ولذلك قلب اليسار الأوروبي ظهره بأوروبا وتمّ حلّه سنة 1929 وأعيد تنظيمه ولكنه حلّ مرتين آخرها في 26 جانفي 1937 بعد رفض مشروع بلوم فيوليت انتقل زعيمه مصالي الحاج إلى الجزائر في أواخر العشرينات نتيجة للضغوطات التي تعرّض لها من قبل السلطات الفرنسية وواصل نضاله تحت لواء جديد سماه (حزب الشعب الجزائري P.P.A) بتاريخ 11 مارس 1937، وامتاز عن نجم شمال إفريقيا في كونه يحمل تسمية "حزب" ونطاق نشاطه في الجزائر، أما التنظيم فقد ظلّ محافظا على هيكل النجم ومتأثر بتنظيم الحزب الشيوعي الفرنسي، ومطالبه ركزت على استقلال الوطن مما زاد من شعبيته لكنه تسبب في سجن زعيمه سنة 1937 لمدة سنتين. وتجدّد بعد الحرب العالمية الثانية باسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي تمثل امتداد لحزب الشعب ومن المؤسسين نذكر مصالي الحاج، الأمين دباغين، حسين لحول، محمد خيضر، أحمد مزربي.

وتبنت كل أساليب الكفاح باستثناء المسلّح منه والتركيز على الدعاية من الاستعمار وسياسة الاستيطان وتكثيف نشاطها في أوساط الشعب. لينقسم هذا التيار المنادي بالاستقلال فيما بعد إلى مصاليين ومركزيين بسبب تركيز السلطة في يد مصالي الحاج، مما لقي المعارضة من قبل بعض مناضلي الحركة الذين طالبوا أيضا بالتعاون مع الأحزاب الأخرى وقد عارض مصالي الحاج الحركة المسلحة بقيادة الجبهة وأنشأ ما يسمى الحركة الوطنية الجزائرية MNA، كما ظهر اتجاه ثالث سمي بالمنظمة الخاصة أسسها بعض اطارات الحركة، الاتجاه الذي اختار

العمل العسكري الثوري أنشأ "اللجنة الثورية للوحدة والعمل CRUA"، وإثر الاجتماع المغلق في 25 جويلية 1954 ظهر ما يعرف بجهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني، الذين تم الإعلان عنهما في بيان أول نوفمبر 1954، حقق الشعب الجزائري من خلالهما استقلاله واسترد سيادته وكرامته.

2- المحطات الكبرى للتيار الاستقلالي:

1- **نجم شمال افريقيا (1926):** في 1924 زار الأمير خالد فرنسا جمعته بالعمال الجزائريين انتهى بتأسيسه وسمي 20 جوان 1926 سلسلة اجتماعات منها: دمشق أكتوبر 1925 انتهى بالإعلان عن ميلاد حزب التيار الاستقلالي .

2- **اليساري الثوري برئاسة الأمير خالد (رئيس شرفي) الرئاسة الفعلية** الحاج علي عبد القادر. الأمانة العامة: الحاج أحمد مصالي. المناضلين والأعضاء: محمد جفال، أحمد بغول، علي عميش، الرزقي كمال، رابح موساوي محمد الطالب.

- **مبادئ الحزب وبرنامجهم:** من أبرزها الاستقلال والتغيير بمشاركة مصالي الحاج في مؤتمر بروكسل ضد الاستعمار (10-15 فيفري 1927) القضية الجزائرية الوطنية . الاستقلال الوطني والمطالب الوطنية أما البرنامج الأساسي للحزب: الاستقلال الكامل للجزائر، جلاء قوات الجيش الفرنسي عن التراب الوطني، إنشاء جيش وطني، مصادرة

الأموال الزراعية الكبيرة التي استولى عليها الكولون والشركات الاحتكارية، ارجاع الاراضي والغابات التي استولت عليها الدولة الفرنسية إلى الجزائريين، إلغاء قانون الأهالي حرية الصحافة والمجتمع والتجمع وممارسة الحقوق السياسية والنقابية، إنشاء مجلس وطني منتخب، حق الجزائريين في التمتع بجميع أنواع التعليم.

- أسباب ميلاد نجم شمال إفريقيا بفرنسا:

إبعادها عن ضغط ومكائد المستوطنين الفرنسيين في الجزائر، تبني منهجية المرحلية في التنظيم والتسيير والسرية في النشاط، وهذا ما يفسر وجود أعضاء ومؤسسين للحزب من الحزب الشيوعي الفرنسي بغرض التمرّن على العمل النظامي واستيعاب أساليب التنظيم الحزبي حسب الطرق العصرية، إتباع طريقة المراوغة مع الإدارة الاستعمارية مما جعل مؤسسي الحزب يعلنون أنه حركة نقابية تتبنى مطالب العمال وانشغالهم وحقوقهم في إطار الإعلان عن برنامجها الوطني بعد أن يشتد عودها. ومرّ الحزب بمرحلة خمول تام عندما فقد أعضاءه المغاربة والتونسيين ليستأنف عمله دون كلل بأعضاء جزائريين وحقق نجاحا في النشاط السياسي والنضال الوطني خاصة على الصعيد الخارجي من بين مطالبه: إقامة تجمع ضم 3000 مهاجر بباريس 1927 تنديدا بالاستعمار وأعمال القمع والقوانين الاستثنائية ضد الشعب الجزائري، حضور وفد من النجم في مؤتمر بروكسل 1927 طرحوا: القضية الجزائرية، قضية أقطار شمال إفريقيا، قضايا العالم العربي، إرسال مذكرة

حول المسألة الجزائرية إلى عصبة الأمم بجنيف، إنشاء جريدة الأمة 1930 لنشر أخبار النجم بفرنسا ليذيع صوت الجزائر للعالم. هذا ما دفع بالحكومة الفرنسية سنة 1929 إلى حل الحزب، ولكنه واصل نشاطه تحت اسم "نجم شمال إفريقيا المجيد" 1933 ثم تسميته الجديدة سنة 1934 هي "لجنة التجمع الشعبي"، وبحكم مخالفة القانون تمت متابعة الزعماء: مصالي الحاج يحكم عليه بالسجن مدة سنة نافذة وبقية الأعضاء) عمار عميش، بلقاسم راجف (سنة أشهر نافذة.

وفي 1935 خرج مصالي الحاج من السجن وأعاد تكوين الحزب باسم "الاتحاد الوطني لمسلمي شمال إفريقيا". بعد أشهر من خروجه حاولوا اعتقاله بتهمة القيام بالنشاط المضاد للعدوان الإيطالي على الحبشة، فهرب إلى سويسرا أين التقى شكيب أرسلان رائد النضال والكفاح العربي الإسلامي بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي الأوروبي بجنيف سبتمبر 1935، وتخلص مصالي الحاج من أفكاره اليسارية. وبوصول الجبهة الشعبية للحكم وقرار العفو عن السياسيين وبالتالي عاد مصالي الحاج من فرنسا ولكن حل حزب النجم قضائيا في 26/01/1973 مما دفع مصالي ورفقاؤه إلى تأسيس حزب الشعب الجزائري.

2- حزب الشعب الجزائري: (1939 - 1937) هو امتدادا لحزب نجم شمال إفريقيا بعد حله، تأسس في ناندير (nanter)

بضواحي باريس، الرئاسة: مصالي الحاج مع المناضلين 300: مناضل من حزب النجم. مصالي الحاج رئيسا في 11 مارس 1937، ونقل نشاطه إلى الجزائر في 18 جوان 1937، مطالبه نفس مطالب سابقه ومن مبادئه: منظمة أو حركة وطنية بحتة، أكثر تنظيما وأكثر انتشارا، اهتمامه أكثر اتساعا على المستوى الخارجي واتصالاته أصبحت واسعة مع الحركات المغاربية والعربية والإسلامية عامة. انشاء حكومة مستقلة عن فرنسا، انشاء برلمان جزائري احترام الشعب الجزائري احترام اللغة العربية والدين الإسلامي وقد سمي "الحركة الوطنية الثورية".

- مطالب حزب الشعب عند التأسيس: من القضايا السياسية نذكر: إلغاء قانون الأهالي، قانون الغابات وكل القوانين الاستثنائية، إعطاء الحريات الديمقراطية: حرية الصحافة وتكوين الجمعيات والعمل النقابي وحرية الاجتماعات والمساواة في أداء الخدمة العسكرية بين الفرنسيين والجزائريين، الاعتراف بالدين الإسلامي وإعادة مؤسساته وأوقافه إلى المسلمين، إلغاء المنح التي تعطى للمسيحيين الكاثوليك والبروتستانت، تحويل المجالس المالية إلى مجلس جزائري ينتخب بالاقتراع العام دون الأخذ بعين الاعتبار عنصري الدين واللغة، فصل السلطات بين السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية.

- ومن القضايا الاجتماعية والثقافية: قضايا وطنية، الدفاع عن مقومات الشعب الجزائري ومنها: تطوير التعليم بالعتين العربية والفرنسية. تطوير التعليم الاجباري باللغة العربية للسكان الأصليين وكل

المستويات، تطوير كل المستويات، تطوير كل القوانين الاجتماعية العمالية على المسلمين بالجزائر وفرنسا، ومطالب اقتصادية و إدارية): راعى فيها متطلبات المجتمع الجزائري وحقوقه المهضومة (منها: تخفيض الضرائب، نسبة الضريبة تختلف مع اختلاف الدخل، العمل على تخفيض نسبة البطالة، إعادة الأراضي المغتصبة إلى أصحابها الشرعيين وتسهيل وسائل استغلال الأراضي، منع الربا وذلك بمنح قروض منخفضة للفلاحين والتجار، تأسيس نظام جمركي يحمي المصانع والانتاجات المحلية من منافسة الانتاج الخارجي، قبول كل الجزائريين في كل مهنة من دون تمييز وتطبيق مبدأ نفس العمل نفس الراتب، إلغاء كل التعويضات التي لها صفة عنصرية أو سياسية، إلغاء الإدارة العسكرية في المناطق العسكرية، وكذلك إلغاء البلديات المختلفة.

- **شعارات حزب الشعب الجزائري:** "لا اندماج ولا انفصال ولكن تحرير"، "إن الحقوق تؤخذ ولا تعطى"، "إن إرادة الشعب من إرادة الله لا تقهر".

- **جرائده:** الأمة، الشعب، البرلمان الجزائري.

- **الزعماء في هذه المرحلة:** مصالي الحاج، حسين لحول، مفدي زكرياء، احمد مزغنة. وأما اتساع نطاق الحزب واكتسابه لقاعدة شعبية زادت معه حرث الحكومة والسلطات الاستعمارية لتأتي الفرصة قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية أصدرت قرار بحل الحزب في 26 سبتمبر

1939 ووضع الزعماء في السجون وعقوبة طويلة الأجل مع الأشغال الشاقة على مصالي الحاج.

وحزب الشعب امتاز بشعبية حقيقة حتى سمي بـ "حزب الفقراء" وبمجيء الحرب العالمية الثانية بدأ الحزب ينشط في البر مثل: الدعاية في أوساط الشعوب وتعليق المناشير والملصقات، ومن أبرز نشاطاته السياسية الوطنية: ظهور البيان الجزائري، وحركة أحباب البيان والحرية ومظاهرات 8 ماي 1945.

3- حركة انتصار الحريات الديمقراطية (1946-1947): من العوامل التي ساعدت على نشأة حركة الانتصار الحريات الديمقراطية: رفع حالة الحرب التي نجمت عن الحرب العالمية الثانية، مجازر 8 ماي 1945 التي شكلت منعطف في الحركة الوطنية في الجزائر، إطلاق سراح مصالي الحاج 8 أكتوبر 1946، عقد اجتماع الأمم بقيادة حزب لمناقشة إيطاره ووجوده القانوني والشرعي والمشاركة في الانتخابات. من جملة ما وصل إليه: تسمية جديدة لحزب الشعب هي حركة انتصار الحريات الديمقراطية مع بقاء حزب الشعب الجناح السياسي السري. هكذا كانت نشأة الحركة كغطاء قانوني وشرعي وفي اجتماع ثان طرحت فكرة المشاركة في الانتخابات من مصالي الحاج وكانت هناك معارضة.

فالجناح المؤيد لرئاسة مصالي الحاج ومبرراتهم: الانتخابات وسيلة من وسائل المقاومة السياسية، المجالس النيابية أداة لانتهاك

مطالب الشعب ونشر الفكرة لكسب العطف والتأييد من الرأي العام الفرنسي، نشر الوعي السياسي بشكل واسع على المستوى الوطني، أما الجناح المعارض الذي يمثله حسين لحول من مبرراته: المشاركة في الانتخابات تكون على حساب الإعداد للمرحلة الفاصلة، المشاركة في المجالس النيابية تجعل المنتخبين يتعودون على الحياة السياسية وطبيعتها، خسارة المناضلين الثوريين والابتعاد عن التربية الوطنية الراضية للأوضاع الاستعمارية، وانتهت بفوز المؤيدين للمشاركة في الانتخابات مما مهد لأزمة عامي 1953-1954. وتم الإعلان الرسمي عن ظهور حركة للانتصار يوم 2 نوفمبر 1946 من طرف مصالي الحاج التي هيمنت على الحركات الوطنية وانتشار في الأوساط الشعبية في المدن والأرياف بما جعلها تنجح في ترسيخ رغبة الاستقلال لدى معظم الطبقات الجزائرية، وتفزع منها جمعيات ومنظمات مثل: "الكشافة الإسلامية الجزائرية" و"جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين للشمال الإفريقي" وكذا "اللجنة الوطنية للعاطلين عن العمل". ومنه نقول أن حركة انتصار الحريات الديمقراطية قادت نحو ثورة تحريرية وطنية ربّت جيلا من المناضلين الطلائعيين لتحقيق الاستقلال الوطني.

3- صحافة التيار الاستقلالي: الصحافة التي سخرتها حركة انتصار الحركات الديمقراطية لتبليغ رسالتها للشعب الجزائري وإعلامه بكل ما يجري على الساحة الوطنية وحتى الخارجية من أحداث وكشف الممارسات اللانسانية للسلطات الاستعمارية في الجزائر، لقد لعبت صحافة حركة الانتصار دورا هاما وخطيرا وكانت سلاحا مشهرا في وجه

الإدارة الاستعمارية ومن ورائها أولئك المستفيدين من وجودها وهم المعمرون الأوروبيون ورغم الحصار والتضييق وأحيانا التوقيف والقمع إلا أن هذه الصحف والأقلام واصلت رسالتها النضالية الوطنية وغيرت بجرأة مذهلة وخارقة للعادة أحيانا بتعرضها إلى قضايا ونشرها لمقالات عنيفة في لهجتها ومحتواها وهو ما جعلها متميزة عن بقية الصحافة الموجودة آنذاك على الساحة الجزائرية والتي كانت مقالاتها غير واضحة ولا تصيب الهدف مباشرة وتستعمل كثيرا من الاتهامات والغموض في نشراتها ولذلك لم تكن تلقى صدى لدى المواطن الجزائري مثلما كان الحال بالنسبة لصحافة حركة الانتصار و التي ورثت بعض الصحف عن حزب الشعب و نجم شمال إفريقيا ك"صحيفة الأمة".

أما بالنسبة للصحافة التي ظهرت في عهد حركة الانتصار فبعضها ينشر بطريقة سرية والبعض الآخر بصفة علنية ومن الصحف السرية نذكر: "صحيفة الأمة الجزائرية"، "صوت الأحرار"، أما الصحافة العلنية فهي "صحيفة المغرب العربي"، "صحيفة المنار"، "الجزائر الحرة"، "صوت الشعب"، "صحيفة الشعب الجزائري"، "صحيفة الوطن". وبعد ظهور الأزمة داخل حركة الانتصار، احتفظ المصاليون بـصحيفة "الجزائر الحرة" كلسان ناطق باسمهم بينما أسس المركزيون صحيفة "الأمة الجزائرية"³

إن هذا النشاط الإعلامي الهائل للحركة يدل دلالة عميقة على النضال السياسي واليومي والمستمر في مواجهة سياسة استعمارية عنصرية قمعية. هذا إضافة لإصدار الحركة لعشرات المناشير والكراسات والمكتبات الداخلية لتوعية الشعب والمناضلين وتبليغ رسالتها ومواقفها لأن الإدارة الاستعمارية لم تسمح له حتى بالتعبير عن رأيه في إطار قوانينها، وكانت هذه الصحافة تتعرض يوميا للمصادرة من قبل السلطات الفرنسية⁴

إنّ "الجزائر الحرة" تعد قوانينها، بأنّها ستتابع مسيرة تلك الجرائد التي فازت بشرف الوقوع في ساحة الشرف دون فشل أو قبول دناءة.

وكانت تمثّل وحدها برنامجا متكاملا للشعب الجزائري، عبّرت عنه بكل وضوح وكانت بالفعل سلاحا وأداة لتوعية المواطن الجزائري والأخذ بيده نحو حريته واستقلاله ولذلك كان مصيرها دائما الحجز والمصادرة لأنّها مثلت بمواضيعها ومواقفها خطرا لا يقل أهمية وتأثير من وجود الحركة نفسها على مصالح الاستعمار والإقطاعية الأوروبية. ولعلّ ما يثير الانتباه هو تلك الشعارات الوطنية الهادفة والمتميزة التي حملتها صحيفة "الجزائر الحرة" خصوصا وصحافة الحركة عموما إذا كانت تعبّر حقيقة عن مبادئها ومطالبها الثابتة علانية ومنها: "دولة جزائرية

ذات سيادة" و"من الشعب إلى الشعب" الذي سيصبح الشعار الرسمي للدولة الجزائرية المستقلة.

إن صحافة حركة الانتصار كانت وطنية حملت هموم المجتمع الجزائري وواكبت مسيرته تحت نيل الاستعمار الطويل وكانت لسانه الذي به يتكلم ويعبر عن همومه وآلامه ومآسيه وكذلك آماله وطموحاته، لقد كانت هذه الصحافة حقا المواطن الجزائري، إذ يرى من خلالها نفسه وواقعه كما أن هذه الصحافة من جهة أخرى نصّبت نفسها مدافعا ضد مختلف مظاهر التعسف والقمع والقهر التي يتعرض لها المواطن الجزائري عموما والمناضلون خصوصا. ورغم ما تعرّضت له من ملاحقات ومتابعات وما تعرّض له صحفيوها ومسيروها من اضطهاد وسجن وتعذيب فقد واصلت نضالها الوطني مبينة خط الحركة ومواقفه، و"صحيفة المنار" التي كانت صحيفة شاملة لكثير من القضايا الوطنية والعربية والإسلامية والإنسانية عموما بحيث تبنت مواقف ثابتة متعلقة أساسا بفلسفة الحركة ومبادئها الراسخة والتزاماتها سواء اتجاه شعبها أو نحو القضايا التي ناضلت من أجلها على الصعيد الخارجي خاصة في كل من تونس والمغرب الأقصى حيث يلاحظ القارئ لهذه الصحفية وجود مقالات السياسة الاستعمارية في الجزائر والمتميزة بالعدوانية والظلم. كانت صحافة حركة الانتصار المرآة العاكسة لمشاكل ومتاعب ومعاناة المواطن الجزائري في مواجهة التعسف والقمع الاستعماريين المسلطين على رقاب الجزائريين، وخاصة مناضلي حركة الانتصار الذين قضوا معظم حياتهم والمعتقلات والسجون والمنفى

بسبب نضالهم المتواصل لتحقيق أمل الجزائريين في الحرية والاستقلال، والمحافظة على الكيان الجزائري والشخصية الجزائرية العربية الإسلامية المعرضة دوماً للتشويه ومحاولات متكررة للمحو والإلغاء.

الجانب التطبيقي: إيديولوجية التيار الاستعماري من خلال صحيفة المنار:

1- التعريف بصحفية المنار:

اجتمع بعض الأصدقاء المنتمين إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية لإصدار جريدة وطنية غير متحيزة، وهي نصف شهرية مؤقتاً، تصدر باللغة العربية واجهتها مكتوب عليها "المنار" وبين النون والألف منارة على رأسها اشعاع ومكتوب تحتها جريدة سياسية، ثقافية، دينية، حرة. صدر عددها الأول يوم الجمعة 21 جمادى الثانية 1370 الموافق لـ 29 مارس 1957 وعلى عين العنوان نجد آيات تحريرها وعنوانها حيث كان المدير المسؤول هو "محمود بوزوزو" المكلف بكتابة الافتتاحية في الغالب عنونها:

ALMNAR:bouzouzou mahmoude. Siege social :28 ;

rue - alger / directeur général BT3 alger bourse.

الاشتراكات خلال 25 عدد حوالي 500 فرنك، أما انصار المنار فيشتركون بـ 1000 فرنك. ويكتب ثمن العدد في أعلى الصفحة على اليسار ويقدر بـ 20 فرنك وعدد صفحاتها 4 وأحياناً 6. وقد صدر خلال 3 سنوات. السنة الأولى: 19 عدد. السنة الثانية: 20 عدد

السنة الثالثة: 12 عدد. أي بمجموع 51 عدد على مدار 3 سنوات.

2- أهداف جريدة المنار: جاء في العدد الأول في السنة الأولى سنة 1951 على لسان بزوزو المدير المسؤول للجريدة "قد سميت المنار تفاعلاً ورجاءً أن يؤتيها الله نورا من لدنه لنقشع بها الظلمات الحالة التي تخيم على أمتنا في جميع الميادين وسيرسل المنار أشعته تطارد الظلام الشامل وتثير السبل للسائرين أين كانت وجهتهم السياسة أو الدين أو الثقافة أو الحرية" فالمنار جريدة سياسية، ثقافية، دينية حرة. وعليه كانت الأهداف انطلاقاً من هذا الاقتباس على النحو التالي:

1- أهداف سياسية: يعمل المنار في سبيل حق الشعوب في تولى شؤونها بنفسها، المنار يرى أنّ الاستقلال حقّ طبيعي للأمم ويرى أنّ الاستقلال الحقيقي هو منح الأمة الحق التام في تقرير مصيرها بنفسها دون تقيّد (شرقي أو غربي أو جنوبي أو شمالي)، يرى أنّ الديمقراطية الحقّة هي تحقيق المساواة في الحقوق والواجبات بين سائر أفراد الأمة واحترام الحريات الأساسية والقيم الروحية وفتح المجال لنمو المواهب الفردية، المنار يؤكد أنّ الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي الذي هو جزء طبيعي من العالم العربي الإسلامي وبالتالي يدعو إلى التوحيد السياسية المغربية، توحيد أمتنا في الأهداف والوسائل وعليه الاهتمام بما يجري من حوادث.

2- أهداف ثقافية: يعمل المنار في سبيل إحياء التراث الفكري المغاربي واستثارة كنوز الثقافة المغاربية، ويدعو إلى عصرنه الثقافة والابتكار.

3- الأهداف الدينية: يعمل المنار في سبيل نشر التعاليم الإسلامية الخالصة وبيان الإسلام في وجهه الصحيح.

4- أهداف المنار الحرة: المنار تحترم حرية الفكر يعتبرها حقاً مقدساً لكل إنسان، فيتيح منبرا حراً للنقد والتربية، يدعو إلى تقديس المبادئ ولا اعتبار للأشخاص إلا بمبادئهم، تنوحي الانصباب أمام الهيئات الجزائرية مع الدعوة إلى توحيد الأهداف ووسائل العمل، تحث على كثرة المؤسسات القومية ليتدرب الشباب على تدبير الشؤون وتحمل المسؤوليات أمام وطن يحتاجهم أكثر من غيرهم، ويعمل المنار على تحقيق هذه الأهداف بطريقة موضوعية بفتح دراسات رأي وسط مشاكل كل ميدان بوضوح للوصول الى حلول معقولة. وقد توصلوا إلى بعض منها ووصلوا إلى حد مثل بث الوعي القومي.

3- أيديولوجية التيار الاستقلالي من خلال صحافته (صحيفة "المنار" نموذجاً):

1- موقف الحزب من الاستعمار: لقد كانت القضية الوطنية بالنسبة لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية قضية سيادة بالدرجة الأولى وليست مجرد قضية إصلاحات مهما كانت سخية، كما كانت القضية بالنسبة له على حد تعبير أحد الكتاب "قضية وطن وليست مجرد مطالب اجتماعية أو ثقافية أو سياسية". لذلك فإن الحركة كانت

تطالب بالاستقلال التام وجلاء القوات الاستعمارية عن الجزائر، إذ أن الاستعمار هو السبب في الأوضاع السيئة والأزمات التي يعيشها الشعب الجزائري، لذلك فإنه لا يعقل أن يتم علاج المرض بسبب المرض نفسه، وعبرت عن ذلك جريدة "المنار" في قولها: ..

والاستعمار من أكبر العوامل في تعسك الصفو بين الأنام، وأكبر سبب في التأخر والانحطاط في البلاد العربية شرقا وغربا في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومن منتهى الرقاعة أن بعض الدول الاستعمارية لا تتردد في أن تعيب العرب بهذا الانحطاط متناسية أنها هي المتسببة فيه... وكل من تسبب في انحطاط قسم البشر فهو عدو للبشر، عدو للمدنية، عدو للسلام⁵.

لذلك فإن الحل الوحيد للخروج من هذا الوضع المتردي هو الاستقلال، ولا حاجة لأي اصلاحات جزئية ترقيعية، كل ما تعلمه هو تثبيت الوضع وقد عبر "المنار" عن ذلك في قوله: "يذهب ال ويخلفه ال، أسطوانة متكررة في الجزائر كأنما أصبح من المعتقد لدى الدوائر الحكومية العليا أن الأزمات السياسية في المستعمرات ناشئة عن سوء تصرف الولاية، وأن علاجها ينحصر في استبدال ال بوال...والحقيقة أن منشأ هذه الأزمات ليس راجعا إلى تصرف الأشخاص وإنما هو راجح إلى النظام في ذاته... وفي الجزائر أزمة وهي لم تنشأ عن تصرف م. شاطينو ولا عن تصرف م. نجلان ولا يتوقف علاجها على م. ليونار،

فالأزمات قديمة لها عروق وأصول وهي تظهر دائما في صورة ارادتين متقابلتين، إرادة الازلال والاستغلال وإرادة الحرية والاستقلال... والعلاقة بين الأمتين قائمة على قاعدة لا يمكن أن ينتج عنها إلا سوء العواقب، إليها يرجع أصل الأزمة. وهي مستوحاة من روح الغلبة والاحتلال وفرض سيادة وإنكار الكيان الجزائري... إذ أن العلاقة قامت على عدوان مسلح عقبته حرب طويلة دافعت فيه الأمة الجزائرية عن نفسها بكل قواها، فلم يقدر لها أن تحتفظ استقلالها وسيادتها وعرفت الاحتلال والسيادة ولكنها لم تقطع الأمل في استرجاع سيادتها المفقودة... إذ لئن لم تجد الأمم المستعفة العزلاء اليوم الوسائل لتحقيق مطامحها فلا بد أن تجدها يوما ما. وويل يومئذ لمن يقف في طريقها"⁶

ويرى "المنار" أن النظام الاستعماري قائم على حجج وهي في أحقيته بالمطالبة باستمرار الأوضاع كما هي في المستعمرات، وأنه لا حق لها في تقرير مصيرها، الحق الذي يخوله القانون والمواثيق الدولية لها، حيث جاء: "أن نظاما كهذا لا يمكن أن يفرض نفسه على العقول، ولا يمكن أن يثبت أمام المنطق النزيه، فلا غرابة أن يثير استنكار العقلاء ذوي البصائر الحرة، وأن يتسبب في أزمة خطيرة هو الواقع في الجزائر. وقد حكم الضمير العالمي بوجود زوال هذا النظام الاستعماري لمنافاته لمبادئ احترام حرية الانسان... وقررت المواثيق الدولية الاعتراف

للشعوب بحقها في تقرير مصيرها بنفسها، بوجوب احترام كرامة الانسان⁷

حل الأزمة: يرى "حزب الانتصار" أن حل الأزمة هو إعادة النظر في العلاقة بين الأمتين، وذلك في حدود "حق تقرير المصير" الذي أقرته المواثيق الدولية، إذ لأن الوجود الاستعماري هو سبب كل الأزمات، وأن من حق الشعب الجزائري أن يقرر مصيره بنفسه من غير شرط ولا قيد وقد عبرت "المنار" عن ذلك في قولها: "... وهذا ما تدعوا إليه هذه الجريدة وباعتبار أهدافها الواضحة فإن فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية والتنظيم القضائي الإسلامي ونظام التربية والتعليم ورسمية اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية وما أشبه ذلك من القضايا الخاصة بالجزائر لا تعد إلا جزئيات تحل مشاكلها بحل المشكلة الرئيسة التي هي مصدر جميع المشاكل ألا وهي مراجعة العلاقة بين الأمة الفرنسية والأمة الجزائرية بتطبيق مبدأ "حق تقرير المصير" وإرجاع هذا الحق كاملا غير منقوص إلى يد الشعب الجزائري فيكون له التصرف في تنظيم شؤونه الدينية والدينية من غير تدخل يد أجنبية في أي شأن منها".⁸

- **كيفية حل الأزمة:** يرى الحزب أن الحل هو مراجعة العلاقة كما سبق ذكره لكن الاختلاف من حيث منهج مراجعة هذه العلاقة فإن

الإختلاف في التصور والهدف يؤدي إلى إختلاف المنهج وطريقة التحرير غير أن الحزب حدد موقفه بشكل حاسم ألا وهو الاستقلال وأن تقرير المصير الذي تقره المواثيق الدولية لا يكفي بل يجب العمل على تحقيق الاستقلال بجميع الوسائل وأولها وجوب توحيد الجهود والهدف وعبر المنار عن ذلك في قوله: إنها لبشرى تشرح الصدور وتنعش الأعمال... هذه البشرى هي تكوين "لجنة إنشائية لتأسيس جبهة جزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها" نستبشر بهذا العمل ونحن نعلم أنه قليل جدا بالنسبة لما نريده ولما يحتاج إليه الشعب... فإن الذي نريده هو توحيد السياسة والعمل في جبهة قومية تتمثل فيها مطامح الشعب إلى الحرية والاستقرار.. والذي وقع هو الاتحاد على محاربة المظالم واحترام الحريات الأساسية وهو خطوة عظيمة نرجو أن يتبعها توحيد البرامج السياسية في برنامج عام واحد يعبر عن آماني الشعب الجزائري القومية التي تهدف الى استرجاع سيادتها واستقلال⁹

أن العمل من أجل الاستقلال يتطلب استخدام جميع الوسائل حتى وإن كانت المشاركة في الانتخابات والتي يرى فيها الاتجاه الاستقلالي وسيلة لا غاية في ذاتها إذ عملت "المنار" على تبرير مشاركة الحزب في الانتخابات رغم المعارضة أو لما لهذه المشاركة من أثر سلبي على سمعة الحزب حيث جاء: "فإنهم لا يرون في المشاركة فيها (الانتخابات) إلا وسيلة لإبلاغ مطامحهم وإرسال صوت الجزائر إلى الخارج لأن في

البرلمان الفرنسي منصة يرجوا الجزائريون أن يجدوا فيها الحرية للتعبير عن مطالبهم والمطالبة بحقوقهم... وفائدة هذه الأعمال اطلاع الرأي العام الفرنسي والرأي العام العالمي على أحوال الجزائر وأبطال الدعايات الاستعمارية المضللة وبيان الحقيقة عسى أن يهتز الضمير الفرنسي والضمير العالمي إلى العطف على القضية القومية الجزائرية وبهذا الوجه فقط يمكن تبرير المشاركة في الانتخابات البرلمانية وحمل الشعب على التحمس لها بصفاتها سلاحا من أسلحة الكفاح القومي التحرري يجب استعماله لكن دون الاكتفاء به وحده ودون الاعتقاد بأنه الوسيلة الوحيدة للتحرير لأن العطف الخارجي لا يتحرك إلا إذا برهن الراغب فيه على الوعي القومي والنضج السياسي وذلك بتوحيد الأهداف ووسائل العمل والقيام الجدي إلى أخذ هذا الحق¹⁰.

- في سبيل الوحدة العربية الإسلامية: إن الوحدة العربية والإسلامية والتضامن والتعاون كان دائما يشكل إحدى الأهداف الرئيسية لمطالب الاتجاه الاستقلالي، بل والأكثر من ذلك أن رئيس حركة الانتصار ومنضاليها كانوا يربطون دائما بين النظام الوطني للشعب الجزائري ونضال الأشقاء العرب في كل من تونس والمغرب الأقصى وبقية البلدان العربية ووحدة القضية وقد أكدت "المنار" "أنه استنادا على الحقائق الجغرافية والتاريخية والجنسية، أن الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب (العربي الكبير) الذي هو جزء طبيعي من العالم العربي الإسلامي ولذا يجاوز

الوطنية الإقليمية إلى الوطنية العربية والإسلامية العامة ولذا يدعو إلى توحيد السياسة المغربية (المغربية) توحيدا متينا في الأهداف والوسائل". ودعت إلى توحيد السياسة والعمل في كل قطر "وإننا حين نرى ممثلي الاستعمار الفرنسي في أقطار المغرب الثلاثة يعقدون اجتماعات لتوحيد السياسة والعمل، يتبادر الى ذهننا - طبعاً - التساؤل عن رد الفعل من جانب الحركات القومية التحريرية في المغرب فنرى أن الفطرة السليمة تقتضي طبعاً بتوحيد السياسة والعمل في صفوف الحركات المغربية، ولا يتأتى ذلك طبعاً إلا بتوحيد السياسة والعمل في كل قطر"¹¹ لذلك ومن هذا المبدأ فإن "المنار" اهتمت بالسياسة المغربية والسياسة العربية والإسلامية عامة، ونشرت كل ما يتعلق بالاستعمار بالبلدان المغربية وبتطورات الأحداث في الأقطار العربية والإسلامية عامة، وخصصت صفحات كثيرة لشرح وعرض الأحداث المتعلقة بالأقطار العربية وعبرت عن هذا التوجه القومي من خلال مقالات كثيرة، ومن أمثلتها: "... لا سيما بعدما أعلن في العدد الأول من "المنار" أننا نعتبر المغرب كل لا يتجزأ ودعونا إلى توحيد السياسة والعمل في جبهة واحدة تهدف إلى غاية واحدة بوسائل متحدة"¹²

. وترجع أسباب الانتكاسات والهزائم والإخفاقات التي منيت بها الأحزاب العربية المغربية بأسرها، غير أنها جات متفاوتة في التعبير

وأسلوب التحقيق، ولو ثم لها الانسجام في ذلك لا سفرت المآسي عن نتائج تقرب الأقطار المغاربية قاطبة من أهدافها وأثمرت التضحيات المغاربية الجسيمة أطيب الثمار في القريب العاجل، فإن وحدة الإرادة لا تغني عن وحدة العمل للتعجيل بتحقيقها، ولو أن الحركات التحريرية المغاربية وحثت عملها داخل كل قطر مغاربي لتقدمت تقداً سريعاً نحو غايتها، ولو تم هذا التوحيد في الكفاح التحريري المغربي العام لكان اليوم لأقطار المغرب كلها رأس مرفوع وصوت مسموع في الميدان الدولي... ولو وجدوا (الاستعماريون أمامهم كتلة مغربية منسجمة قائمة البنيان تدافع عن قضية واحدة بلسان واحد لما استطاعوا أن يمثل حكاية الثيران الثلاثة في بلادنا¹³

- **الاهتمام بالشباب:** إن الاتجاه الاستقلالي أولى اهتمام كبيراً للشباب باعتبارهم رجال الغد، وشابات اليوم حيال المواجهة وحرب التحرير من الاستعمار ونجد هذا الاهتمام معبراً عنه في "المنار" من خلال مواضيع ومقالات عدة، وهذه عينة عن تلك المقالات: "تعتمد الأمم في بناء مجدها على سواعد أبنائها وترفع سرح عزها على كواهل رجالها ونسائها وفي طليعة العاملين الناهضين الشباب، ومن الكلمات الجارية على الألسنة مجرى الأمثال "إن الشباب هم رجال الغد" أجل أن البنين هم رجال الغد، والبنات هن نساء الغد، فالغد ينتظرهم بواجبات

ومسؤوليات، ومنها ما نتوقعه ومنها ما لا نتوقعه، فالواجب على
الأمهات والمربين ...¹⁴

(إن الشاب جندي مسخر لمصلحة بلاده لا يمكنه الانفصال عن
شعبه ولا عن الكفاح القومي العام الذي يقوم به الشعب بأسره موحدًا
لا انصداع فيه... ورسالة الشاب المغربي أن يكون في طليعة الكفاح في
سبيل تحرير بلاده من رقبة الاستعمار، وانتشالها من براثن الجهل والفقر
والاستغلال... "ولذلك كنا نرى أن الشباب في نهضة هم حملة
مشاعلها الوهاجة، ومن أفئدته جذوتها الوقادة، يغذونها بأجسامهم
الغضة وينفحون فيها بأرواحهم الطاهرة ويذكرونها بآمالهم الواسعة، فهم
الجنود البواسل لقيادة توضع في يد الكهول وهم الأسلحة الماضية للرأي
الذي يصدر عن حكمة الشيوخ"¹⁵

- **اصلاح حال المرأة:** سعى الاتجاه الاستقلالي إلى إصلاح حال
المرأة التي كانت تعاني الجهل والأمية، كما كانت تعاني وطأة
الأعراف والتقاليد الفاسدة، التي تعطي للرجال كل الحقوق وتحرم المرأة
من أبسط الحقوق، فكانت ترى في تعليم المرأة عيبًا وعارًا، وفي عمل
المرأة انحلال وتفسخًا، لذلك عمل الاتجاه الاستقلالي على إصلاح
حال المرأة، وهذا الاهتمام إنما هو ترجمة لمنطلق الأيديولوجي للاتجاه
الاستقلالي الذي يرى المرأة نصف الأمة، التي من دون هذا انصف لم

تحقق الاستقلال ولا العيش الكريم ولا الرجل الصالح. وجاء انعكاس ذلك على صفحة "المنار" من خلال مواضيع ومقالات كانت دعوة إلى الاهتمام بالمرأة وترقيتها وتخليصها من رقة التقاليد وسلطة الرجل القاسي ذلك من خلال التعليم والتربية، وهذه عينة من المواضيع: "إن المرأة تمثل نصف الأمة، ولن يتاح لأي أمة أن يكون لها مجتمع إنساني يتمتع بقدر كبير من التقدم والرقي حتى يتاح لهذا المجتمع الأمهات الصالحات القادرات على تربية النشء وتمكين المواطن الصالح القادر على النهوض بواجبه نحو نفسه ونحو المجتمع الذي يعيش فيه، ولا يتاح للأمة مثل هؤلاء الأمهات إصلاحات إلا إذا تعلمت المرأة وأصبحت من الثقافة والتربية الصحيحة ما تعرف به واجباتها وحقوقها على السواء".¹⁶

"... فقد كان سلطان العادات والتقاليد القديمة التي تحرم التعليم الفتاة، وتبيح للرجل أن يستبد بالرأي في كثير من الأمور ويسيء استعمال بعض حقوقه في الزواج والطلاق قويا راسخا عميق الجذور.. وكان يظهر سلطان هذه العادات والتقاليد سلطان آخر لم يكن أقل نفوذ وسيطرة وهو سلطان الحكم الاستعماري الأجنبي"¹⁷ وإذا كانت العقيدة السائدة في ذلك الوقت تعتبر المرأة مجرد خادم يقتصر عمله على الاهتمام بتربية الأولاد وخدمة الزوج فقط فإن المرأة المسلمة ترفض

هذه الوضعية ويجب أن يتم تعديلها فان (مهما يكن من شيء فإن المرأة المسلمة تنكر أن تبقى سجينه بيت مظلم وخادمة زوج ينكر حقها في الحياة... إن الاسلام الصحيح قد ملكها من الحقوق ما لا يقل عن حقوق الرجل وقرر لها حق التمتع بكفائها وعقلها ولم يقصر واجبها على إدارة شؤون المنزل والعناية بواجب تربية الأطفال كما يعتقد بعض قصار النظر وسذج العقل بل للمرأة الحق الكامل في الاطلاع بالمهام السياسية كأن تكون لسان حق في برلمان شعبي إذا كانت خالية من الأعمال المنزلية... إذا فلا وجه لإيثار الرجل على المرأة في هذا المضمار ما دام كل من الجنسين يحمل عقل منير و كفاءة تامة... لأن الشرط الأساسي في تحقيق آمال الأمة أن يكون القائم بها على جانب من المعرفة الصحيحة وكيفية الدفاع عن الحق المشترك المنشود) وتفرق المنار بين أصناف النساء إذ ميزت بين المرأة الفاضلة والمرأة الفاسدة وشدد على محاربة وتطهير المجتمع الإسلامي من النساء اللواتي لا همّ لهن إلا إغراء الرجال في حين أكد أنّ (المرأة المثالية التي نريد حقاً أن تكون بجانب الرجل في سائر ميادين الحياة الايجابية فهي المرأة العاملة¹⁸ التي نالت من علوم الدين والدنيا ما لم يتيسر لكثير من الرجال واتسمت بكمال الأخلاق ونبيل الصفات) ويرى المنار الذي يعبر عن أيولوجية الاتجاه الاستقلالي أنه إذا لم يتحقق إصلاح حال المرأة نحو الجيد بالاعتراف للمرأة بحقوقها المشروعة فإنه لن تتحقق مطالب الاتجاه الاستقلالي، ومن ثمّ مطالب الشعب الجزائري وهي الاستقلال والعيش

الكريم (وما دمنا نعتبر المرأة كخادمة عليه أن يقصر جهوده على مجرد الطهي والكنس والغسيل، وترقيع ما رث من الثياب، والاستسلام في كل ما كان لجبروت الرجل وقسوته الوحشية وليس لهذا الخادم الحق في شق عصا الطاعة فإننا لا نحقق ما نصبوا إليه من حياة سعيدة هادئة كم حققها غيرنا في عهدنا الجديد لانتفاعهم بعبقرية امرأتهم واستغلال كفاءتها ولم يحجوها في ظلام المنازل وبين جدران البيوت فلا يرى الضوء وتنسم الهواء كما سجنها في أظلم المنازل وأعمق البيوت اعتقادا منا ولا بأس هذا الاعتقاد أنها خادمة أو عبد مملوك وليس للبعد أن يشارك سيده في الأعمال الشريفة".¹⁹

خاتمة :

انطلاقا من الأفكار المطروحة حول الحركة الوطنية الجزائرية في عهد الثورة والإعلان الذي كان من بين الوسائل الدافعة على مقومات الأمة والوطن خاصة التيار الاستقلالي الذي يعد أبو الحركة الوطنية كما صنفه المؤرخون لتاريخ الجزائر وهو الذي انبثقت منه جبهة وجيش التحرير الوطنيين فيما بعد. جملة من المراحل في المسار النضالي لهذا التيار فالإعلام الذي ساد في تلك الفترة كان هو الآخر سلاح من أسلحة إلى جانب الحركة السياسية المؤيدة للثورة والمناهضة للاستعمار حيث قاوم من خلاله الاستعمار الفرنسي وجعله معدوم فينظر الكثير محليا وعالميا. وكصورة على الإعلام الثوري الجزائري نجد الصحافة المجسدة في العديد من الصحف الوطنية المدافعة عن حقوق الشعب الجزائري والناطقة باسمه داخل الوطن وخارجه. ومنها صحيفة "المنار" التي تمت

دراستها التي تصنف ضمن صحافة التيار الاستقلالي وبالضبط حركة انتصار الحريات الديمقراطية بزعامة "مصالي الحاج" فمن خلال هذا التحليل لمحتوى الصحيفة وجدناها مطابقة لأهداف التيار التي منها: رفضها لكل أشكال الاستعمار وحرية الشعب الجزائري والشعوب المستعمرة وتقرير مصيرها ووحدة المغرب العربي وحرية المرأة المسلمة في إطار الشرع وتربية الشباب الجزائري تربية سليمة. وهي كلها تصب في سبيل النضال السياسي من أجل نيل الاستقلال التام للجزائر. وهي على مدار ثلاث سنوات من صدورهما بمجموع 51 عدد تعد لسان حال للتيار الاستقلالي عامة وحركة انتصار الحريات الديمقراطية خاصة.

مراجع البحث وهوامشه:

- 1) يحي بوعزيز: ايدولوجية الحركة الوطنية من خلال وثائق جزائرية، الجزائر، و.م.ج، 1986، ص 4.
- 2) المؤسسون: ديدوش مراد، العربي بن مهدي، مصطفى بن بولعيد، محمد خصضر، كريم بلقاسم، محمد بوضياف.
- 3) عبد الرحمان بن ابراهيم بن عقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج3، ص: 90.
- 4) عواطف عبد الرحمن: الصحافة الوطنية في الجزائر دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية 54-62 (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص: 44-45).
- 5) المنار: محمود بوزوزو، "متى يفصل الحكم الاستعماري عن الجزائر؟"، العدد 12، ص: 03، بتاريخ: 1951/12/21.
- 6) المنار: محمود بوزوزو، "هل من جديد أيها الوالي الجديد؟"، العدد 04، ص: 01، السنة الأولى، 1951/05/21.

- 7) المرجع نفسه، ص: 02.
- 8) العدد 12، المقال السابق، ص04.
- 9) محمد بوزوزو، "بارقة أمل.. خطوة كبيرة في تحقيق الاتحاد القومي"، ص: 01، 1951/07/30.
- 10) محمود بوزوزو، "متى ينتخب البرلمان الجزائري؟"، العدد 05، ص: 02، 1951/06/15.
- 11) محمود بوزوزو، "المنار وأهدافه" العدد 01، ص 29، 1951/01/01.
- 12) محمود بوزوزو، "حول التجربة التونسية: قضية المغرب واحدة وكفاحه واحد"، العدد 13، ص 01، 1952/01/31.
- 13) محمود بوزوزو: "هل يتحقق الكفاح المغربي"، العدد 05، ص: 03، السنة الثانية: 1952/06/20.
- 14) العدد 01، ص: 02، 1951/03/29.
- 15) المنار: "رسالة الشاب المغربي، من تقرير المؤتمر الاخير لطلبة افريقيا الشمالية"، العدد 02، ص: 02، 1951/04/20.
- 16) المنار: الشباب في عصر النبوة، عن مجلة "لواء الاسلام"، العدد 13، ص: 14، 1952/01/04.
- 17) المنار: "نهضة المرأة الأندونيسية"، العدد 05، ص: 03، السنة الثانية: 1952/06/20.
- 18) المنار: الأمين عبد العزيز، "نهضة المرأة المسلمة"، ص: 03، 1954/01/01.

الطب الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية

(أداة للهيمنة و حقل للتنصير)

د/صليحة علامة/ قسم التاريخ / جامعة الجزائر(2)

الملخص باللغة العربية

إن ممارسة الطب والعلاج مهنة نبيلة ، كانت ولا زالت وسيلة لتخفيف آلام الناس ومعاناتهم والحفاظ على صحة المجتمع. إلا إن خضوعها لخدمة الأغراض السياسية خلال الفترة الاستعمارية في الجزائر(1830-1962) أفقدها الهدف الإنساني لهذه المهنة لتصبح أداة في يد الإدارة الاستعمارية استغلتها في نشر المسيحية و تسريب أفكار الحضارة الأوروبية، وبسط الهيمنة الفرنسية على المجتمع الجزائري مما جعل الطب والعلاج مظهرا من مظاهر الاستعمار.

Résumé en anglais

At all times, providing medical treatment to people was one of the most noble activity, in a manner that doctors work on curing pain and suffer of the human being, and promoting the health situation of the society.

However , the french administration, during the colonisation era (1830/1962), used the health care policy as a tool to serve the objectives of the occupation, which are essentially, the spread of christianity among the muslim people, promoting the european civilization, and setting the french hegemony all over the algérian society.

As a consequence the health care became a destructive aspect of the colonialism.

المقال

كانت مهنة الطب ولازالت وسيلة لتخفيف الألم عن الإنسان والقضاء على الضرر الذي يلحق بجسده و نفسيته ، إلا إن الحكومة الفرنسية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية أخضعت هذه المهنة لسياستها الاستعمارية وحوّلت الهدف النبيل منها لخدمة أغراضها السياسية ومصالحها الاستعمارية، حيث أصبح الطب والعلاج وسيلة لتسريب الحضارة الأوروبية وسط المجتمع الجزائري وفرض هيمنته عليه. فقد كان العمل السياسي وفرض الهيمنة الاستعمارية من أولويات الحكومة الفرنسية إذ أكد الجنرال دومال (D'Aumale) في خطاب لضباطه أن العمل الإنساني مهم ولكن الأولوية للعمل السياسي .⁽¹⁾ و على هذا الأساس تم إخضاع الطب والعلاج لخدمة أغراض فرنسا الاستعمارية. فقد كلفت الحكومة الفرنسية الأطباء العسكريين والمدنيين على حد سواء بأداء هذه المهمة للوصول إلى غايتها، معتمدة في ذلك مبدأ العلاج من اجل الاحتلال (Guérir pour conquérir). وما يؤكد ذلك هو تعاليم وزارية، وتصريحات عديدة لرجال السياسة والطب، منها ما تقدم به المترجم الفرنسي توستان دي مانوار* (Toustein Du Manoir) سنة 1841، حين قال أن اسم الطبيب مفتاح عمومي مؤكد للتوغل وسط الجزائريين . وعليه فإن ممارسة الطب في الجزائر من قبل أناس متعلمين، ولهم ضمائر حية ، غير مرتبطين بمصالح ، ستكون ربما إحدى الوسائل المؤكدة في نجاح عملية إدخال الحضارة الفرنسية في أوساطهم.⁽²⁾

كما صرح المارشال ليوتي (Lyautey) عن سياسته في مدغشقر(1897-1902) ثم في عين الصفراء (1903-1906) وعمالة وهران (1906-1910) ،

حين قال: انه ليس هناك ما هو أقوى من فعالية دور الطبيب كعامل توغل وجاذبية وسلام وسط السكان الأصليين. و في مايلي النص بلغته الأصلية حتى يكون أكثر دلالة على المعنى.

"Il n'est pas de fait plus solidement établis que l'efficacité du rôle du médecin comme agent de pénétration, d'attirance et de pacification"⁽³⁾

إضافة إلى خطاب وزير التكوين العمومي سالفاندي (Salvandy) خلال المؤتمر الطبي الذي انعقد في باريس سنة 1845⁽⁴⁾، حيث ذكر اعتماد حكومة الملك بشكل كبير على التفاني المهني للأطباء، وتأثيرهم المعنوي في نشر الحضارة وسط الجزائريين، و تأكيد الهيمنة الفرنسية في إفريقيا. و أكد ذلك خلال زيارته إلى الجزائر وإلى مستشفى الداى بالعاصمة سنة 1846، حيث وجه كلمة للأطباء العسكريين يذكرهم فيها بمهمتهم الأساسية، وهي إدخال الحضارة الفرنسية وسط القبائل الجزائرية والتأكيد على دعم الحكومة لهم في هذا المجال. و في مايلي مقتطفات من هذه الكلمة بلغتها الأصلية.

"Le gouvernement du roi compte beaucoup sur le dévouement professionnel sur l'influence morale des médecins de l'Algérie pour la civilisation des arabes pour l'affermissement de la domination française en Afrique"⁽⁵⁾

"...vous avez une autre mission aussi important a remplir c'est de concourir pour une grande part a faire pénétrer notre civilisation au milieu des tribus arabes et kabylesDe notre coté nous ferons nos efforts pour vous mettre en mesure de propager parmi les indigènes l'instruction médicale qui sera

utile a la foi a humanité et a l'établissement de notre puissance dans ce pays".⁽⁶⁾

و مع نهاية أربعينات القرن التاسع عشر قدم الطبيب أغنولي (Agnely) تقريرا عن عملية التلقيح في الجزائر ، قال فيه بصريح العبارة : "إن التأثير السياسي للطب والتأثير المعنوي للطبيب ، وسيلة للغزو ونشر الحضارة في الجزائر".⁽⁷⁾

"Influence politique de la médecine, influence morale du médecin comme instrument de conquête et de civilisation en Algérie" .

و من هنا بدأ اهتمام الحكومة الفرنسية بعلاج الجزائريين منذ القرن التاسع عشر بطريقة عنصرية وهدف استعماري ، حيث كلفت الأطباء العسكريين بمهمة الفحص وتقديم العلاج ونشر عمليات التلقيح وسط القبائل الجزائرية ، وهم مطالبون إلى جانب ذلك بمعرفة أسرار وعادات وتقاليد الجزائريين ، وتحديد نقاط ضعفهم حتى تتمكن من بسط هيمنتها عليهم . وكانت البداية بمبادرة من الطبيب الجراح جيسكارد (Giscard) الذي استعمل الطب وسيلة للتغلغل وسط القبائل الجزائرية منذ السنوات الأولى من الاحتلال ، بدأ في تقديم العلاج للجزائريين في سوق بوفاريك في جويلية 1834⁽⁸⁾ . وقد تمكن خلال هذه السنة من تكوين علاقات شخصية مع الجزائريين وسط ستة عشرة قبيلة ، مما لفت أنظار الساسة والأطباء الفرنسيين إلى أن الطبيب هو العامل الأساسي والوحيد الذي يمكنه الدخول وسط الجزائريين ، والتأثير عليهم لتثبيت قواعد الحكم الفرنسي في المنطقة ، خاصة حين ذكر أن تقديم العلاج وسط القبائل البعيدة والمعزولة، جعله يكسب ثقة الجزائريين ويتنقل في أوساطهم بكل حرية ، في أمن ودون خوف⁽⁹⁾ . وليأتي بعده الدكتور بوزان (Pouzin) طبيب الحاكم العام ، ويتبنى فكرة الفعالية

السياسة لمهنة الطب ، وطرح إشكالية تمكن الطبيب المسيحي من كسب ثقة مختلف رؤساء القبائل وخاصة العلماء والمرابطين ذوي التأثير الكبير كرجال دين ، من خلال تقديم العلاج المجاني.⁽¹⁰⁾

وقد باركت الحكومة الفرنسية هذا الرأي حين أقام في جانفي 1835 خيمة في سوق بوفاريك ، على بعد عشرون كلم من العاصمة ، يقدم فيها العلاج والأدوية للجزائريين بالمجان .

أما من الناحية الرسمية فلم يسمح للجزائريين بالمعالجة لدى الأطباء الفرنسيين و لا دخول المستشفيات، إلا بعد إنشاء المكاتب العربية سنة 1844 رمز القمع والإرهاب ، وذلك بعد استفحال ظاهرة تفشي الأوبئة ، وانتقال العدوى إلى المستوطنين . حيث أكد الحاكم العام سنة 1847 على مضاعفة عدد أفراد سلك ضباط الصحة ، مع تعيين ثلاثة أطباء، لكل عمالة طبيب لخدمة المكاتب العربية . وقرر وزير الحربية يوم 29 جوان 1847 أن "الأهالي" سوف يعالجون مجاناً من طرف ضباط الصحة العسكرية بالمكاتب العربية⁽¹¹⁾ ، و بأمرية 30 جوان 1847 الصادرة عن وزارة الحربية ، تم إنشاء مصلحة الصحة على مستوى المكاتب العربية ، مع إجبارية وضع سجل تدوّن فيه كل الملاحظات الطبية والمناخية المتعلقة بحياة الجزائريين ، يتجدد كل خمسة عشر يوماً.⁽¹²⁾

. رغم ذلك و حسب الطبيب بيرتراند (Bertherand) - رئيس المكتب العربي بعمالة الجزائر خلال الفترة 1848-1855، فان المكاتب العربية لم تؤسس أبدا مصلحة طبية منتظمة، و أن سكان القبائل ، المحرومين من كل إسعاف طبي ، كانوا يظهرون دائما النفور من المراكز الإستشفائية الفرنسية. لان مهما كانت نية الطبيب فهو داخل ضمن هذا الرمز المخيف المعروف بالمكاتب العربية.

وإمام رفض الجزائريين الالتحاق بالمؤسسات العلاجية الاستعمارية، فكر الدكتور بيرتراند سنة 1848 في إنشاء مستشفيات خاصة بـ"الأهالي"، تسير بأموال الجزائريين التي تجمع من ضريبة العشور السنوية، لتحقيق الهدف الأسمى من هذه السياسة، وهو التوغل وسط السكان الأصليين بعد كسب ثقتهم.⁽¹³⁾

و في سنة 1849 أمر الوزير الفرنسي المسؤول عن الجزائر، بـأن يتجه الأطباء الفرنسيين إلى بيوت "الأهالي" لتقديم العلاج المجاني بهدف التقرب من الجزائريين، ودمجهم في المجتمع الفرنسي.⁽¹⁴⁾ وصدر نفس القرار من الحاكم العام راندون (Randon) سنة 1852⁽¹⁵⁾. و لتوسيع عملية الاحتكاك بالجزائريين دعت الحكومة إلى تعلم لغة "الأهالي"، والزيادة في التسهيلات الطبية لهم على مستوى البلديات، بعدما لوحظ أن المستفيدين من الطب هم الأوروبيون فقط.⁽¹⁶⁾

ولتسهيل العملية والوصول الى الأسرة الجزائرية و بالضبط المرأة الجزائرية، العنصر الأساسي في الأسرة، تم استعمال الطبييات الفرنسيات اللواتي حقن ما لم يحققه الأطباء الرجال في الدخول وسط الأسرة الجزائرية. بدء تطبيق العملية منذ سنة 1895، حين كلف الحاكم العام جول كامبو (J.Cambo) الطبيبة شولبي (Chellier)، بدراسة موضوع الصحة عند المرأة الجزائرية⁽¹⁷⁾، وكيفية إيصال العلاج إليها، بإرسالها في مهمة طبية إلى منطقتي الـأوراس وبلاد القبائل، كما أرسل بعثات مشابهة إلى مناطق أخرى من البلاد. وبعد الدراسة تم توظيف نساء جزائريات قابلات إلى جانب القابلات الفرنسيات⁽¹⁸⁾. و في وثيقة أرشيفية رسمية تم التأكيد على إن الوصول الى المرأة الجزائرية يعني السيطرة والتأثير على الأطفال. لذلك تم إنشاء أماكن للعلاج خاصة بالنساء ا

لجزائريات تعمل فيها طبيبات، بدعم ومساندة من الإمبراطورة فوجيني (Fugénie)⁽¹⁹⁾.
زوجة الإمبراطور نابوليون الثالث.

و من جهة أخرى لجأت الحكومة الفرنسية في الجزائر إلى تأسيس مصلحة الطب المدني والسماح لبعض الجزائريين بالعمل فيها . حيث تم إنشاء مصلحة طب الاستعمار (médecine de colonisation) بمرسوم 21 جانفي 1853 ، الصادر عن وزير الحربية الماريشال سانت أرنو (Saint Arnaud). حيث كان من المفروض أن يتكفل طبيب الاستعمار بعلاج المستوطنين ، ويضمن في نفس الوقت مراقبة طبية للجزائريين القاطنين بعين المكان. إلا انه وجه العلاج للأوروبيين فقط، ولم يسمح لهم بعلاج الجزائريين أبدا ، حتى ضباط الصحة الجزائريين، فقد وضعوا تحت المراقبة الإدارية حتى لا يقدمون العلاج للجزائريين، مثل ما حدث مع ضابط الصحة محمد العربي الصغير ، الذي شغل منصب طبيب الاستعمار، حيث كتبت ضده شكوى - من السلطات المحلية إلى الحاكم العام- في أكتوبر 1876، حول استياء المستوطنين منه نتيجة تعامله مع الجزائريين المسلمين وإعطائهم الدواء وتعليمهم طريقة العلاج.⁽²⁰⁾ وكذلك ضابط الصحة بولوك باشي الذي كتبت ضده عدة تقارير للحاكم العام تتهمه بالغياب المتكرر عن العمل، و تهاونه في أداء واجبه المهني، وإهماله لمرضاه، بسبب زيارته للدواوير وتقديم العلاج في المناطق البعيدة وسط الجزائريين مرتين في الأسبوع وفق مرسوم مارس 1883 .⁽²¹⁾

كان الاتصال بين أطباء الاستعمار و الشعب الجزائري أمرا صعبا جدا، بحكم اللغة وعدم الثقة الموجودة بين الطرفين خاصة من الطرف الجزائري. ولتسهيل عملية الاتصال والتوغل وسط الأسرة الجزائرية وكسب ثقة السكان وتقبلهم للحضارة الغربية

والهيمنة الفرنسية تم إنشاء منصب المساعد الطبي الجزائري بمرسوم 14 سبتمبر 1904، لمساعدة أطباء الاستعمار في عيادات الأهالي ، وفي دورات العلاج الأسبوعية في القبائل الجزائرية ، عملوا تحت سلطة طبيب الاستعمار ك مترجمين ومنفذين لتعليماتهم ، يوزعون الأدوية ويقومون بتحريات واطلاع الطبيب على عادات وتقاليد المنطقة.⁽²²⁾ إن تناقضات الإدارة الاستعمارية التي انشأت هذه الهيئة لإسعاف الجزائريين، لم تسمح بتحقيق الهدف من تقديم العلاج للجزائريين بل أدت الى ظهور عدم الثقة في الطبيب الفرنسي وحتى الجزائري المتخرج من المدرسة الفرنسية.

وفي إطار دعم طبيب الاستعمار في مهامه السياسية ، أسس الحاكم العام فيوليت (Violette) أواخر سنة 1925⁽²³⁾، منصب الممرضات الزائرات الاستعماريات (Infirmières Visiteuses Coloniales) بمصلحة طب النساء و الأطفال في الدواوير، حيث كان دورهن اجتماعي بالدرجة الأولى، تمثل خاصة في الاتصال بالمرأة الجزائرية في القرى و الدواوير لإسعاف الأمهات والرضع. وقد كانت زيارة الطبيب الفرنسي للدوار ، دائما تسبقها حملة للجيش الفرنسي لتأمين المنطقة وحراسة الطاقم الطبي ، و تجهيز الشعب بطريقة مهينة ليفحصهم الطبيب. فظهوره في الدوار يكون في جو من القلق والخوف ، وسط حشد من الجنود المسلحين، مما يحدث قلقا وسط السكان ويهز استقرار المنطقة .

إن هذا الإجحاف في عملية علاج الجزائريين أدى إلى عجز الحكومة الفرنسية في تحقيق غايتها في جعل الجزائريين يثقون بالطبيب الفرنسي ، حتى يتمكن من أداء مهامه السياسية والحضارية وبسط قواعد الهيمنة الفرنسية بالجزائر . حيث بقي اغلب الجزائريين بعيدين عن العلاج الفرنسي بسبب عدم الثقة، خاصة مع استمرارية ارتباط

العلاج الفرنسي المقدم للجزائريين بالإدارة الاستعمارية، وبالكنييسة الكاثوليكية طيلة الفترة الاستعمارية.

ولسد الفراغ الذي أحدثته المؤسسات العلاجية الفرنسية وسط التجمعات السكانية الجزائرية ، أصدرت توصيات بإنشاء بعض المستشفيات في المناطق العربية ، وهي مراكز علاج خاصة بالجزائريين، حيث نصح الطبيب ريكاردو (Richardot) بأن تسند إدارة هذه المراكز إلى الأطباء الداخليين وإلى الآباء البيض مع احترام عادات وتقاليد السكان.⁽²⁴⁾ فكان ذلك حيث وضعت معظم المستشفيات في الجزائر تحت إشراف جماعة رجال الدين الكاثوليك، أما المستشفيات الخاصة بالجزائريين والمعروفة باسم مستشفيات الأهالي فقد كانت تابعة لرجال الدين كلية.

وضعت هذه المؤسسات العلاجية المخصصة للجزائريين تحت إشراف رجال الدين المسيحيين، حيث انتشرت جماعات الآباء البيض لتحقيق غرض الحكومة الفرنسية في نشر المسيحية الكاثوليكية وسط الجزائريين مقابل العلاج، وبدا البحث عن أطباء جزائريين و محاولة استغلالهم للعمل لصالحهم⁽²⁵⁾ أحيانا ، وأحيانا أخرى يضعون أمامهم عراقيل مهنية لإبعاد المرضى الجزائريين عنهم ، كما حدث مع الطبيب محمد بن مصطفى الذي وجد منافسة طبية وتحديا لسلطته من طرف رجال الدين الكاثوليك.⁽²⁶⁾

تمركزت المؤسسات العلاجية التابعة لرجال الدين بالقرب من الدواوير والتجمعات السكانية الجزائرية. و كانت قليلا ما تحتوي على طبيب دائم لان هدفها لم يكن العلاج ، وإنما نشر المسيحية. حيث استدعت لهذه المهمة سنة 1845 جماعات الأخوات البيض و وزعن على العمالات الثلاث ، منهن أخوات القديس جوزيف بعمالة الجزائر، و أخوات سان فانسون دو بول اللواتي أقمن مستوصف في بيوتهن بشارع سالوست

بمدينة الجزائر سنة 1842 ، و كنّ يسيرن مستشفيات مصطفى باشا منذ 1842 والعفرون منذ 1850 ، و سيدي غيلاس (Novi) سنة 1851 ، و الدويرة منذ 1859.⁽²⁷⁾ ومستشفى الحجوط سنة 1850. زادت الجمعيات التبشيرية انتشارا ونشاطا بعد ظروف مجاعة 1868-1869 التي استغلها الكاردينال لافيغري (Lavigerie) لنشر المسيحية الكاثوليكية في الجزائر، مقابل توفير الغذاء و المأوى للجائعين.

أضف إلى ذلك مستوصفات مخصصة للجزائريين في المحطات التابعة لمبشري إفريقيا، وهي سانت مونيك بالعطاف ، وفي مناطق بلاد الزواوة (واغن - بني بني - تاقمونت عزوز - واضية - بني اسماعيل) و ورقلة و غرداية ، و أخرى في محطات تابعة لأخوات بعثات إفريقيا في مناطق الجمعة نسريج - تاقمونت عزوز - واضية - بني اسماعيل . نلاحظ أن انتشار هذه المستوصفات كانت في نفس المناطق للاعتناء بالرجال والنساء معا. حيث كانوا يقومون بزيارة المرضى في المداشر ويقدمون العلاج⁽²⁸⁾ وهذا على مستوى الأرياف و القرى.

وأمام بروز الدور الايجابي لهذه الجمعيات لصالح الحكومة الفرنسية والمسيحية الكاثوليكية، وقع عقد مع جماعة الآباء البيض لمؤسسة بعثات إفريقيا (les pères des Missions d'Afrique) ، حيث كلف الحاكم العام جول كامبو أعضاء هذه الجمعية - بعد مبادرة الكاردينال لافيغري بتأسيس مستشفى للأهالي "سان سيبريان" بالعطاف سنة 1874 - ، بإنشاء و إدارة وتسيير مستشفيات الأهالي، التي أقيمت في ما بعد في كل من سانت اوجيني بعين الحمام ببلاد الزواوة ، و سانت أوغسطين بأريس بمنطقة الاوراس ، و مستشفى لافيغري في بسكرة، و سانت ماري مادلان بغرداية ، وسان أندري في الأبيض سيدي الشيخ و غيرها، نذكر منها مايلي:

كان أول مستشفى لرجال الدين في عمالة الجزائر مستشفى سانت اليزابيث (Sainte-Élisabeth) ، تأسس بالقرب من مقر سان سيبريان بالعطاف (Sait-Cyprien-des-attafs) بسهل شلف سنة 1874 ، تحت إشراف الكاردينال لافيغري⁽²⁹⁾ أسقف الجزائر ، وبرعاية الجنرال وولف (Wolf) ، الذي قال أنها الوسيلة الوحيدة لكسب قلوب الجزائريين . وقد كان هذا المستشفى نموذجاً ، بنيت عليه باقي مستشفيات الأهالي ، ولجلب الجزائريين كتب على باب مدخل المستشفى كلمة "بيت الله " باللغة العربية.⁽³⁰⁾ كانت تسيره 12 من الأخوات البيض، إحداهن مديرة المستشفى وأخرى متكلفة بالمرضى والصيدلية ، تعمل تحت سلطتها عدة راهبات ممرضات ذوات شهادات. فتح المستشفى يوم 5 فيفري 1876 ، وكان يستقبل جزائريين من ثنية الحد و قسنطينة و وهران و بلاد القبائل الخ.⁽³¹⁾

أما مستشفى سانت أوجيني (Sainte- Eugénie) ، تأسس بأمر من الحاكم العام جول كامبو سنة 1893⁽³²⁾ ببلاد القبائل بالقرب من قرية واغزن بعين الحمام في قبيلة بني منقلات، بلدية كاملة الصلاحيات جرجرة. ، وافتتحت أبوابه لاستقبال المرضى يوم 12 افريل 1894 ، كانت تسيره 12 من الأخوات البيض، أنشئ بجواره منزل تسكنه القابلات الفرنسيات المكلفات بتعليم القابلات الجزائريات طب التوليد.⁽³³⁾ كان يقصده المرضى من جرجرة و لربعة ناث إيراثن و ذراع الميزان و صورالغزلان والمسيلة.

طبقت جماعة الآباء و الأخوات البيض (Les Missionnaires d'Afrique) سياسة التنصير في المستشفيات التي أنشأوها واشرفوا عليها ، وذلك بدعوة المرضى لاعتناق المسيحية الكاثوليكية مقابل الغذاء (على منوال طريقة لافيغري في التنصير)، ولا أدل على ذلك مما حدث في مستشفى سانت أوجيني ببلاد القبائل ، حيث كانت عملية الاعتناء بالمرضى وغذائهم ، مشروطة بعملية التحلي عن الإسلام

واعتناق المسيحية الكاثوليكية، وقد طرحت هذه القضية (مساومة المرضى الجزائريين على دينهم مقابل الغذاء) بعد عدة شكاوى رفعها طبيب المستشفى إلى مستشار الحكومة العامة في الجزائر ، يومي 28 ماي و 3 جوان 1903، يشتكي فيها الأخوات البيض ومعاملتهم السيئة للمرضى الجزائريين ، وفي ما يلي مقتطفات من تلك الرسالة:

"...Les malades en général maltraités, reçoivent une nourriture insuffisante et mauvaise, à l'exception de ceux qui témoignent de leur intention de se convertir à la religion catholique, auxquels un régime de faveur est réservé..."⁽³⁴⁾

كان عدد المرضى الجزائريين في هذا المستشفى في انخفاض مستمر، و السبب يعود حسب طبيب المستشفى إلى عدم الاعتناء بالمرضى، و التغذية السيئة وسياسة التمييز العنصري التي كانت تطبق على المرضى الجزائريين بين من ابدوا الرغبة في اعتناق المسيحية الكاثوليكية و من ثبتوا على دينهم الإسلام. لذلك فمحاولات التنصير المتكررة للمرضى هي التي نفرت سكان بلاد القبائل من الالتحاق بالمستشفى ، هذا ما أكده تقرير طبيب مستشفى سانت أوجيني ببني منقلا حول نقص عدد المرضى بسبب سياسة الأخوات البيض في تنصير المرضى. و في ما يلي مقتطفات من نص الوثيقة بلغتها الأصلية حتى تكون أكثر دلالة على المعنى:

"Cet état de choses éloignant de l'hôpital de Beni Menguellet les malades musulmans"⁽³⁵⁾

واستمر العدد في الانخفاض ، بسبب نفور الجزائريين من هذه المستشفيات نتيجة عملية التنصير مقابل حياة كريمة في المستشفى (الغذاء). وأمام هذا الوضع السيئ للمرضى

رفعت لجنة مكوّنة من سكان المنطقة شكوى تدعو فيها الإدارة الفرنسية إلى العمل على لائكيه مستشفى سانت اوجيني.⁽³⁶⁾

وتزامنا مع مستشفيات الأهالي تأسست عدة دور للأخوات البيض، لزيارة المرضى في البيوت وتقديم العلاج المجاني ، حيث كان انتشارها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الفترة مابين 1850-1895 ، حسب ما وردت في جدول أعمال و مؤسسات عمالة الجزائر ، التي نشرت تحت إشراف المكتب المركزي للأعمال الخيرية ، المعترف بفوائدها العمومة بمرسوم 3 جوان 1896 وهي كالتالي :

*أخوات النجدة الحميدة لترويس (Les Sœurs Du Bon-Secours De Troyes) : دارا واحدة في مدينة الجزائر.

* بنات الخير دو سان فانسون دو بول (Les Filles De La Charité De Saint-Vincent De Paul) : 21 دارا منتشرة في اغلب دوائر عمالة الجزائر .

* أخوات المذهب المسيحي (Les sœurs de la doctrine Chrétienne) : 15 دارا منتشرة في اغلب دوائر عمالة الجزائر .

* أخوات سيدتنا دو لا ميرسي (Les Sœurs De Notre Dame De La Merci) : دارا واحدة بسان اوجين بالعاصمة.

* أخوات سان جوزيف (دي فانس) (Les Saint-Joseph (Des Vans) Sœurs) : 7 ديار

* أخوات سان جوزيف (دو سان جون دو موريان) (Les Sœurs saint-joseph)

(de Saint-Jean les De Maurienne) : 5 ديار .

* أخوات البعثات الإفريقية (Les Sœurs Des Missions d'Afrique):7: ديار مخصصة للقبائل والعرب ركزت جهودها على منطقة القبائل و غرداية و العطاف. (37)

إن الثورة العلمية التي قام بها الفرنسيون في مجال الطب والعلاج على أرض الجزائر، لم يستفد منها أبناء البلاد، نتيجة انتهاج الحكومة الفرنسية لسياسة التمييز العنصري واستعمال مهنة الطب لأغراض استعمارية أفقدتها الهدف الإنساني والنبيل لهذه المهنة ، حيث ارتبط فيها الطب الفرنسي بالسياسة والدين مما جعله مظهرا من مظاهر الاستعمار، فالطبيب الفرنسي نادرا ما لا يكون سياسي أو عسكري أو رجل دين. الأمر الذي جعل الجزائريون يرفضون زيارة الطبيب "الرومي" لأنه من مظاهر الاستعمار مثله مثل الجيش الفرنسي الذي اضطهد السكان وبطش بهم .

فرغم كل الجهود التي بذلتها فرنسا، و رغم عقيدة الشعب الجزائري في الطب والعلاج ، واحترام هذه المهنة النبيلة ، فقد كان من الصعب عليه الفصل بين الطب ومظاهر الاستعمار الأخرى. ففكرة العداة والخوف كانت هي المسيطرة ، نتيجة لارتباط الطب والعلاج بالسلطة الإدارية التي جعلت من العلاج وسيلة لتسريب أفكار الحضارة الغربية وبسط الهيمنة على المجتمع الجزائري و الكنيسة الكاثوليكية التي جعلت منه هي الأخرى وسيلة للتنصير، فقد ربط الجزائريون بين عناصر ثلاثة ، الاستعمار والدين والطب، فلم يكن من السهل عليهم الفصل بين الطب وغيره من مظاهر الاستعمار.

الاحالات

(¹)-A.O.A.IEE10.345 (Rapport), in Yvonne TURIN, **Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, écoles médecines, religion, 1830-1880**, Alger ,éd. Houma , 2003, p. 150

(²)-CH.DE TOUSTAIN DU MANOIR, "**Journal de mon voyage d'Alger au Ghréris près Mascara juin 1841**", publié par Marcel EMERIT, in R.A., T.XCIX, Vol.99, n°442-443, Alger, la société historique algérienne, institut de géographie, 1955, p.141

(³) -Jacques DEVAUTOUR, " LYAUTEY Maréchal de France et le service de sante", asnom, n°128, 94^e année, déc. 2014, p.64

(⁴)- Yvonne TURIN , op.cit., p.19

(⁵) - E.L. BERTHERAND, **Médecine et hygiène des arabes**, Paris , Germer Baillière librairie éditeur, 1855 ,p.151

(⁶) - E.TURIN, op.cit., p.97

(⁷) - Ibid ., p p. 306-307

(⁸) - E.L BERTHERAND, op.cit , p. 555

(⁹) - E.TURIN, op.cit., p.81

(¹⁰) -Ibid., p.83

(¹¹) – E.L. BERTHERAND, op.cit, p.556

(¹²) – E.TURIN, op.cit., p..97

(¹³) – E.L. BERTHERAND, op.cit ,p. 558

(¹⁴) – أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، 1954–1830، بيروت، دار الغرب الاسلامي،
1998، ج7، ص 229

(¹⁵) – نفسه، ص 230

(¹⁶) – نفسه، ص 235

(¹⁷) – Hélène. ABADIE FEYGUINE, , **De l'assistance médicale des femmes indigènes en Algérie**, Montpellier, 1905 , p.20

(¹⁸) – H.SOULIE, **Hygiène et assistance en Algérie** ,rédacteur principal Ed.Bruch ,Alger Mustapha ,Giralt ,1900, p. 150

(¹⁹) –H. ABADIE FEYGUINE, op.cit, p. 20.

(²⁰) – William GALLOIS, "Local Responses to French Medical Imperialism in Late Nineteenth–Century Algeria", Social History Of Medicine , www.academia.edu, publication, 2006.

(²¹) –Annual Personnel Report ,1886, CAOM ,ALG 113 bis, file 1u/28, in W. GALLOIS,op.cit

(²²) – Robert LEJEUNE, "Médecins de bled,"in L'Algérieniste, trimestriel, n°11 ,7^{eme} année, 15sept.1980, p.14

(²³)- G.G.A, **L'assistance et l'hygiène publiques en Algérie**, Alger, ancienne maison Bastide-Jourdan, Jules Carbonel ,1927, p.41

(²⁴)- سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج 7 ، ص 235

(²⁵)- C.A.O.M ALG GGA 1U/1 in HANNAH –LOUISE CLARCK , "Soigner au bled= cadres et éducateurs en médecine en Algérie pendant l'époque coloniale", Princeton university ,in www.andsdz.coloque;docs

(²⁶)-Ibidem

(²⁷)- O.C.O.B, **La France charitable et prévoyance tableau des œuvres et institutions du département d'Alger**, imp. éd. E. Plon Nourrit et Cie, paris, 1896., p p. 14- 17

(²⁸) - Ibid, p. 17

(²⁹) - H. ABADIE FEYGUINE, op.cit, p . 15

(³⁰) - L .RAYNAUD et H . SOULIÉ , et P . PICARD , **Hygiène et pathologie nord africaines, assistance médicale**, in C.C.A. 1830 - 1930, Paris VI, Masson et C^{ie} éditeurs, MCM XXXII. Tome 2, p. 514

(³¹) - G.G.A, op.cit , p. 133

(³²)-L .RAYNAUD et H . SOULIÉ , et P . PICARD, op.cit., p.516

(³³) -G.G.A, op.cit , p 133

(³⁴) - A.W.A ،Boite 1V229, R glementation des h pitaux (1903-1961).regroupement des h pitaux. Fonctionnement de l'h pital Beni Menguelette,06/08/ 1903.

(³⁵)-Ibidem

(³⁶) - Ibidem

(³⁷)-O.C.O.B, op.cit.,p.17

الوساطة الإعلامية وإشكالية المعالجة الصحفية لموضوع الثورة التحريرية

قراءة في دور الوسيط في المحافظة على الدلالات والمعاني الرمزية

د/ العربي بوعمامة / جامعة مستغانم

أ/ عطاله غوثي / جامعة مستغانم

ملخص

تعالج هذه الدراسة إشكالية المعالجة الصحفية لموضوع الثورة التحريرية من خلال الوسائط الإعلامية، حيث تركز الدراسة على دور الوسيط في المحافظة على الدلالات والمعاني الرمزية الموحدة للثورة التحريرية.

وتسعى الدراسة إلى تحليل الخطاب الإعلامي الخاص بالثورة التحريرية كواحد من الثوابت الوطنية، وإلى توضيح أهمية المعالجة الأخلاقية للمعلومة الصحفية ومنها تلك الخاصة بتاريخ الجزائر والثورة التحريرية، وهو ما يساهم في حل النزاعات المتعلقة بهذه المعالجة الصحفية.

الكلمات المفتاحية: المعالجة الصحفية، الثورة التحريرية، الوسيط، الدلالات،

المعاني الرمزية

Résumé

Cette étude examine le problème du traitement médiatique de la question de la révolution de la libération à travers les médias et s'intéresse au rôle du médiateur dans la

préservation des significations symboliques et unifiées de la révolution de libération.

L'étude analyse le discours médiatique de la révolution de libération comme l'une des constantes nationales et montre l'importance du traitement éthique de l'information de presse, notamment sur l'histoire de l'Algérie et la révolution de libération qui contribue à résoudre les problèmes qui y sont liés.

Mots-clés: traitement médiatique, la révolution de libération, intermédiaire, sémantique, significations symboliques.

مقدمة:

تعتبر ثوابت الأمة واحدا من المواضيع التي تشكل توافقا من حيث المعالجة الإعلامية من قبل الصحافة الوطنية على المستوى المحلي حيث تشكل عناصر الدين ورموز الدولة والسيادة والتاريخ والذاكرة الوطنية والجغرافيا والثقافة ما يعرف بالثوابت الوطنية، وهنا تكون الوظيفة الإعلامية المتعلقة بنقل التراث الاجتماعي تتجسد من خلال المحافظة على الصورة الذهنية التي يحملها الجمهور عن هذه الثوابت من خلال التوافق في الخطاب من جهة والتصدي من جهة أخرى للخطابات التي تحاول التشكيك

في الهوية أو التاريخ من خلال نقد غير مؤسس للعناصر سالفة الذكر أو محاولة تشويه المعاني والدلالات التي يحملها المجتمع عنها عبر التفاعل مع الأحداث أو التفاعل مع رمزياتها الإعلامية.

إن التحليل السابق ينطبق على الثورة التحريرية الجزائرية إذ إن الملاحظ لنمط تفاعل المجتمع الجزائري مع الخطابات المشوهة أو المنتقده أو التي تناولت بشكل غير لائق ثورة نوفمبر أو شهداء حرب التحرير إعلاميا، يدرك أن قيم المجتمع الجزائري مستمدة من قيم الثورة التحريرية وجبهة التحرير الوطني وبيان أول نوفمبر وغيرها من الرموز التي التف حولها الشعب إبان حرب التحرير ما يبرز عملية التواصل ونقل القيم التي ساهم فيها الإعلام الثوري زمن الثورة وتحاول الصحافة الوطنية بوسائطها المختلفة المحافظة عليها اليوم.

إن الصحافة الجزائرية اليوم على غرار الصحافة عبر العالم تعرف بطابعها المتعدد الذي يقترح على المجتمع مضامين مختلفة تتباين حسب السياسات التحريرية لكل وسيلة إعلامية من هنا تبرز إشكالية في علاقة التضاد بين التعدد والاختلاف وحرية الرأي وبين التوافق في الخطاب بالنسبة لموضوع ثورة التحرير كواحد من الثوابت الوطنية بالإضافة إلى إشكالية المصادقية والتي تعد محورية عند الحديث عن نقل الحقائق الإعلامية عن مثل هكذا موضوع، وبما أن المجتمع يعد عنصرا أساسيا في المحافظة على الذاكرة الوطنية إلى جانب الإعلام فقد قادنا تفكيرنا نحو الانتباه إلى وظيفة الوساطة الصحفية التي تقوم على تقريب وجهة النظر بين الجمهور والصحفيين والمؤسسات الإعلامية من خلال تفاعل يعيد النظر في الرسالة الإعلامية في ضوء التوافق بين المرسل

والمتلقي في إطار احترام المبادئ الأخلاقية للمهنة الصحفية، وسنستخدم إلى جانب هذا المفهوم بعضاً من المفاهيم التي نعتقد أنها تساهم في فهم الظاهرة الإعلامية في الجزائر بشكل يخدم التحليل الخاص بعلاقة القيم ومعانيها بالسلوك الإعلامي، ويتعلق الأمر بمفاهيم المخيال الإعلامي، المكان الرمزي والتي تعود كلها لإسهامات الدكتور عبد الرحمن عزي ونظريته الحتمية القيمة في الإعلام.

إذا كيف تساهم الوساطة الإعلامية في المحافظة على توافق الخطاب الإعلامي الخاص بالثورة

التحريرية كواحد من الثوابت الوطنية؟

1-المكان الرمزي:

قصد بالمكان الرمزي المكان الذي تؤسسه وسائل الإعلام في المخيال

الاجتماعي من خلال الصورة المصنعة والإعلان والمضامين المرئية والمسموعة الأخرى¹، حيث تدخل وسائل الإعلام والاتصال كالتلفزيون والسينما والمجلات والصحف والانترنت في تكوين أنماط من الصور المكانية التي تكون خارج دائرة الواقع المعاش للفرد فتدخل عليه مكاناً رمزياً متباعداً ومألوفاً مع تزايد الارتباط بهذه الوسائل.

وتؤدي كثرة استخدام وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون والانترنت إلى نوع من "الاغتراب" عن المكان المعاش والتعلق بالمكان المؤلف الجديد الذي تعرضه هذه الوسائل في صور الأفلام والمسلسلات والإعلانات عامة وبمعنى آخر يصبح المكان

الرمزي الجديد هو المكان الحقيقي فيبدو متشابهاً تغيب فيه الخصوصية المكانية وذلك جزء من العولمة المكانية فالمكان ليس حيزاً فيزيقياً فحسب بل فضاء يمس شتى مجالات الحياة كالقيم "المكانية" نوع العلاقات الاجتماعية وشكل العمران وغيرها فهناك تداخل كبير بين المكان والجوانب القيمة والثقافية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية والعمرانية في المجتمع عامة².

ويساعد هذا المفهوم في تحليل علاقة الفرد الجزائري بالمكان الذي كان مسرحاً لثورة التحرير حيث أن جبال الأوراس، واد الصومام، الشمال القسنطيني وما شهدته من أحداث في 20 أوت 1955 تستبدل على المستوى الرمزي كنماذج بأماكن أخرى تمثل مكاناً للعيش الرغيد وهو ما تسوق له وسائل الإعلام عن قصد من خلال عدم الاهتمام بنشر مضامين إعلامية تتعلق بالذاكرة الوطنية أو عن غير قصد من خلال بث مضامين ثقافية على شالكة الأفلام التي قد تسوق لصور جذابة قد تتعلق في أسوء الحالات بالمستعمر مع تجنب الحديث عن ماضيه وتاريخه في جانبه السلبي كمحتل، ما يساهم في بناء صورة ذهنية حاضرة لمكان رمزي (فرنسا في هذه الحالة) تتنافى مع الصورة التاريخية للمكان الأصلي (الجزائر) وهو ما يسهم في إضعاف الإحساس بالانتماء إلى المكان وبالتالي يؤسس للتناقض بين الصورة التاريخية للثورة التحريرية والصورة التاريخية للمستعمر، الأخيرة التي تختلف عن الصورة المسوقة إعلامياً والتي تعبر في أحسن الأحوال عن واقعه الحاضر المختلف تماماً عن تاريخه كمستعمر للجزائر.

ورغم عدم وجود رأي عام يتقبل فكرة المستعمر أو عودته مثلاً، إلا أن التسويق للمكان الرمزي يؤثر على عدد من المتلقين الذين قد يتعدون تدريجياً عن القيم التي تربطهم بالجزائر كمكان وبثورة التحرير كرمز ويصبح من السهل عليهم استبدالها بدلالات أخرى تسوقها وسائل إعلام عالمية أو حتى محلية في بعض الأحيان، يحدث هذا مثلاً حينما تنقل محتويات محلية عن وكالات الأنباء عالمية دون الانتباه إلى السياسات التحريرية وهو ما قد يبرره الإهمال من جهة أو الثقة المفرطة في مصداقية هذه الوسائط المرجعية من جهة أخرى، فنجد أن لذلك انعكاسات في سلوك الفرد الجزائري تظهر في عدد من المؤشرات ومنها على سبيل المثال ظاهرة "الهجرة غير الشرعية" إلى أماكن مختلفة تكون فيها الوجهة في كثير من الأحيان إلى من كان يحتل الجزائر بالأمس، كما قد نلمس ذلك في عبارات يومية لدى بعض الشباب والمراهقين مثل "هذا ليس بلداً - وهو يقصد الجزائر- " أو "لو أن فرنسا بقيت لكنا أحسن حالاً"

وكما قلنا فإن هذه المواقف وإن كانت لا تمثل رأياً عاماً ظاهراً فهي تجسد جزء مما يسميه الدكتور عبد الرحمن عزي بالمخيال الإعلامي والذي قد يساهم إما في المحافظة على الواقع أو تغييره وبالنسبة لموضوعنا فإن هذا المفهوم الأخير يحدد علاقة المجتمع الجزائري بقيم ثورة التحرير ابتعاداً واقتراباً في ضوء التأثير الإعلامي سلبياً أو إيجاباً.

2- المخيال الإعلامي:

هو حالة من المشاعر النفسية الاجتماعية التي تتكون بفعل ما يتعرض له الجمهور. (عندنا وفي المجتمعات التي تتشابه ثقافيا واجتماعيا) من محتويات وسائل الاتصال من جهة وبفعل ما يحمله هذا الجمهور من مخزون تراثي وأسطوري تتداخل فيه الذاكرة التاريخية بصورة مشوهة بفعل عصور الانحطاط والظاهرة الاستعمارية مع محاولة وسائل الاتصال في المجتمعات التي ننتمي إليها القفز فوق التاريخ وعليه فان تعبير "المخيال" يعكس نمطا من التصور الذي هو في طور التكوين ومن ثم لا يمكن تحديد طبيعته ومراحل تطوره بسهولة كما أن المخيال الإعلامي لا يرتبط بنسق إيديولوجي كالإيديولوجيا التي تقوم على تبرير الواقع بل هو نسيج من القيم الأسطورية الراسخة في شعور الإنسان ولا شعوره، والقيم المصنعة الواردة عبر وسائل الاتصال. ولم يتحدد بعد شكل توجه هذا المخيال، سواء اتجه المحافظة على الواقع أو تغييره أو في أي اتجاه.³

إذا فالمخيل الإعلامي الجزائري إذا صح التعبير يتجسد انطلاقا من تفاعل الفرد الجزائري مع مجتمعه من خلال التفاعل اليومي مع أفراد المجتمع ومع وسائل الإعلام المحلية والعالمية، ومختلف الرسائل التي يتلقاها أثناء هذا التفاعل تساهم في بناء هذا المخيال حيث نجد أن عبارة "حالة المشاعر النفسية والاجتماعية" تعبر عن حالة الفرد في سياق المجتمع والتوقعات التي يحملها الفرد عن تفاعل المجتمع مع الواقع المعيش/ والمتخيل، المكان الأصلي/ والرمزي، القيم الأصلية/ والقيم الوافدة، وتكون الثورة التحريرية في هذه الحالة عنصرا ضمن النقطة الأولى من كل الثنائيات السابقة إذ تمثل الأصل والواقع. واعتبار أن المخيال الإعلامي لم يتحدد اتجاهه بعد يعني أن علاقة الفرد

والمجتمع بقيم الثورة التحريرية الجزائرية تتناسب ومدى التفاعل الاجتماعي والإعلامي مع مراعاة نوع الرسائل المبتة والتي تشكل إما داعما لهذه العلاقة وإما العكس.

3-الوساطة الإعلامية:

ونتحدث في هذا المفهوم عن دور الوسيط الصحفي أو ما يعرف أيضا بالأمبودسمان والذي يتولى " مهمة الإجابة على شكاوى الجمهور ويضمن وصولها ومصداقية معالجتها للوصول إلى تسوية ودية للنزاعات، ويقوم بتقييم عمل الصحفيين وتحسيسهم بشأن المسائل الأخلاقية والقانونية"⁴ وتحيل الباحثة FERREIRA MAIA في أطروحتها للدكتوراه إلى التعريف الذي قدمته منظمة وسطاء الأخبار ONO* والذي جاء فيه أن الوسيط هو الشخص الذي "يستقبل ويحقق في شكاوى قراء الصحف، ومستمعي الإذاعات، ومشاهدي القنوات التلفزيونية المتعلقة بالدقة، عدم الانحياز، التوازن، والذوق في التغطية الإعلامية، وهو يوصي بإجراءات أو يقوم بإعداد إجابات تتوافق مع التصحيح أو التوضيح المتعلق بالبرورتاجات"⁵

من خلال التعريفات السابقة نستشف أن الوسيط يعمل على إعادة التوازن بين الطرح الاجتماعي والطرح الإعلامي، وبما أن المجال الاجتماعي في الجزائر يمثل حاضنا للذاكرة الوطنية ودلالاتها فإن الخطاب الإعلامي الذي يتناول الثورة التحريرية لا بد يأخذ بعين الاعتبار الآراء المختلفة التي يقدمها المجتمع عن الحقيقة التاريخية الخاصة بهذه المرحلة. ويتعامل الوسيط في هذه الحالة مع العديد من الرسائل التي ترده من الجمهور المتابع لوسيلته الإعلامية وقد تختلف مكانتهم ومعرفتهم بالموضوع، فنجد ضمن

الانتقادات التي تقدم إلى المؤسسة حول المواضيع المتعلقة بثورة التحرير والمجاهدين والشهداء، تحليلات لدارسين لتاريخ ثورة التحرير أو شهادات لمجاهدين عاشوا المرحلة، وقد يجد الوسيط نفسه أمام وثائق ومذكرات تصحح خبراً غير صحيح أو رأياً غير مؤسس تكون قد بثته وسيلته الإعلامية، وهو قبل أن يلجأ إلى تصحيح الخطأ يقوم بعملية التحقيق في الوثائق والمعلومات التي ترده من الجمهور ليصل إلى الحقيقة الدقيقة ويعيد نشرها إعلامياً.

ونلاحظ هنا العلاقة بين عمل الصحفي والمؤرخ الذي يعود في كل مرة إلى المعلومة بالتنقيح في ضوء المستجدات والوثائق المحصلة حيث أن "التاريخ ليس إلا صحيفة جامعة"⁶ على حد تعبير الدكتور زهير إحدادن الذي يضيف أن "التاريخ والصحافة يؤديان مهمة واحدة وهي نقل الخبر مع جميع الشروط التي تتعلق بهذه العملية، فالصحافة هي مرآة للحياة في المجتمع بجميع أنشطته وهي سجل للوقائع يوماً بعد يوم أو أسبوعاً بعد أسبوع أو غير ذلك"⁷ ورغم أن التحليل الذي يقدمه الدكتور زهير إحدادن يتعلق بأوجه التشابه بين عمل الصحفي بشكل عام والمؤرخ إلا أنه يبرز جلياً بأن وظيفة الوسيط من خلال الرقابة البعدية على المحتوى الإعلامي المبتث والمنشور تمثل ذروة التشابه بين المهنتين من خلال النقد الذاتي المستمر وإعادة النظر في المحتوى التاريخي والإعلامي.

4- دور الوسيط الصحفي في المعالجة الإعلامية لموضوع الثورة التحريرية:

رغم أن المؤسسات الصحفية في الجزائر لم تعرف تجسيدا لمنصب الوسيط كمهنة إلا في استثناءات نادرة مثل صحيفة El watan وبطريقة كانت بعيدة عن تحقيق أهداف الوساطة كما حددناها سالفا*.* فإننا نعرض بعض النقاط التي يمكن من خلالها فهم كيف يمكن لهذه الوظيفة أن تسهم في المحافظة على قيم الذاكرة الوطنية وثورة التحرير.

أولا: الوساطة الصحفية تتميز بأنها تشكل آلية للضبط الذاتي للمجموعة المهنية، أداة للتقريب بين الصحفيين والقراء، هيئة تعمل على الرفع من مسؤولية الصحفيين⁸

فبالرغم من أننا نجد أن قانون الإعلام 05/12 يحدد حرية ممارسة نشاط الإعلام في ظل احترام معايير محددة يذكر منها في مادته الثانية الهوية الوطنية والقيم الثقافية للمجتمع⁹ بالإضافة إلى المادة 92 التي تنص صراحة على: الامتناع عن المساس بالتاريخ الوطني، الامتناع عن تمجيد الاستعمار¹⁰ إلا أنه من المعروف أن القاعدة القانونية ملزمة وهي تدخل في إطار ما يعرف إعلاميا بالضبط الخارجي¹¹ إذ لا تكون المسؤولية هنا نابعة من داخل الصحفي وإنما تشكل نوعا من الإكراه والضغط، وبالنسبة لدور الوسيط فهو يقوم من خلال الحوار مع الصحفي بإعادة الارتباط بينه - أي الصحفي - وبين قيم الثورة التحريرية ويقربه منها من خلال الحوار والنقاش الأخلاقي الذي يكون حول الحياد والموضوعية والمصداقية والوظائف المتعلقة بلم الشمل وغيرها.

وبالتالي يصبح الصحفي يشعر داخليا بالمسؤولية الملقاة على عاتقه فيما يتعلق بالحرص على الدقة والموضوعية ومراعاة الشعور المجتمعي عند تناول الأحداث التاريخية

المتعلقة بثورة التحرير الجزائرية، وهو ما يساهم تعزيز علاقة الصحفي المرسل والجمهور المتلقي على حد سواء بالمكان الأصلي ويوجه المخيال الإعلامي الجزائري نحو الاستمرار في تمجيد قيم الثورة التحريرية ورموزها. وهنا فإن عملية الضبط الذاتي تشكل داعما للقاعدة القانونية الملزمة من خلال الحوار والنقاش بدلا من الاعتماد فقط على الإكراه الذي قد يؤدي في بعض الأحيان إلى سلوكات صحفية غير مسؤولة تكون انعكاساتها سلبية على الصورة الذهنية لتاريخ الجزائر عموما أو ثورة التحرير على وجه الخصوص.

ثانيا: الدقة في اللغة الإعلامية:

إن الوسيط يتحرى أن يكون الصحفي دقيقا على مستوى المصطلحات والمفاهيم التي يختارها ويتجسد ذلك في الاستجابة لمطالب الجمهور أو المختصين في اختيار عبارات وكلمات تعبر بشكل دقيق عن المعاني التاريخية التي عاشها الشعب الجزائري ومنها مثلا استبدال كلمة "مستعمر"، بكلمة "محتل" أو "مستدمر"، وعلى مستوى الاختيارات التحريرية فإن الأسلوب المستخدم قد يكون متشددا أو لينا أو مغاليا أو موضوعيا تبعا للسياسات التحريرية، حيث يذكر الدكتور عبد الرحمن عزي في كتابه علم الاجتماع الإعلامي أن اللغة واسطة ولها حقيقتها الخاصة وأن هذه الحقيقية قد تقترب أو تبعد عن الواقع وفقا لإمكانات المرسل الثقافية والقيمية ومدى مقاومته للتغيرات التي قد تفرضها السياسة التحريرية والحلقات التي تمر بها المعلومة (نظرية حارس البوابة الإعلامية) التي يشارك في إخراجها العديد من المرسلين داخل المؤسسة من المدير إلى رئيس التحرير وصولا إلى الصحفي والمخرج الفني¹² ونلمس ذلك في متن المحتوى أو من خلال عدم تطابق العناوين مع المتن.

ونجد في تحليل الدكتور لخضر قريش لسلسلة الحوارات التي نشرتها صحيفة الشروق اليومي في مارس 2014 التي تضمنت مقابلات مع المجاهد ياسف سعدي مثالا بارزا في عملية تدخل المعالجة الإعلامية في تشويه رموز الثورة التحريرية وغياب الدقة والانحياز إلى جزئيات من الحوار لجعله مثيرا، حيث جاء في الصفحة الأولى من الجريدة في إحدى حلقات الحوار العنوان التالي: "ياسف سعدي في حوار مثير للشروق: العربي بن مهيدي لم يطلق رصاصة واحدة ضد الاستعمار"¹³ وهو العنوان الذي احتج عليه المجاهد والعقيد ياسف سعدي إذ اعتبر أن كلامه "قد فهم خطأ" وأنه كان يقصد أن مهمة الشهيد العربي بن مهيدي كانت "في القيادة السياسية والتنظيمية والإعلامية"¹⁴.

ويعلق الدكتور لخضر قريش على هذه الحالة بقوله أن السيد ياسف سعدي كان عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ وبالتالي فهو كان يعرف الشهيد العربي بن مهيدي من خلال شخصية القائد التنظيمي الإعلامي، وأنه بالتالي لم يكن منزعجا بشأن شهادته ولكن ما أزعجه هو الطريقة التي أُخرج بها الحوار والعنوان الذي حملته الصفحة الأولى، ما جعله يقدم رسالة إضافية في حواراته اللاحقة تبرز كما جاء سابقا العلاقة بين الشخصيتين وتؤكد عدم وجود نية سيئة من قبل المجاهد ياسف سعدي حيث قال في حوار لاحق "لم أقصد الإساءة إلى بن مهيدي... فهو قائدي وقدوتي الأول"¹⁵.

إن ما ننوه إليه بالنسبة للمثال السابق هو أن دور الوسيط يتمثل في الاستفادة من هذه الوضعيات وتحويلها إلى معايير وإرشادات عملية أخلاقية تحدد واجب الصحفي

في الدقة، وتشرح كيفية تعامله مع الوضعيات المشابهة ومنها الحرص أن يعكس العنوان المحتوى الإعلامي وألا يحيل أو يوحي إلى تأويلات غير تلك التي يتضمنها مضمونه.

وتتحدث منظمة وسطاء الأخبار ONO عن التبريرات التي تجعل من المهم استحداث منصب الوسيط في المؤسسات الإعلامية ومن بينها تحسين معالجة المعلومات والسهر على ألا يشوبها انحياز، وأن تكون دقيقة ومتوازنة¹⁶ فالوسيط في المثال السابق سيقوم بتوجيه انتقاداته وسيناقش الصحفي وسيقوم بعمل بيداغوجي يتعلق بتوجيه الصحفيين الذين يهتمون بالكتابة في المجال التاريخي أو موضوع الثورة التحريرية إلى الانتباه إلى الانزلاقات الأخلاقية التي قد تكلف الجريدة نشر تصحيحات قد تضر بمصداقيتها، هذا بالإضافة إلى حصره لمختلف ردود أفعال القراء حول المضمون الصحفي والانتباه إلى التأويلات المختلفة التي قد تتبادر إلى ذهن القارئ والتي قد لا يقصدها الصحفي وتضر برموز ثورة التحرير وبسمعة الصحيفة على حد سواء. كل هذا يضمن أيضا المحافظة على علاقة القارئ بصحيفته كمرجع ذي مصداقية، هذا بالإضافة إلى تجنب التأويلات التي قد تجعل القارئ يصنف المؤسسة الإعلامية ضمن اتجاه أو تيار ما وفقا لأفكار مسبقة ناتجة عن أخطاء صحفية.

ثالثا: تكريس المسؤولية الاجتماعية لدى الصحفي في معالجة المواضيع الخاصة

بالثورة التحريرية

يعتبر جون كلود برتراند الوسيط واحدا من ثمانين 80 أداة لضمان المسؤولية الاجتماعية¹⁷ moyens d'assurer la responsabilité sociale وقد

حددت المسؤولية الاجتماعية خمس مبادئ أخلاقية للممارسة الإعلامية "الحرّة والمسؤولية" منها التغطية الاحتوائية غير الاقصائية البعيدة عن الصور النمطية¹⁸، وبالنسبة للمثال السابق والمتعلق بالمعالجة الإعلامية لجريدة الشروق اليومي لشهادات المجاهد ياسف سعدي حول الشهيد العربي بن مهيدي، فإن الدكتور لخضر قريش يشير إلى أن ما جاء في الحوارات اللاحقة من طرف المجاهد ياسف سعدي توضيحا لكلامه لم يكن مبرجما ضمن الحوار الذي أعدته الصّحفيّة، وإنما جاء كلاحقة تصحيحية واعتبره من المضمّرات الخطابية التي حاول من خلالها ياسف سعدي التعديل وسد الفراغ والإجابة على أسئلة القراء الخفية¹⁹، ومن هنا تبرز أهمية وجود شخص مثل الوسيط الإعلامي يهتم بتأويلات القراء حول المحتوى الإعلامي خاصة ذلك المحتوى الذي يتعلق بتاريخ المجتمع وهويته، وذلك تجنباً للصور النمطية التي يمكن أن تتشكل انطلاقاً من التفاعل مع المحتويات الإعلامية عن الشخصيات الثورية هذا مع الاحتفاظ بحق الصحيفة في نقل مختلف الشهادات عن الوقائع التاريخية.

من جانب آخر وفي سياق المثال نفسه فإن نقل مختلف الشهادات والآراء والتعليقات من المصادر الموثوقة يكون مهماً، إذ يذكر الأستاذ لخضر قريش أن وزير الداخلية سابقاً المجاهد دحو ولد قابلية قد رد على كلام زميله ياسف سعدي حيث قال "بن مهيدي حجز لنفسه حيزاً كبيراً في الهجوم على حرس الغابات بمنطقة (حيفر) بمرتفعات تلمسان وقاد الهجوم شخصياً رفقة عشرة 10 أشخاص آخرين من بينهم محمد بوزيدي (...). ومن يقود هجوماً يحمل سلاحاً ويطلق ناراً"²⁰ وبغض النظر عما إذا قامت الجريدة بنقل التصريحات كما هي أو بتصرف ما، فإن أخلاقيات المهنة

تستوجب التأكد من المعلومة كما أن الصحفيين يتحملون أيضا مسؤولية تصريحات الضيوف فحسب جمعية الصحفيين المحترفين "يعترف الصحفيون بمسؤوليتهم عن تقديم تحليل واع وتعليقات، ومقالات رأي عن الأحداث والموضوعات العامة. وهم يقبلون الالتزام بتقديم هذه المادة بواسطة أشخاص مشهود لهم بالكفاءة، والخبرة، والحكم السليم"²¹ ويكون من الغريب هنا تنمة لشرح المثال السابق أن تحمل صفحة الشروق اليومي الثانية تعليقا عما قام به ياسف سعدي يحمل في مضمونه "قام ياسف سعدي المعروف بتخوينه لرموز الثورة الجزائرية بتهديد الصحفية بالتوجه إلى القضاء"²² أياما فقط بعد إجراء مقابلة معه.

ونجد في الجملة السابقة وحدها العديد من المبررات التي تجعل من الوسيط أداة فعالة في حل مثل هذه الإشكاليات نلخصها في:

- أن دور الوسيط هو الإجابة عن الشكاوى التي يمكن أن تُقدم بشكل آخر إلى العدالة وتتحول إلى دعوى مُكلفة²³.
- أن الوسيط يقوم بعمل بيداغوجي يدرّب فيه عمليا الصحفيين على المبادئ الأخلاقية ويكون في شكل تكوين مستمر وفي المثال السابق قد لا يقوم الصحفي باستضافة شخصية لا تقدم تحليلا أو حكما سليما عندما يعرف أنه يتحمل مسؤولية استضافتها وتصريحاتها.
- يصحح من السلوك الصحفي للمؤسسة الصحفية إذ لا يمكن للأخيرة أن تنتقد شخصية قدمتها قبل أيام على أنها مصدر للحقيقة.

– يحافظ بشكل عام على تناسق الخطاب الإعلامي ومصادقته

خاتمة

إن الوسيط يحافظ بشكل عام على تناسق الخطاب الإعلامي وعلى السلوك الصحفي الأخلاقي بما يضمن تكريسا فعليا للمعالجة الأخلاقية للمعلومة الصحفية ومنها تلك الخاصة بتاريخ الجزائر والثورة التحريرية وهو ما يساهم في حل النزاعات المتعلقة بهذه المعالجة الصحفية ويجنب المؤسسة والصحفيين ارتكاب الأخطاء نفسها مستقبلا ، كما أن الوسيط يحافظ على كيان المؤسسة الصحفية من التبعات القانونية التي قد تقلص من حريتها وترفض عليها ممارسة رقابة ذاتية تجعلها غير فاعلة في مجال نقل الحقيقة الكاملة وكما جاء في آخر عنصر فإن المسؤولية الاجتماعية تهتم بالتغطية الاحتوائية غير الاقصائية، وفي التاريخ نحتاج إلى كل الآراء وبالنسبة للوسيط فهو يكرس تعدد الآراء من خلال المحافظة على تعدد المواقف والاتجاهات الصحفية التي تكتب حول الذاكرة الوطنية ولكنه يراقب كذلك عدم تجاوز الأخلاقيات من خلال الانتباه إلى التجاوزات الصحفية.

الهوامش:

¹ عبد الرحمن عزوي ، نظرية الحتمية القيمية في الإعلام، الدار المتوسطة للنشر، الطبعة الأولى، تونس، سلسلة دعوة إلى فهم، 2011، ص 48

² عبد الرحمن عزي، الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية قراءة معرفية في الرواسب الثقافية، ط1، تونس، الدار المتوسطة للنشر، 2009. ص 48

³ عبد الرحمن عزي، علم الاجتماع الإعلامي، ط1، تونس، الدار المتوسطة للنشر، سلسلة دعوة إلى فهم، 2010. ص 55 بتصرف

Benoît GREVISSE, **Déontologie du journalisme : enjeux éthiques et identités professionnelles**, de boeck, 1^{ère} édition, 2010 p 237 traduit modifié

Office Of News Ombudsmen* تأسست سنة 1980 وهي منظمة غير ربحية مكونة من أعضاء دوليين منهم أعضاء فاعلون و أعضاء متعاونون وتحافظ على الاتصال مع وسطاء الأخبار News Ombudsmen عبر العالم، وتنظم ندوات سنوية تناقش الممارسات الإخبارية والإشكاليات الخاصة بعمل الوسطاء. فقرة مترجمة. أنظر:

consulté le <http://newsombudsmen.org/about-ono>

18/08/2016 a 19h42

FERREIRA MAIA KeniaBeatriz,⁵

AppApproche comparative de la fonction de médiateur de presse dans les quotidiens brésilien 'Folha de São Paulo' et et français 'Le Monde', (Thèse de 3ème cycle pour le doctorat en Sciences de l'Information et de la Communication), université de Metz, 2003 p13 traduit modifié

⁶ زهير إحدادن، **الصحافة المكتوبة في الجزائر، د.ط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،**
2012 ص 11

⁷ المرجع نفسه ص 11

^{**} ملاحظة عامة توصلنا إليها من خلال إجراء العديد اللقاءات مع صحفيين ورؤساء تحرير في إطار بحثنا في الدكتوراه حول موضوع: ممارسة الوساطة الإعلامية والتي شملت جرائد صوت الغرب، الوصل، الجمهورية، le quotidien d'oran، الشروق اليومي، الخبر، El Watan و Liberte وهي أطروحة دكتوراه غير مناقشة بعد.

⁸ FERREIRA MAIA KeniaBeatriz, Op. cit p15 traduit.

⁹ الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، رئاسة الجمهورية، الأمانة العامة للحكومة، قانون عضوي رقم 05-12 يتعلق بالإعلام، 12 يناير 2012 المادة 2 ص 2
¹⁰ المرجع نفسه المادة 92، ص 10

¹¹ أنظر الضبط الذاتي، الضبط الخارجي Autoregulation, hétéroregulation
Benoît GREVISSE, **Déontologie du journalisme : enjeux éthiques et identités professionnelles**, 1^{ère} éd,
Belgique, éd. de boeck , 2010p 28

12 عبد الرحمن عزي ، علم الاجتماع الإعلامي، ص 23 بتصرف

¹³ وردة بوجملين: ياسف سعدي في حوار مثير للشروق، جريدة الشروق اليومي، ع 4317،
يوم 16 مارس 2014 ص 14 نقلا عن لخضر قريش، سلطة (المعلومة التاريخية) إبان الثورة
الجزائرية قراءة في مقطع من الخطاب (الإعلامي-التاريخي-السياسي) جريدة الشروق
مارس 2014 نموذجاً، مجلة الاتصال والصحافة، العدد 01، جوان 2014، ص 31

¹⁴ لخضر قريش، سلطة (المعلومة التاريخية) إبان الثورة الجزائرية قراءة في مقطع من الخطاب (الإعلامي-التاريخي-السياسي) جريدة الشروق مارس 2014 نموذجاً، مجلة الاتصال والصحافة، العدد 01، جوان 2014، ص 27 بتصرف

¹⁵ المرجع نفسه صص 30-31 بتصرف

¹⁶ FERREIRA MAIA Kenia Beatriz, Op. cit p14 traduit modifié

¹⁷ Frédérique Béal **Médiateur de presse ou press**

ombudsman la presse en quête de crédibilité a-t-elle

trouvé son zorro [http://www.alliance-](http://www.alliance-journalistes.net/IMG/pdf/mediateur_int_exe_bat.pdf)

[journalistes.net/IMG/pdf/mediateur_int_exe_bat.pdf](http://www.alliance-journalistes.net/IMG/pdf/mediateur_int_exe_bat.pdf) consulté

le 16/12/2014 à 09h53 p 10 traduit modifié

¹⁸ John P. Ferre, « **A Shorty History of Media Ethics in the United States** » in Lee Wilkins and Clifford G. Christians, The Handbooks of Mass Media Ethics, Routledge, New York, 2009 p26 translated modified

¹⁹ لخضر قريش مرجع سابق ص 32 بتصرف

²⁰ سميرة بلعمري: رئيس جمعية التسليح والإصلاحات (المالغ) دحو ولد قابلية يكتب للشروق، جريدة الشروق اليومي، ع 4324، يوم 23 مارس 2014، ص 5. نقلا عن لخضر قريش مرجع سابق ص 28

²¹ جون ل. هاتلنج، أخلاقيات الصحافة : مناقشة علمية للقواعد الأخلاقية، تر. كمال

عبد الرؤوف، ط 1، القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، 1981 ص 134

²²مرصد الشروق: ياسف سعدي والضرب العرّاسي، جريدة الشروق اليومي، ع 4319،
يوم الثلاثاء 18 مارس 2014 ص 2 نقلا عن لخضر قريش، مرجع سابق ص 35

²³FERREIRA MAIA KeniaBeatriz, Op. citP14 traduit
modifié

البيوتات العربية في المغرب الأوسط وإسهاماتها في الدعوة الإسماعيلية قبيل
296هـ/909م "البيت الحمدوني أنموذجا"

محمد بن عربة/جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/قسنطينة.

benarbamohamed.alfatih@yahoo.com

د/ أسماعيل سامعي/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/قسنطينة.

عنوان المقال:

ملخص:

يكتسي موضوع الدعوة الإسماعيلية وقيام الخلافة الفاطمية أهمية كبرى في الدراسات التاريخية المتعلقة بمجال المغرب الأوسط، بسبب تداعيات هذا الحدث على الأحوال السياسية والمذهبية في المجالات المغاربية عامة، والمغرب أوسطية منه على وجه الخصوص، ورغم ما تحظى به هذه الفترة حالياً من اهتمامات الباحثين، إلا أنها لا تزال قاصرة بسبب حجمها وطريقة معالجتها، إذ هي بحاجة إلى تفكيك جزئياتها والتنقيب والتعريف بجميع الفواعل فيها، مع الرجوع ومقارنة مختلف النصوص الإخبارية التي أشارت إليها وتحديث عنها، ومن هنا أدرجنا مداخلتنا في محاولة لتسليط الضوء على العنصر العربي في الدعوة ومدا إسهاماته فيها مع اتخاذ "البيت الحمدوني" كعينة عن ذلك .

الكلمات المفتاحية: التشيع - الدعوة الإسماعيلية - البيوتات العربية - المغرب الأوسط - بني حمدون.

Abstract

The subject of the Ismailia da'wa and the establishment of the Fatimid Caliphate is of great importance in the historical studies of the central Maghreb, Because of the repercussions of this event on political and sectarian conditions in the Maghreb, and the central Maghreb in particular, Although this period is currently of interest to researchers, But it is still limited due to its size, perspective and method of treatment, As it needs to dismantle the particles and exploration and the definition of all the fruits in them, With reference and comparison of the various news texts that I mentioned and talked about, From this came our intervention in an attempt to shed light on the Arab element in the call and the extent of its contributions to it with the adoption of ' the family Al- Hamdouni' as a sample and a model for that .

مقدمة:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي مع نهاية القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي، تحولا كبيرا في الحياة السياسية وثورة في الحياة المذهبية، وهذا ناتج عن قيام وتوسع الخلافة الفاطمية وظهورها كأول خلافة شيعية متخذة من الإسماعيلية نحلة لها، ومن بلاد المغرب مقرا لها، ومن بربر كتامة عصبية لها، وتأتى لها ذلك بعد نضج الدعوة الإسماعيلية وتحولها من السرية إلى العلنية، وخروجها من السلمية إلى العمليات العسكرية، حيث بدأت تتساقط المدن والحواضر، ومعها الإمارات والدول، وبالرغم من الأهمية الكبرى للبيئة والتركيبية الكتامية في الدعوة والتحضير لقيام الدولة إلا أن هذا لا ينقص من حجم وقيمة

المشاركة العربية فيها، والتي كانت سبابة في نضالها سواء على أرض المغرب الأدنى وحتى المغرب الأوسط، ونخص هنا بالذكر بيت "آل حمدون"، الذين ظهر منهم الدعاة والقادة والولاة والمعروفين بخدماتهم وإسهامهم في مرحلتي الدعوة والدولة .

أولا: البيت الحمدوني - الأصول المشرقية والإستقرار في البيئة الأندلسية -

تنتسب أسرة بني حمدون إلى قبيلة جذام¹ فهم من عرب الجنوب القحطانيين، ورغم أن هذه الأسرة قد سطع نجمها وعظم دورها على أرض المغرب الإسلامي وبالتحديد المغرب الأوسط منه، إلا أن المصادر التي أرخت لها دأبت على وصف هذه العائلة با "الأندلسية"، وهذا راجع إلى أن بداية استقرارهم بالمغرب كان في الأندلس وجددهم عبد الحميد كان أول المقيمين فيها، وفي هذا الشأن يقول المؤرخ الأندلسي ابن حيان في أحداث سنة 360هـ/971م نقلا عن الوراق " أن جعفر وأخاه هذين الهاربين إلى وطن جددهما بالأندلس هما ابنا علي ابن حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم ... بن أحمد بن عبد الحميد الجذامي، وعبد الحميد هذا ... كان الداخلى إلى بلاد الأندلس من الشام وأرضه ... " ²، كما ترجم لهذه الأسرة صاحب كتاب " المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب " فذكر نسبهم على النحو التالي: "علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي " ³، وقد استقر جددهم الأول عبد الحميد بالأندلس بكورة البيرة⁴ بقرية ... من قرى قلعة يحصب⁵، وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى صمت المصادر التاريخية حول تاريخ هجرته، إلا أنه يحتمل أنها كانت في حدود سنة 123هـ/741م وهذا مع طالعة الشاميين⁶، فمن المعلوم أن هذا الجيش قد ضم أعدادا كبيرة من قبيلة جذام العربية، كما سكنت المصادر عن حياة أبنائه وأحفاده إلى غاية حمدون الذي كان حيا إلى غاية سنة 287هـ/901م والذي عرفت الأسرة بنسبتها إليه .

ثانياً: أبي عبد الله محمد بن حمدون الأندلسي صاحب الدعوة

ذكرت المصادر التاريخية التي أرخت للدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب وقيام الخلافة الفاطمية على أنه كان للأسرة الحمدونية أدواراً عديدة لعبتها في مرحلتي الدعوة و الدولة، غير أنها قد وقعت في خلط كبير في أسماء وأعداد هذه الأسرة ممن أسهموا في الدعوة، ومن خلال الرجوع إلى ماتوفر منها بفرعيها المغربي والأندلسي وتحليلها ومقارنتها يمكن التوصل إلى نتيجة مفادها وجود شخصين من هذه الأسرة يرجح أنهما أخوين، ساهم كل واحد منهما في خدمة الدعوة أحدهما: هو أبو عبد الله محمد بن حمدون المعروف بأبي عبد الله الأندلسي⁷، والذي تنتهي أخباره قبيل نهاية القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي، وثانيهما أخوه علي بن حمدون وهذا الأخير هو أشهر أفراد الأسرة الحمدونية في المصادر التاريخية وحتى الدراسات الحديثة بسبب استمرار إنجازاته إلى مرحلة الدولة، كما أنه خلف ذرية قامت بدور كبير في حركة الصراع بين الأمويين في الأندلس والفاطميين في بلاد المغرب⁸.

تعتبر رواية "افتتاح الدعوة" لصاحبها القاضي النعمان أول رواية إسماعيلية رسمية تحدثت عن نشاط البيت الحمدوني كبيت عربي نشط في المغرب الأوسط بهدف نشر التشيع وإقامة دولة الفوالم، وجاء الحديث عن هذا البيت وأول وكبير دعائه وهو أبو عبد الله محمد بن حمدون الأندلسي في معرض حديثه عن دخول الداعية أبا عبد الله الشيعي⁹ أرض المغرب الأوسط بمحاذاة بلاد كتامة والتقى فيها بدعاة من بينهم: " موسى أبي المفتش وأبو القاسم الوفرجومي وأبو عبد الله الأندلسي¹⁰، وكان هذا اللقاء سنة 280هـ/893م، وقد أعطى القاضي النعمان وصفا موجزا لكنه دقيق عن أحوال ومؤهلات ومهنة أبي عبد الله الأندلسي الحمدوني فقال عنه أنه كان له: " فهم وحدة ومعرفة، وكان معلما بالموضع، ثم أوطنه، وصار إلى درجة العلماء فيه وتشيع¹¹".

إن هذه المعلومات تعد قرائن ودلائل تؤكد على أن أبا عبد الله الأندلسي كان من كبار دعاة الإسماعيلية في بلاد المغرب الأوسط، حيث تولى أمور الدعوة في المجالات الكتامية قبيل دخول أبي عبد الله الشيعي إليها ، وانتظم في مهنة التعليم والتي من خلالها نشر التشيع في مؤسسات تلك الفترة من عمر الدعوة ومنها المسجد¹² الذي كان موجودا في مقر إقامته وبيته الذي يسكن فيه، إذ لم تكن في تلك الفترة قد ظهرت مجالس الحكمة¹³ بعد، أما عن تشييعه وارتباطه بالإسماعيلية فقد سكت المصادر عن ذلك، وهذا الصمت حول الدعوة هو أمر شائع خلال تلك المرحلة المتقدمة من عمر الدعوة، ليس فقط في المغرب الإسلامي بل في مشرقه، حيث إن سرية نشاطات الدعوة كان سببها الخوف من وقوع أصحابها وكتبهم في أيدي أعدائهم، لكننا نرجح أنه كان تلقى ذلك من الداعية الإسماعيلي الحلواني وهذا ما ذهب إليه عبد الرحمن ابن خلدون حيث قال عنه أنه: "أدرك الحلواني وأخذ عنه"¹⁴.

إن جل المصادر ذكرت أن الداعية الحلواني بدأ نشاطه في بلاد المغرب ابتداء من سنة 145هـ/762م نقلا عن الإفتتاح، إلا أنه يمكن التحفظ على هذه الراوية بالرغم من اعتماد العديد من المصادر عليها وهذا لعدة قرائن وأسباب نذكر منها :

- إن هذه المرحلة جد متقدمة بالنسبة لدعوة خاصة كالإسماعيلية لم تكن نشأت بعد، أو لحركة شيعية عامة سرية في بلاد المغرب، إذ أن المتعارف عليه هو أن السليمانيين والأدارة الحسينيين هم أول من دعوا إلى إقامة حركات سياسية علوية في بلاد المغرب¹⁵.

- ربط هذه الدعوة بشخص جعفر الصادق(ت148هـ/765م)¹⁶ هو محاولة لإبراز مرجعية وإعطاء شرعية لحركة جديدة، والمعروف عن جعفر الصادق تركه للسياسة وعدم

خروجه على حكام عصره وتمسكه بالسنة، التي نقلها إلى تلامذته الذين أصبحوا من كبار علماء جماعة أهل السنة بعد¹⁷ .

- مناقضة القاضي النعمان لراويته حول إرسال الدعاة سنة 145هـ/762م، إذ أنه يذكر في مواضع عديدة عن كتاميين إلتقوا بالحلواني كما التقوا بالداعية الصنعاني¹⁸ ، ومن العرب أبا عبد الله محمد بن حمدون، وهذا مالا يمكن تقبله بحكم أن الفترة مابين الدعوة الأولى والدعوة الثانية أكثر من 130 سنة .

وكان الحلواني في مهمته هذه قد دخل إلى أرض المغرب الأوسط و: " وصل إلى سوجمار¹⁹ . فنزل منه موضعا يقال له الناظور²⁰ ، فبنى مسجدا، وتزوج امرأة، واشترى عبدا وأمة، وكان في العبادة والفضل والعلم علما في موضعه، فاشتهر به ذكره، وضرب الناس من القبائل إليه، وتشيع كثير منهم على يده من كتامة، ونفزة، وسماتة²¹ .. " والنشاطات الواسعة والمهادفة له هي التي مكنته من تجنيد بعض الشخصيات المهمة ذات الثقل في المنطقة على غرار الوفد الذي أستضافه الداعية أبو عبد الله الشيعي سنة 280هـ/893م²² وبالتالي فإن أبا عبد الله محمد بن حمدون الأندلسي هو ثمار هذا الجهد، حيث أصبح وريثا ووصيا على الدعوة بعد وفاة الحلواني وحافظ على دوره، فكان رابطة وصل بين مرحلتى الدعوة التي قام بنشرها أبو سفيان والحلواني، وبين ما يدعوا إليه أبي عبد الله الشيعي، وأصبح مخضرمًا عاش بين عصرين : عصر التمهيد وعصر التمكين ، ويرجح أنه هو الذي أرسل إلى القيادة باليمن خبر وفاة الداعيتين .

ورغم سكوت المصادر عن العلاقة بين الداعية الحلواني والبيت الحمدوني في هذه الفترة المتقدمة من عمر الدعوة، إلا أنها تفصل في أحداث الفترة اللاحقة والتي برزت فيها مكانة آل حمدون في الدعوة الإسماعيلية، وتعاظمت ابتداء من سنة 280هـ/893م

تاريخ بداية الدعوة الجديدة أو "مرحلة البذر" على أرض المغرب الأوسط، بدليل التقاء أبي عبد الله محمد بن حمدون الأندلسي بالداعية أبي عبد الله الشيعي أول دخوله أرض المغرب الأوسط، وكان مبيت الداعية أبي عبد الله الصنعاني عند أبي عبد الله الأندلسي تلك الليلة، فحدثه الداعي عن مهمته وكشف له الأمر وهذا من طقوس الدعوة وتعاليمها، ومن المحتمل أنه في تلك الليلة قد يكون أطلع الداعية أبي عبد الله الشيعي عما وصلت إليه إنجازات الدعوة في عهد الحلواني، كما أعلمه بأحداث المنطقة وتطوراتها ومكان القوة والضعف فيها، وكما كان لأبي عبد الله بن حمدون السبق في اعتناق المذهب واحتضان كبير دعائه، ومعرفته وضيافته والاطلاع على سره، فإنه كان له السبق أيضا في مرافقته فيما بعد وحمل السلاح معه ضد أعدائه في البلاد الكتامية، حيث أن أبا عبد الله الأندلسي هاجر موطنه رفقة الداعي إلى عمق أراضي كتامة واستقر معه فيها، ورغم أن الداعية أبا عبد الله الشيعي كان مهياً تهيئاً كبيراً من طرف قيادة الدعوة ومحاطاً بجميع تفاصيل وأسرار البلاد المرسل إليها وهذا من تقاليد الدعوة الإسماعيلية، حيث أنه كان يشترط في الداعية أو حجة الجزيرة²³ المرسل إليها أن يكون: "عارفاً بمذاهب أهلها وبعلمهم وطبائعهم وما يميلون إليه ويرغبون فيه من العمل وبأفهامهم حتى يمكنه المناظرة معهم ويقبلون منه العلم"²⁴، إلا أنه لا يستبعد أن يكون عبد الله محمد بن حمدون قد أطلع الداعية أبو عبد الله الشيعي على تقارير وتفاصيل جديدة عن تطورات الدعوة ومجالاتها ومعالم وطبائع أهلها، خصوصا بعد وفاة أصحاب الحرث (أبو سفيان - الحلواني)، بدليل أن الداعي لما دخل البلاد سأل سؤالا غير متوقع وقال: "أي موضع منكم فج يسمى فج الأخيار"²⁵ فاندحشت الصحبة الكتامية التي كانت معه ذلك لأنها لم تتحدث عن هذا المكان أمامه قط.

وقد استمر عبد الله محمد بن حمدون في تنشيط حركة الدعوة في البلاد الكتامية واستقطاب خاصتها وعوامها، وشارك في الحروب التي كانت مشتعلة بين الكتامين المعارضين للمشروع الجديد والمؤيدين له، وقد برز بقوة في أحداث سنة 289هـ / 901م، حيث تسارعت كتامة المعارضة لدعوة أبي عبد الله الشيعي إلى محاصرة دار الهجرة²⁶، فكان على رأس الذين رأوا بإخفاء الداعية الصنعاني خوفاً عليه من القتل أثناء النزال، لكن الداعية شكر حرصهم وسعيهم وأكد على تمام أمره وظهوره على أعدائه، وبين أن ما يحدث هو امتحان يميز فيه أصحابه من أعدائه، بعدها تحرك مباشرة و" أبو عبد الله الأندلسي قائماً على قدميه ابتهاجا بما سمع من ذلك ورأى من المؤمنين، فقال: لقد ثبت أمر الله فيكم كما ثبتت هذه في هذا - وأوماً إلى أذنه ورأسه -، والله لو قابلتهم هذه الجبال - وأشار إليها - ، بهذه النيات لأنزلتموها"²⁷ ثم بدأ في "تجهيز الجيش مما تمتلكه قبيلة غشمان"²⁸ .

كانت تلك المعركة من أهم معارك الجماعة الإسماعيلية مرحلة الدعوة ، والتي قضوا فيها على شوكة كتامة المعارضة، وقد أبلى فيها محمد بن حمدون الأندلسي بلاءً كبيراً مفجراً كل طاقاته القيادية والحربية، ولم يتوقف نشاطه عند هذا الحد فمن المعلوم أن الداعية أبا عبد الله الشيعي لما اتسع مجال نفوذه وسلمت القبائل له، وتساقطت المدن في يده بعد تلك المعركة بدأ في تعيين الدعاة²⁹ ومن بينهم عبد الله محمد بن حمدون، فمن غير المعقول أن يستنجد الداعي في شرح دعوته وإدخال من تبقى من كتامة في أمره بدعاة جدد حديثي العهد بالتشيع، ويستغني عن خدمات من كانت له سابقة في الدعوة واشتهر فيها بالفهم والمصابرة والعلم والمثابرة، غير أن هذه الشخصية تنقطع أخبارها تماماً في مراحل متأخرة من عمر الدعوة، ليشارك مع أبي عبد الله محمد بن حمدون عنصر آخر من الأسرة في خدمة الفاطميين وهو أخوه علي بن حمدون .

ثالثا: علي بن حمدون سفير الدعوة وكبير رجال الدولة

إن الشخصية الثانية في هذه العائلة صلة بالدعوة الإسماعيلية هو علي بن حمدون، والذي تذكر المصادر التاريخية أن أول اتصال له مع الفاطميين يرجع إلى حدود سنة 287هـ/901م، حيث قام حمدون رفقة ابنه ثعلبة والمسمى عند ابن خلدون "بأبي ضبيعة"³⁰، الذي تحول اسمه فيما بعد إلى علي³¹، بالخروج من الأندلس بقصد الحج ونزلا ببلاد المغرب الأوسط وفي مضارب كتامة، وهنالك تزوج عليا من امرأة كتامية تدعى ميمونة بنت علاهم الجيملي³²، وأورد صاحب كتاب المقتبس أن عليا هذا كان قد إلتقى بالداعية أبي عبد الله الشيعي "الذي استهواه وغلب على قلبه ودخل في مذهبه"³³ غير أنه مشكوك في هذه الرواية التي تقول بتشيع علي بن حمدون بهذه الطريقة، وهذا لعدة أسباب منها:

- صلة هذه العائلة بالتشيع وعراققتها في المغرب الأوسط وعلى رأسهم أبو عبد الله محمد بن حمدون، والذي كان يباشر الدعوة منذ بدايتها، حيث نزل أبا عبد الله الشيعي في بيته كما أنه كان من بين اللذين تلقوا التشيع على يد الداعية الحلواني .
- إن المرتحل من بلاد الأندلس إلى الحج في مسيره لا يمكن أن يهمل مناطق التواصل البحرية في المغرب الأوسط، و يدخل في أعماق كتامة ويتوغل فيها وهذا بسبب صعوبتها ووعورتها وبعد الموانئ عنها .
- كانت منطقة كتامة خلال هذه الفترة تعرف حربا أهلية بين كتامة المؤيدة للمشروع الشيعي وكتامة المعارضة له هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت قبيلة كتامة قد دخلت في صراع مع السلطة الأغلبية، فمن المستحيل أن يجازف الحجاج الأندلسيين في رحلتهم بالدخول إلى هذه المناطق والتي بدأت تميل فيها الكفة تدريجيا للمشروع الشيعي .

وبالتالي فإن انتقاله إلى بلاد المغرب في تلك المنطقة (كتامة) منها وفي ذلك التاريخ (287هـ/901م) لم يكن مصادفة بل هو عمل مدبر من قبل ومخطط له لسببين:

الأول : تنامي الدعوة وانتشار أخبارها وتحول بلاد كتامة إلى بيئة حاضنة للأفراد والجماعات الباحثة عن التشيع .

الثاني : لا يستبعد أن انتقلهم إلى مجالت كتامة كان بمراسلة من قريبتهم أبي عبد الله محمد بن حمدون، والذي كان وتدا من أوتاد الدعوة وعنصر فاعلا فيها، والذي كان إلى غاية 287هـ/901م لا يزال حيا .

ورغم أن المصادر سكنت عن دور كبير هذه الأسرة حمدون الذي هاجر إلى المغرب، إلا أنها تحدثنا عن ابنه علي، والذي آزر الدعوة منذ وطأت قدماه أرض المغرب الأوسط، وكان أحد كبار ولاة الأقاليم لدى الفاطميين في مرحلة الدولة، وقد أسندت إليه قيادة الدعوة قبيل عام 296هـ/909م مهام خطيرة خارج أرض المغرب الأوسط، أبرزها سفارته إلى عبيد الله المهدي أثناء رحلته إلى بلاد المغرب وهروبه من العباسيين، وفي هذا الشأن يذكر عبد الرحمن ابن خلدون أنه " اتصل بعبيد الله وأبي القاسم بالمشرق قبل شأن الدعوة، وبعثوه من طرابلس إلى عبيد الله الشيعي، فأحسن اللقاء والانصراف

34

إن هذه السفارة تؤكد على مدى الحظوة والثقة التي تمتع بها علي بن حمدون من طرف الخليفة الفاطمي وداعيته أبو عبد الله الشيعي، كما أنها تؤكد خبرة واحترافية علي بن حمدون في عمله وولائه لسيدته، ويكشف لنا صاحب كتاب العبر على أنه كان مع عبيد الله في سجنه بسجلماسة³⁵، ورغم أن رواية عبد الرحمن ابن خلدون يصعب قبولها كونها لم تشر إليها المصادر الإسماعيلية المتقدمة، ولا رواية صاحب سيرة جعفر الحاجب³⁶ الذي كان في تلك الرحلة، إلا أنه من المرجح أن علي بن حمدون كان من

ضمن أفراد تلك الرحلة وأشتغل فيها سفيرا وجاسوسا وناقلا للأخبار، وما يستدل به حول ذلك هو أن عبيد الله المهدي³⁷ بعد قيام دولته قربه واستعمله في السفارة و" أرسل به إلى المشرق في بعض ما ترسل الملوك فيه، فأحكم له شأنه وقدم، فازداد حظوة لديه 38»

خاتمة:

- مثل المغرب الأوسط خلال القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي أحد أهم المجالات الجاذبة للحركات السياسية والدعوات المذهبية، والتي سعت كل منها إلى الاعتماد على العصبية البربرية لبناء دول خاصة بها.
- أدركت القيادة الإسماعيلية في سلمية أهمية المجال المغرب الأوسط كبيئة حاضنة للدعوة المذهبية خاصة الشيعية منها فعمدت إلى إرسال الدعاة إليها .
- من نتائج نشاط الدعاة الأوائل في مجال المغرب الأوسط تكوين العديد من الدعاة والقيادات البربرية والعربية التي ستلعب دورا كبيرا في التأسيس لخلافة الفواطم .
- ظهور أهمية البيوتات العربية في الدعوة الإسماعيلية بتولي محمد بن حمدون الأندلسي مهمة الحفاظ على موروث الدعوة إلى غاية مجيء صاحب البذر.
- كان لنشاط الداعية العالم محمد بن حمدون الأندلسي دورا كبيرا في تشييع العديد من العناصر الكتامية القيادية، وشحنها بفكرة المهمة الكبرى التي تنتظرها.
- انضمام فرد آخر من أفراد أسرة آل حمدون إلى المجال السياسي للدعوة في بلاد كتامة ابتداء من سنة 287هـ / 901م، جعل هذه الأسرة تتعاضم أدوارها وإسهامها، وتتحول تدريجيا من العمل الدعوي المحض إلى التخصص في ميدان السياسة، حيث كان علي بن حمدون على رأس العديد من السفارات في مرحلة الدعوة، ليشغل بعد قيام الدولة سفيرا لعبيد الله المهدي في بلاد المشرق، وتسد إليه فيما بعد بناء وحكم حاضرة المسيلة على أرض المغرب الأوسط ، وهذا مكافأة ومكسب سياسي كبير تحصلت عليه

هذه الأسرة من طرف الخليفة الفاطمي الأول نظير الجهود الكبرى التي بذلتها في نشر الدعوة والحفظ على أمن الدولة واستقرارها .

- يمكن اعتبار البيت الحمدوني بيت مغرب أوسطي، ذلك أن ذروة نشاط هذه الأسرة خلال العصر الوسيط كان على أرض المغرب الأوسط وهذا قبل سنة 280هـ/893م، واستمر إلى غاية 260هـ / 873م أي بأكثر من 80 سنة .

الهوامش:

1 جذام: قبيلة عربية من قبائل اليمن، وهم بنو جذام، وهو عمرو بن عدي بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهم أول من سكن مصر من العرب، حيث دخلوها رفقة الصحابي الجليل الفاتح عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان أول حضور لهاته القبيلة في الأندلس عبر اشتراكها في حركة الفتوحات الإسلامية حيث استقر أفرادها وبطونها في كل من: شدونة، تدمير، اشبيلية، كورة البيرة . ينظر: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تح - تع: عبد السلام محمد هارون، ج2، ط5، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1982، ص - ص: 419 - 422 .

2 أبي مروان حيان ابن خلف، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شرح: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2006، ص: 22 .

3 عبيد الله البكري، المسالك والممالك - الجزء الخاص ببلاد المغرب -، تح: زينب الهكاري - تق: أحمد عزاوي، السحب، الرباط، المغرب الأقصى، 2012، ص: 148 .

4 البيرة: وتسمى أيضا بيلبيرة، لبيرة، وهي أعظم كور الأندلس، وكانت تدعى في القديم بقسطيلية، نزلها وعمرها جند دمشق، وكان لها من الشهرة والعمارة، وأهلها من الثروة والعد، وبها من الفقهاء والعلماء ما هو مشهور. وفحصها مستطيل، وعدد قراها مائتين وسبعون قرية، وأعظم مدنها غرناطة، ينظر: أبي عبد الله محمد لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تق - مر - تع : بوزياني الدراجي، ج1، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص - ص:

171-181. مؤلف مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، تح: عبد القادر بوباية، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والبحوث، الجزائر، 2013، ص - ص: 163 - 165 . علي بن سعيد

- المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح - تع: شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1995، ص - ص: 91 - 122 .
- 5 ابن حيان، المصدر السابق، ص: 22 .
- 6 محمد اليعلاوي، بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هانئ الأندلسي، ع 24، مجلة الأصاله، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1984، ص: 49 .
- 7 يسميه عبد الرحمن ابن خلدون "بمحمد بن حمدون بن سماك الأندلسي" . أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط: خليل شحادة - مر: سهيل زكار، ج 4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000، ص: 42.
- 8 عن دور هاته الأسرة في حركة الصراع ما بين الأمويين والفاطميين. أنظر: أبي مروان حيان ابن خلف، المصدر السابق، ص - ص: 22 - 27 . نحلة شهاب أحمد، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2009، ص - ص: 122 - 138 .
- 9 الداعية أبو عبد الله الشيعي: هو أبي عبد الله بن الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي، أشتهر بالصنعاني كما أشتهر بالمحتسب والمشرقي، كان صاحب علم وفهم وذكاء، تلقى علوم الدعوة من ابن حوشب في اليمن، زمن هناك بعثوه إلى أرض كتامة بالمغرب الأوسط لنشر الدعوة الإسماعيلية والتحضير لقيام دولة الفواطم، واستطاع أن يقضي على ملك: الأغالبة، وبني رستم، وبني مدرار، توفي مقتولا من طرف الخليفة عبيد الله المهدي سنة 298هـ/911م . ينظر تقي الدين المقرئزي، المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987، ص: 25 . شمس الدين ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، مج2، دار صادر، بيروت، لبنان، ص: 192 . علي حسني الخربوطلي، أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، مصر، 1972.
- 10 القاضي النعمان ابن حيون المغربي، افتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، ط2، الشركة الوطنية للتوزيع، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1968، ص: 40 .
- 11 نفسه، ص: 42 .

12 كان المسجد أحد أهم المؤسسات التي اعتمد عليها دعاة الإسماعيلية الأوائل في بلاد المغرب في نشر دعوتهم وهذا قبيل ظهور مجالس الدعوة، وكان أحد هاته المساجد هو الذي تم بناءه في المغرب الأوسط بالقرب من الحدود الشرقية للمجالات الكتامية بعيدا عن أعين السلطة الأغلبية المتمركزة في كل من ميلة و سطيف، وهذا المسجد هو للداعية الحلواني . أنظر: القاضي النعمان، نفسه ، ص - ص: 26 - 29 .

13 مجالس الحكمة: تسمية تطلق على تقليد التعليم الذي وضعه الإسماعيليون، كانت هاته المجالس في صورتها الأولى تسمى "بمجالس الدعوة"، و مؤسسها الأول هو الداعية أبي عبد الله الشيعي:" الذي تجرد بنفسه لهاته المجالس، وكان يجلس في كل يوم للمؤمنين يحدثهم ويشرح لهم ، وأمر الدعاة بذلك"، وكانت مخصصة لصالح المستجيبين الجدد، ثم تطورت هاته المجالس بعد قيام الدولة ، وأصبحت برامجها تتعلق "بعلم الباطن" حيث تخرج منها كبار الدعاة ، ومن أهم من جلس للتدريس في هاته المجالس في الطور المغاربي من عمر الخلافة الفاطمية: القاضي النعمان ابن حيون المغربي، والخليفة المعز لدين الله الفاطمي، أما في الطور المشرقي فإن هاته المجالس تحولت في أشكالها، وتعددت في برامجها والعلوم المتداولة فيها، ومن أهم من جلس للتدريس فيها: الخليفة الحاكم بأمر الله، داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي. أنظر: فرهاد دفتري، معجم التاريخ الإسماعيلي، تر: سيف الدين القصير، ط1، دار الساقى - معهد الدراسات الإسماعيلية، بيروت، لبنان - لندن، بريطانيا، 2016، ص: 252. فيرينا كليم، مذكرات رسالة العلامة الإسماعيلي رجل الدولة والشاعر المؤيد في الدين الشيرازي، تر: شارل شهوان، ط1، دار الساقى - معهد الدراسات الإسماعيلية، بيروت، لبنان - لندن ، بريطانيا، 2005، ص - ص: 142 - 162. المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، المجالس المؤيدية، تح - تق: مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دت . القاضي النعمان ابن حيون المغربي، المصدر السابق، ص: 146 .

14 عبد الرحمن ابن خلدون، ج4، المصدر السابق، ص: 42. إلا أن عبد الرحمن بن خلدون لم يميز بين محمد بن حمدون وبين علي بن حمدون أخيه ، وعدهما شخصا واحد بل إن له رواية شاذة في تاريخ ابتداء دعوة أبي عبد الله الشيعي حيث يؤرخ لها ابتداء من سنة 288هـ . أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، نفسه، ص: 42.

15 عن بذور التشيع ودور العلويين في نشره على أرض المغرب الأوسط . أنظر: إسماعيل سامعي، قضايا تاريخية في تاريخ المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص - ص: 49 - 60 . موسى لقبال ، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس هجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، دت، ص - ص: 205 - 215 .

16 جعفر الصادق: هو جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، لقب بالإمام الصادق وبشيخ بني هاشم ، كان مولده سنة 80هـ بالمدينة المنورة، وأمه هي أم فروة و ترجع بنسبها إلى خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حدث عن أبيه وعن مجموعة من تابعي المدينة ، كان مخضرمًا حيث عاصر الخلفتين: الأموية والعباسية، عرف عنه حكمته وسداد رأيه وابتعاده عن السياسة حيث انه لم يشارك في الثورات العلوية ضد الخلفتين بل على العكس فقد كان مهتمًا بتدعيم الحياة العلمية والرد على الرافضة والزنادقة وقد تتلمذ علي يديه كبار علماء الأمة من أمثال الإمام مالك بن أنس والإمام أبي حنيفة. أنظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط - حسين الأسد، ج6، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1982، ص - ص: 255 - 270 . مجموعة من المؤلفين، قلاع العقل - دراسات إسماعيلية وإسلامية تكريمًا لفرهاد دفتري -، تحرير: عمر علي - دي - أونثاغ، تر: سيف الدين القصير، دار الساقى - معهد الدراسات الإسماعيلية ، بيروت، لبنان - لندن، بريطانيا، ط1، 2014، ص - ص: 101 - 123.

17 قال عنه ابن حبان أنه: " كان من سادات أهل البيت فقها علما وفضلا، وقد اعتبرت حديثه من الثقات عنه، فرأيت أحاديثه مستقيمة ليس فيها شيء يخالف حديث الأثبات، ومن المحال أن يلزق به ما جنت يدا غيره" وترجم له الذهبي وذكر أن الإمام أبو حنيفة الذي درس على يديه سنتين قال عنه:" ما رأيت أفقه منه، وقد دخلني له من الهيبة ما لم يدخلني للمنصور" . أنظر: محمد بن حبان، تقريب الثقات، تح: خليل بن مأمون سيخا، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2007، ص: 310. شمس الدين الذهبي، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تق - تع : محمد عوامة ، تح: أحمد محمد نمر الخطيب، ج1، ط1، دار القبلة للثقافة الإسلامية - مؤسسة علوم القرآن، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992، ص: 295 .

18 ذكر القاضي النعمان العديد من الشخصيات الكتابية وحتى العربية والتي عاصرت وشهدت كل من الدعوتين نذكر منها: أبو عبد الله أبو حيون المعروف بأبي المفتش، أفلح بن هارون الملويسي، زوجة يحيى بن يوسف والمعروف بابن الأصم الإيجاني، أم موسى بنت الحلواني، أنظر: القاضي النعمان ابن حيون المغربي، المصدر السابق، ص: 30، 131، 132 .

19 سوجمار: وردت في المصادر بالصيغ التالية: سوف جمار، صوف جمار، سوق حماد، سوق حمار، لم تحدد المصادر المتقدمة موضعها لها، إلا أن الجغرافي المتأخر ليون الإفريقي أورد مصطلح سوفعمار وقال أنه أحد الأودية التابعة لقسنطينة، لكن يستبعد هذا الرأي بسبب أن القاضي النعمان ذكر أن سوجمار هي الأرض الكبرى التي حوت الناظور وبعثبار أن الناظور حاليا تتبع ولاية قلمة فبالنتالي فإن سوجمار لا تبعد كثيرا عن قلمة . الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي - محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص: 55 . القاضي النعمان، المصدر السابق، ص: 29 .

20 الناظور: أشار إليها الإدريسي وذكر أنها حصن وجعل موقعه بين بجاية وقلعة بني حماد وهذا أمر مستبعد بسبب أن هذا الموقع بعيد كل عن المواضع التي دخلها الداعية الصنعاني وانتشرت دعوته فيها، في حين أن دعوة الحلواني وأبي سفيان كانت بين حدود افريقية ومتاخمة للبلاد الكتابية غربا، و المرجح هو ما ذهب إليه موسى لقبال أنها توجد بالقرب من قلمة في اتجاه سوق أهراس، وهو ما ذهب إليه أيضا محمد الطالبي بأنها تقع في قلمة بالقرب من سوق أهراس وأنه تواجد بها قديما منجم للزنك. الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، دت، ص: 262 . موسى لقبال، المرجع السابق، ص: 221 . محمد الطالبي، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي (184 - 296 هـ / 800 - 909 م) تع: المنجي الصيادي - مر - تد: حمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995، ص: 654 .

21 سماتة: قبيلة بربرية من فروع قبيلة نفزاوة كانت مواطنها جنوب افريقية وامتدت إلى أرض المغرب الأوسط، وقد سكن الكثير منها في قسنطينة، ولها فروع في المغرب الأقصى، وكانت الدعوة الشيعية في بلاد المغرب الأوسط أول ما ظهرت كانت في بلادهم المجاورة لكتامة حيث اعتنق الكثير منهم التشيع . عبید الله البكري، المصدر السابق، ص: 156 . عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، المملكة المغربية، 1968، ص: 307 . ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب

العرب، تح - تع :عبد السلام محمد هارون، ج2، ط5، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1982، ص: 497 .

22 محمد فياض، قيام الدولة الفاطمية- حركة التشيع الإسماعيلي وأثرها على تطور المشروع الشيعي -، ط1، دار العالم العربي، القاهرة، مصر، 2014، ص: 126 .

23 حجة الجزيرة: رتبة من مراتب الدعوة الإسماعيلية الهرمية تأتي في المرتبة الثانية بعد داعي الدعاة (الباب) ، وقد كانت مهمة الحجة في جزيرته والإقليم العامل عليه تتمثل في: "الحكم في ترتيب المراتب وارتضاء الآراء والإعتقادات على موازنة الخلق وإظهار تأويل الكتاب " ، وقد كان لبلاد المغرب أو كما تسمى في أدبيات الدعوة الإسماعيلية "بجزيرة البربر" وحجتها هو الداعية أبو عبد الله الشيعي، والذي كان عمله في بلاد المغرب يعتبر ذروة النشاط الإسماعيلي في مرحلة الدعوة، وقد عاصره في الدعوة مجموعة من الدعاة في باقي الأقاليم المتبقية وهي إحدى عشرة من أصل اثنا عشرة نذكر منهم: ابن حوشب: بلاد اليمن ، حمدان قرمط : جنوب العراق أبو حاتم الرازي: الري وإقليم الجبال، النسفي: بلاد خراسان وما وراء النهرالداعي أحمد حميد الكرمانى، راحة العقل، تح :مصطفى غالب، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1983، ص: 252 .
فرهاد دفترى، مختصر تاريخ الإسماعيلين، تر: سيف الدين القصير، ط3، دار المدى للثقافة والنشر، بغداد، العراق، 2010، ص - ص: 84 - 89.

24 أحمد بن إبراهيم النيسابوري، استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة في الجزائر لطلبه، نشر: إيفانوف، ع4، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، 1936، ص: 153 .

25 عماد الدين الداعي إدريس، عيون الأخبار - تاريخ الخلفاء الفاطميين -، تح: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ص: 88.

26 دار الهجرة: تعد أحد أهم حواضر جماعة الإسماعيلية ببلاد المغرب الأوسط مرحلة الدعوة، وتسميتها هي مدينة تازروت أو تاصورت كما عند صاحب سير الأئمة وأخبارهم، ومعناها في اللسان البربري "الصخرة الكبيرة" ، وكانت في مرحلة الدعوة تقع في عمق مجالات قبيلة غشمان، وقد أكسب الداعي انتقاله إليها وتحويلها إلى دار هجرة استياء وحقد فروع كتامة المعارضة له والتي أعدت لحملة كبرى بغرض تدمير المدينة والقضاء على الدعوة إلا أن الجماعة الإسماعيلية الساكنة فيها والمتحصنة بما قد استطاعت الانتصار، هذا الأمر أدى إلى استقرار الداعي فيها لمدة حيث بنى فيها

- قصرا وأقطع لأنصاره للسكن فيها . القاضي النعمان ابن حيون المغربي، المصدر السابق، ص - ص: 86 - 110 . أبي زكريا يحيى بن أبي بكر، سير الأئمة وأخبارهم، تح: إسماعيل العربي، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص: 165 .
- 27 القاضي النعمان ابن حيون المغربي، المصدر السابق، ص: 102 .
- 28 بوبة مجاني وآخرون، من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط1، قسنطينة، الجزائر، 2007، ص: 84 .
- 29 القاضي النعمان ابن حيون المغربي، المصدر السابق، ص: 146 .
- 30 عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 107 .
- 31 ذكر ابن حيان أن إسمه الحقيقي الذي سماه به أبوه هو ثعلبة، لكن الذي غير اسمه إلى علي هو أبو عبد الله الداعي، حيث نشأت بينهما صحبة ومودة، جعلت علي يتقدم ويرتقي على أقرانه ومن سبقه في في أمور الدعوة. ابن حيان، المصدر السابق، ص: 23 .
- 32 ميمونة بنت علاهم الجيملي: تنتسب ميمونة بنت علاهم الجيملي إلى قبيلة جيملة الكتامية، والتي تعد من أكبر بطون كتامة والتي تعود في نسبها إلى فرع غرسن بن كتم، وقد احتضنت جيملة الدعوة منذ البداية وكانت في عداد وعلى رأس البطون المؤيدة سياسيا للمشروع الإسماعيلي، فالداعية أبي عبد الله الشيعي استقر في أحد فروعها وهم بنوا سكتان إضافة لأن مضارها تقع في عمق البلاد الكتامية ذات الطبيعة الجبلية والتي تعرقل وصول القوات الأغلبية المعادية . أنظر:
- عبد الرحمن ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص - ص: 195 - 196 . بوبة مجاني ، دراسات إسماعيلية، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2003 ، ص: 151 .
- 33 ابن حيان، المصدر السابق، ص: 23 .
- 34 عبد الرحمن ابن خلدون، ج4، المصدر السابق، ص: 107 .
- 35 نفسه، ص: 107 .

36 محمد بن محمد اليماني، سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية ووصوله إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقادة، مج4، ج2، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، مصر، 1936، ص - ص: 107-133 .

37 عبيد الله المهدي: لا يزال تحديد نسب عبيد الله المهدي والخلفاء الفاطميين لغزا محيرا بين المؤرخين القدامى وبين الباحثين المعاصرين، بين من ينسبهم إلى سلالة آل البيت من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما، وبين من ينفي ذلك عنهم، إلا أن المتفق عليه حول عبيد الله المهدي أنه من مواليد سلمية بسوريا سنة 260هـ/874م، حيث نشأ بها وتولى إمامة الإسماعيلية فيها، وخرج منعا قاصدا بلاد المغرب سنة 289هـ/902م وتربع على عرش الخلافة برقادة سنة 297هـ/910م في عمر 36 سنة، بنى المهديّة واتخذها عاصمة له سنة 300هـ، جابهت فترة حكمه العديد من الثورات سواء من بطانته التي مهدت لقيام دولته أو من رعاياه المتعديين بين سنة وإباضية وقد نجح في القضاء عليها وافته المنية سنة 322هـ/934م، وهو يعتبر أحد أهم الشخصيات المؤثرة في التاريخ الإسلامي. عن نسبه وحياته أنظر: تقي الدين المقرئ، اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء، تح - تع: جمال الدين الشيبان، ط1، منشورات الحمل، بيروت، لبنان، 2016، ص - ص: 47 - 128. فرهاد دفتري، معجم التاريخ الإسماعيلي، المرجع السابق، ص - ص: 267 - 268. تقي الدين المقرئ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح - تع: جمال الدين الشيبان، ط1، منشورات الحمل، بيروت، لبنان، 2016، ص - ص: 47 - 128. هاينتس هالم، إمبراطورية المهدي وصعود الفاطميين (875-973م)، تر: محمد كبيبو، ط1، دار الوراق، بغداد، العراق، 2013. حسن إبراهيم حسن - طه أحمد شرف، عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الخلافة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، دت.

38 ابن حيان، المصدر السابق، ص: 23 .

الوجه الآخر لركب الحج في القرن 12هـ/18م الوجه السياسي و القتالي. د/ رشيد زين العابدين/جامعة محمد الخامس/المغرب.

ملخص:

يسعى هذا البحث من خلال شهادات حية لحجاج مغاربة، إلى إبراز أدوار غير تقليدية قام بها ركب الحج في القرن 12هـ/18م، و تتمثل في أدائه-عن قصد أو بدونه - أدوارا سياسية خدمت السلطة المركزية للبلاد التي انطلق منها، و أدائه أيضا أدوارا قتالية. وقد حاولنا تشخيص الأدوار السياسية بالتدليل في البداية على أن ركب الحج مثل تجمعا بشريا ضخما تعدادة بالآلاف احتاج إدارة تسييره. ثم قدمنا أدلة تاريخية بأن أمير هذا الركب- الرسمي - كانت تعينه السلطة المركزية و تصحب معه شخصيات ذات وزن سياسي تحمل معها هدايا ثمينة لجهات محددة. ثم عرضنا لعدد من الوقائع التاريخية التي ظهر فيها أن الركب منذ انطلاقة و حتى وصوله لمكة المكرمة و إلى حين عودته، كان يجسد أبهة الدولة و يؤدي أدوارا شبيهة بأدوار السفارة الرسمية نحو الخارج، مثل ربطه جسور التواصل مع حكومات البلدان الأخرى، أو اختباره الأوضاع السياسية لهذه البلدان. أما بخصوص الدور القتالي لركب الحج، فلم نجد صعوبة كبيرة في التدليل عليه، و ذلك لأن هذا الركب كانت تصحبه كتيبة عسكرية نظامية مسلحة بمئات البنادق للدفاع عن الأرواح و الأموال المنضوية تحته. فقدمنا شواهد تاريخية لعدد من المواجهات الدامية التي خاضها الركب ضد قطاع الطرق و ضد القبائل التي كانت تبتز الركاب و تتخذ من سرقة الحجاج تجارة لها.

Résumé:

Cette recherche, à travers les témoignages des pèlerins marocains, cherche à mettre en évidence des rôles non traditionnels accomplis par la caravane du Hajj au 18ème siècle, qui sont liés -intentionnellement ou non- à atteindre des rôles

politiques en faveur de l'autorité centrale, et atteindre aussi des rôles militaires. Nous avons essayé de diagnostiquer les rôles politiques en démontrant d'abord que la caravane du Hajj était comme un grand rassemblement humain qui a besoin d'une administration. Ensuite, nous avons présenté des preuves que le prince de cette caravane a été nommé par l'autorité centrale et l'accompagner par des personnes qui ont de poids politique qui portent avec eux des cadeaux précieux vers des destinations spécifiques. Ensuite, Nous avons présenté un certain nombre de faits qui montrent que la caravane, depuis le départ et jusqu'au retour, incarne la grandeur de l'État et atteindre des rôles similaires aux rôles de l'ambassade officielle vers l'extérieur, tel que découvrir et transfert des nouvelles sur la situation politique de ces pays. Quant au rôle militaire de la caravane, il est facile à le démontrer, parce que cette caravane était accompagnée d'un bataillon militaire armé avec des centaines de fusils pour défendre la vie et les fonds. Alors nous avons présenté un certain nombre d'affrontements sanglants entre la caravane et les bandits qui avaient l'habitude de voler les pèlerins.

كان ركب الحج (أو الركب المحمدي أو الركب الإلهي¹) في القرن 12هـ/18م، عبارة عن زحف جمع بشري ضخم في شكل مدينة متنقلة تضم الآلاف من الناس من الجنسين معا و من كل الفئات العمرية و من أصحاب مهن وطبقات اجتماعية مختلفة. و مثل - في حالة الركب الرسمي - إدارة محلية تؤدي أدوارا محددة لخدمة السلطة المركزية، كما مثل قوة عسكرية رادعة لأعدائه.

سنة 12هـ/18م، باعتباره تجمعا بشريا كبيرا يسيره أمير تعيينه - في حالة الركب الرسمي - السلطة المركزية وفق شروط محددة، فيؤدي أدوارا سياسية في الداخل و في الخارج، و اعتباره أيضا قوة عسكرية متسلحة بمئات البنادق لحماية الأرواح والأموال المنضوية تحته، بقتال و معاقبة قطاع الطرق والقبائل المعتدية عليه.

قبل عرض مضامين هذا البحث، ننبه بداية أنه كان يدخل مكة المكرمة في القرن 12هـ/18م ركاب متعددة قادمة من مختلف أقطار العالم الإسلامي. وقد قدم لنا عبد الرحمان الغنامي المزامزي الشاوي بمناسبة أدائه ركن الحج لعام 1729م لائحة بأسماء هذه الركاب، وهي الفاسي والجزائري والمصري والشامي واليميني والاطنبولي والعراقي والكوفي والبصري والهندي والعجمي والكنكي والقرماني والتكروري والقنارجي². أما الركاب التي صادفت حجة الزبادي لعام 1745م، فهي المغربي والجزائري والمصري والشامي والمديني واليميني والعراقي³. وتفرد ابن ناصر الدرعي بذكر ركب التوارك في حجته عام 1121هـ⁴. وتحدث الزباني و هو يؤدي حجه عن ركاب المصري والشامي والعراقي والسندي واليميني⁵. أما الدرعي فحدثنا في رحلته الحجية عن ركاب التونسي والجزائري والشامي⁶.

لا ننوي في هذه الدراسة تناول جميع هذه الركاب ضمن إشكالية البحث، ولكننا سنركز على ركاب محددة، مع تفاوت في مستوى تناولها حسب المبحث المقصود. و هذه الركاب هي المغربي (السجلماسي و الفاسي) والجزائري والتونسي و الطرابلسي والمصري والشامي.

أولا: ركب الحج مجتمع بشري ضخم يحتاج إدارة تسييره.

مثل ركب الحج في القرن 12هـ/18م زحف تجمع بشري ضخم تعداداه بالآلاف، و ذلك استنادا إلى أقوال حاج مغربي و هو محمد بن عبد السلام الناصري عند دخوله مصر عائدا من حجته لعام 1196هـ/1782م، وهي أن زهاء 2000 مغربي بقوا بمصر لم يحجوا لأنهم وصلوا متأخرين⁷. ولا يستغرب من هذا الرقم، فأندري رايونند أشار إلى أن أعداد ركب الحاج خلال القرن 18م كانت تتراوح ما بين 20000 و 60000 حاجا

في الركب الشامي، وبين 30000 و40000 حاجا في الركب المصري⁸. ثم ما أشار إليه محقق رحلة "إحراز المعلى" أن ركب الحاج عبارة عن زحف بشري كبير من الجمال الحاملة لمئات إن لم تكن آلاف الناس⁹.

و لم يكن الركب يضم فقط عوام الناس، بل ضم أيضا فئة من الأعيان، و بالأخص أفرادا من العائلة الحاكمة في ركاب الحج الرسمية مثل الركب الفاسي المغربي الذي كان يذهب ضمنه الأمراء كما هو الحال مع ركب 1101هـ/1690م الذي ضم الأمير المعتصم بن السلطان المولى إسماعيل وركب عام 1123هـ/1711م الذي سافر فيه أبو مروان بن المولى إسماعيل، وركب عام 1143هـ/1730-1731م الذي ضم والدة السلطان مولاي عبد الله السيدة خناتة بنت بكار المغافري وابنه سيدي محمد الأمير. وأرسل السلطان سيدي محمد بن الله عام 1182هـ/1768م ولديه مولاي علي ومولاي عبد السلام للحج مع هذا الركب. ووجه مرة أخرى هذا الأخير في ركب 1188هـ/1774م¹⁰. وحدثنا الناصري وهو عائد من الحج مع الركب السجلماسي بموضع "سيدي خالد" في ركب 1196هـ/1781م أن الركب الرسمي المغربي الذهاب للحج ضم اليزيد بن السلطان¹¹. ورحل إلى الحج مع ركب الشخص ذاته لسنة 1211هـ/1796م كلا من ابن السلطان مولاي سليمان وأخيه¹². و انطبق واقع إرسال الأمراء كذلك على الركب المشرقي¹³.

ثانيا: أمير ركب الحج قائد تعيينه السلطة المركزية.

أدرجنا إمارة ركب الحج كوظيفة دنيوية مثل صاحبها عنصرا من عناصر السلطة المحلية بعدد من البلدان الإسلامية خلال القرن 18م، لاعتبارات نظرية وعملية. فنظريا ميز لنا الماوردي في الولاية على الحج بين نوعين: الولاية على تسيير الحجيج والولاية على إقامة الحج، ووصف الأولى بأنها ولاية سياسية¹⁴. و عمليا كان تسيير الركب يتم بطاقم إداري يعين أميره في الركب الرسمي المغربي من قبل السلطان أو بالاستشارة معه¹⁵. وعين أمير الركب الشامي من قبل السلطة المركزية باستانبول، و عين أمير ركب الباشوية العثمانية من قبل الباشا الحاكم¹⁶.

ففيما يتعلق بمسألة التعيين أخبرتنا الرحلة الحجية المغربية في القرن 18م، أن قائد ركب الحاج المغربي الرسمي كان يعين من قبل السلطة المركزية و وفق شروط و يحمل لقب أمير عند إختياره¹⁷ ويعد من خدام السلطان¹⁸. و استأثرت بإمارة هذا الركب وتوارثتها في هذه الفترة عائلات محددة، كما هو الحال مع عائلة عديل مثل ما أخبرنا بذلك أحمد بن ناصر في حوالي 1709م، إذ كان أمير الركب الفاسي "هو الحاج عزوز عديل"¹⁹. وبعد مضي حوالي 24 سنة على ذلك أكد لنا الإسحاقى أن إمارة الركب لعهد "فما قبله منذ أربع أو خمس وعشرين سنة في دارهم مع إخوانه من والدهم السيد محمد عديل ... والشيخ عبد الخالق أمير الركب هذا العام(1737)"²⁰. وأخبرنا أبو مدين الدرعي في عام 1740 أن شيخ الركب الفاسي القادم من الحج هو ولد عديل²¹. وحتى في ركب الحج غير الرسمي وهو الركب الفلاي، فقد كان لأميته علاقة بنسب الأسرة الحاكمة كما حصل زمن حجة أحمد بن محمد بن ناصر الثالثة أنه "الشريف مولانا عبد الهادي بن دريس"²². وأن أميره في حجة الحضيكي هو "مولاي الشريف"²³. وأميره سنة 1781 هو "مولاي علي بن محمد الحسنى العلوي البوعامي"²⁴.

وكان من شروط تولي إمارة الركب توفر الأمير على عدد من المواصفات، منها "الخلق و لين الجانب مع الحجاج والرفق بالضعيف منهم ومواساة من يحتاج إلى المواساة"²⁵.

وكان يحدث أن يدعو سلطان البلاد لجمع قوافل الحج في الشمال والجنوب لتكوين قافلة واحدة تعبر طريق تازة في اتجاه المشرق²⁶.

وحول أمير الركب المشرقي، حدثنا حجاج مغاربة أنه كان يعين هو الآخر من قبل السلطة المركزية باستانبول²⁷، أو من قبل باشوات الإيالات²⁸، وأنه حمل لقب "الوزير"²⁹ أو "الأمير"³⁰ أو "الباي"³¹. وحدثونا أيضا بمناسبة تواجدهم في مصر عند خروج المحمل أن الباشا هو من كان يخلع على أمير الركب المصري الخلعة تعيينا له في هذه المهمة³².

وحدثونا عن أمير الركب الشامي سنة 1782م أن "أميره في الوقت لا يد فوقه، يده عند السلطان"³³. وهذا الأمير عد في باشوية مصر في أواخر القرن 18م ثاني منصب مهم في السلطة بعد منصب حاكم القاهرة "شيخ البلد"³⁴.

ولم يتوحد الرحالة المغاربة في توصيف أمير ركب الحج المشرقي من المنظور الأخلاقي لتقريبنا من مدى صلاحه لهذا المنصب الحساس والخطير. فأمير الركب الشامي حسب قول الهشتوكي في حجته عام 1121هـ/1709م غير جدير بالمهمة بخلاف أمير المصري " فإنه رجل صالح متواضع، يحب أهل الخير من العلماء والصالحين والفقراء"³⁵. وجاء الإسحاق في من بعده ليصفه بالظالم خلال حجته عام 1143هـ/1730-1731م³⁶. لكن الناصري تحدث عنه بإيجاب عام 1196هـ/1782م³⁷.

ومن المعلوم أن هذا المنصب الديني اعتبر في ولاية مصر واحدا من أهم الوظائف³⁸، واستطاع المماليك احتكاره ضمن هيمنتهم على المناصب الهامة في هذه الباشوية³⁹. وقد أشار الناصري في حجته الثانية أن أمير الركب المصري هو من "الغز" أي المماليك⁴⁰. ولدينا إشارة واحدة فقط من الرحلة المغربية تكشف عن الامتيازات التي كانت تمنح لأمير الركب المصري وهي المتعلقة بأخذ الكسوة القديمة للكعبة المشرفة مناوبة مع سلطان مكة⁴¹.

ثالثا: ركب الحج تجسيد لأبهة الدولة و تأكيد لحضورها و سفارة غير رسمية لها نحو الخارج.

نقصد بخدمة السلطة المركزية في هذا البحث، الأدوار السياسية التي أداها ركب الحج الرسمي لسلطة بلاده المركزية. و يمكننا اختصارها كالاتي:

- ركب الحج: تجسيد لأبهة الدولة.

مثل الركب الرسمي المغربي في القرن 18 رمز أبهة الدولة وحضورها. فكان "يوم خروج الركب من فاس يوم موعود مشهور قل من يبقى بالمدينة إلا خرج.. وكذلك يوم قدوم الحاج ودخوله يحتفل له أهل المدينة المذكورة (فاس) احتفالا كبيرا"⁴².

من جهة أخرى كانت ترسل ضمن هذا الركب شخصيات رسمية لمنحه مزيدا من الأهمية وللإعلاء من شأن الحج ولتمثيل حضور سلطة الدولة في المناطق التي يمر بها الركب⁴³. كما كان يعين ضمن هذا الركب أمين الصرة الموجهة للحرم المكي⁴⁴. وفي الجبهة الأخرى من الشرق شكلت مناسبة خروج المحمل⁴⁵ وتعظيمه⁴⁶ واحدة من المناسبات لإظهار قوة الدولة العثمانية⁴⁷ ولإبراز اعتنائها بالشأن الديني. وصوره هو ما نقلته لنا الرحلة المغربية عند تواجد الحجاج المغاربة بمصر قبيل الذهاب إلى الحجاز. وميزت في نقل المشاهد بين الخروج الأول والخروج الكبير للمحمل. فالخروج الأول يكون في النصف الأول من شهر شوال "يوم يؤتى بكسوة الكعبة المشرفة من دار الصناعة فتضرب سحابة على باب القلعة (قلعة الحكم) فيحضر الصناجق كلهم والولادة والأمراء والحكام والقاضي، كل واحد مع أتباعه. ولكل واحد مجلس معلوم في السحابة المضروبة ومجلس الباشا في الوسط وعن يمينه مجلس القاضي، وكلما أتى واحد من الأمراء وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود له"⁴⁸. أما الخروج الكبير فيطابق يوم 26 من شوال ويعد يوما من "من أيام الزينة ويجتمع له الناس من أطراف البلد... ويجتمع الأمراء والصناجق والجند جميعا على الهيئة المقدمة في الخروج الأول إلا أن هذا أتم احتفالا. فإذا تكامل جمع الأمراء على الوجه المتقدم... يحضر ذلك جميع من في الميدان، كل طائفة لها أمير متقدم عليها من الطباقين والفراشين... فإذا مر جميع ذلك بين يدي الباشا جاءت أرباب الطوائف ... بشيخهم ولوائهم رافعين أصواتهم بالذكر، كالقادرية والرفاعية والبدوية والسوقية، حتى السعاة يأتون بشيخهم ... ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل والعسكر وسط المدينة والناس يشرفون من الديار والمساجد... ويتعطل غالب الأسواق في ذلك اليوم"⁴⁹. ويتضمن خروج المحمل كذلك تعين أمين الصرة الذي يخرج في مقدمة الركب و" معه الوزير والأمراء وأهل المناصب كلها وأعيان الناس وعامتهم، بطول ومزامير وطرنبات والخمسة والخمسين والهندقة"⁵⁰.

و يدخل ضمن لوازم المحمل في إطار إظهار أبهة الدولة واهتمامها بالشأن الديني تكفل الركب المصري سنويا بإعداد كسوة الكعبة المشرفة وكسوة مقام إبراهيم عليه السلام. ويتكفل الركب الشامي بكسوة الحجرة النبوية مرة واحدة في ولاية كل سلطان العثماني ويجدها من يعقبه⁵¹. وكان ولاية مصر يخصصون لكسوة الكعبة مبالغ مالية ضخمة حسب ما نقله لنا أحمد بن ناصر الدرعي عن نقيب هذه الكسوة بهذا البلد السيد عبد الرؤوف الذي أخبره سنة 1121هـ/1709م أن تكلفتها هي 220 ألف كيس⁵². وعلى طول الطريق إلى الحجاز يستمر الركب في إظهار هذه الأبهة⁵³ كإيقاد المصابيح والشموع في كل بندر من البنادر التي يمر بها⁵⁴ وإيقادها حتى بالحرم الشريف كما نقل لنا الإسحاقى أخبارا حوله سنة 1731هـ من أن أمير الركب المصري استكثر الشموع به لـ "إضاءة المشاهد المكرمة"⁵⁵، فضلا عن تفاخر كل ركب بما لديه من أموال وعدة عسكرية⁵⁶ أمام القبائل التي كان يمر بها وأمام باقي ركاب الدول والأقاليم الأخرى عند وصوله الحجاز. فبمكة المكرمة كان الركبين المصري والشامي يقومان في الليلة الثانية من ليالي "منى" باحتفال كبير يتمثل في "إيقاد المصابيح واتخاذ المصانع منها وصور الأشجار والأخبية وإكثار الرمي بالبنادق والمدافع والمحارق المرتفعة... وهذا الاحتفال شبيه باحتفالهما كذلك بليلة الوقدة ببدر⁵⁷، وهي ليلة وصفها الزبادي بدوره بأنها تشعل فيها الشموع والمصابيح ويطلق فيها الركبين المدافع والمحارق⁵⁸.

- ركب الحج: بعثة سفارية غير رسمية نحو الخارج.

استغلت مسيرة ركب الحج-الرسمي المغربي- مناسبة لإيصال مساعدات وهبات لجهات وعناصر محددة متواجدة على طريقه في اتجاه المشرق، لأهداف قد تكون إنسانية محضة ولأهداف سياسية كذلك.

ليس بإمكاننا الحكم على مجموع نشاطات أعيان الركب ذات الظاهر الإنساني أنها تدخل فيما هو إنساني محض أو سياسي محض أو نفيه بالمقابل. و عليه سنعرض في فقرة

أولى للجزء من هذه النشاطات الذي نميل للقول أنه ذا طابع سياسي واضح، و نعرض في فقرة أخرى للجزء الذي يحتمل التأويل مع ميلنا نحن لطابعه الإنساني.

تبرز المهام السياسية الواضحة التي أداها ركب الحج المغربي عن قصد أو بدون، في نقل الركب أو إيصاله معلومات سياسية عن الآخر أو إليه. ومن أمثله ما نقله الوزير الإسحاقى و هو ضمن ركب 1143هـ/1730م، عندما حل بالبلاد الجريدية واقترابه من موضع "عبد المجيد ومعه الأمير سيدي محمد الأمير، من أن الأمير السيد بوزيد العباسي" تلقى.... لولد سيدنا... فاحتفل الناس... وقلنا له- يقول الإسحاقى- السلطان مولاي إسماعيل قدس الله روحه كان يحبكم بني العباس وكاتبكم كم من مرة وكان يحبكم لأجل نسبتكم المباركة إلى سينا العباس بن عبد المطلب... ولأجل أنفتكم من أحكام الترك... وقلنا له سيدنا مولانا السلطان مولانا عبد الله نصره الله لا علم له بأنك بهذه البلاد الجريدية وإلا لكتب لك بتجديد عهد والده معك ففرح... وأهل هذه المناطق يسمونه السلطان وينصرونه"⁵⁹. كما برز الطابع السياسي للركب في إخبار الإسحاقى أن الأعراب كلها تألفت في بلدة بسكرة "ودخلوا تحت طاعة مولانا نصره الله، وألسنتهم يودون لو وصلتهم عماله"⁶⁰.

هل الركب الرسمي المغربي بهذا المعنى إذن هو موفد غير رسمي للتواصل مع عرب الإيالات العربية التي كانت تعاني تمييز الأتراك و تحن لحكم عربي؟.

يزكي هذا الاحتمال الانطباع الذي كونه محمد ابن عبد السلام الناصري و هو بالقنادسة الجزائرية زمن رحلته الحجية الأولى عند عودته. فهو الذي تحقق له الخبر "أن السلطان أمير المؤمنين سيدي محمد بن اسماعيل بسجلماسة... وقد اهتز هذا الشرق (شرق المغرب و غرب الجزائر) وما يليه من بلاد الظهر لأجله نصره الله"⁶¹.

و ليس بالضرورة أن كل فرح بمقدم الركب المغربي من قبل أهالي الإيالات المغاربية هو نكايه في الحكام الأتراك- و هو أمر حاصل لا يمكن نكرانه-، لكن الترحاب أظهره أيضا حتى حكام أو عمال هذه الإيالات، مما يعني أن الركب كان سفير ود غير رسمي لحكام آخرين.

لقد أرخت لنا الرحلات الحجية لنشوء علاقات ودية بين الحكام المغاربة و عامل بسكرة الجزائرية عبر وساطة ركب الحج. فهذا العامل " خرج... مع أهل البلد لملاقاة ولد سيدنا نصره الله- الأمير سيدي محمد بن عبد الله المرافق لركب الحج المغربي- مع جدته.. وأظهروا من الفرح والسرور شيئا كثيرا"⁶². و انطبق شكل هذه العلاقات مع حكام إيالة طرابلس و خصوصا في عهد السلطان مولاي عبد الله، كما أفصح عنه الإسحاقى عند حلول الأمير سيدي محمد بن عبد الله رفقة جدته السيدة خناتة بالإيالة أنه "خرج صاحب البلد وحاكمه أحمد باشا في لمة من أصحابه مع أهل البلد رجالا ونساء... مظهرين الفرح والسرور بولد سينا نصره الله وبوفد الحجاج، وأخرج مدافع كبار.. على عادة أهل البحر في التسليم و... احتفل الباشا في ضيافة ولد سيدنا نصره الله مع أمه أعزها الله غاية الاحتفال"⁶³. وبالمقابل " فقد كافأته (خناتة) عليه (باشا طرابلس على حسن ضيافته) وأضعفت له الجزاء على ضيافته أضعافا مضاعفة، فقد أعطته عطاء ملوكيا يستغرب في بلده وغيره"⁶⁴. كما تصدقت السيدة على الفقراء والمساکن بزواوية زروق⁶⁵. والوقائع التي حكاها لنا الإسحاقى حول سلوك الباشا أحمد أكدها لنا إخباري ليبي معاصر وهو ابن غلبون، حيث ذكر لنا من جهته أنه لما حلت هذه السيدة بالايالة في شهر شعبان من عام 1143هـ/1730-1731م أكرم حاكم البلاد موكبها عند النزول وأعطها 50 بغيرا عندما همت بالانصراف للحج، وراسل عماله في البلدان بتقديم ما تحتاج إليه، وكرر سلوكه معها لما قدمت من حجتها سنة 1144هـ/1731م⁶⁶. وبعد حوالي 65 سنة على رحلة الإسحاقى نرى استقبالا آخر يخصصه حاكم البلاد الباشا يوسف عندما تعرض لركب الحج المغربي في مدينة الزوارات ب 500 فارس "فاظهروا من الفرح والسرور و اللبم والخيل... وما قط أسلافه فعلوا هذا مع أحد" ترحيبا بالركب الذي يضم ابن السلطان المولى سليمان وأخيه والناصري. وأمر الباشا من في إيالته بضيافة الركب السلطاني كذلك⁶⁷. وضيف أمير تونس الباشا حمودة بن علي باي بدوره الرحالة محمد بن عبد السلام الناصري في عودته من رحلته الحجية الثانية⁶⁸.

أما جزء نشاطات الركب المغربي التي قلنا أنها تحتمل التأويل بين الإنساني أو السياسي، فمنها ما حصل مع ركب الحج لعام 1143هـ/1730م الذي كان ضمنه سيدة من البيت السلطاني و هي السيدة خناتة بن بكار المغافري. فعند حلولها بمصر تصدقت على الفقراء عند تواجدها بالقاهرة بمناسبة عيد المولد النبوي⁶⁹. و لما حلت بأرض الحجاز ودخلت بلدة ينبع والتقت بشرفائه "فرحت بهم وكستهم كساوي مليحة من الملف والكتان وحزم وأكرمتهم ودفعت لهم (...). مائين مثقال ذهباً مطبوعة، كانت تأتيهم أيام مولانا أمير المؤمنين مولانا اسماعيل رحمه الله، وأعطتهم مائة مثقال ذهب من عندها، خمسين للشرفاء وخمسين للشريفات أولاد غيثة (أو عيشة؟)"⁷⁰. واشترت لما حلت بمكة داراً "بشمن يقرب من ألف مثقال ذهب مطبوعة، وحبستها على من يقرأ الختمة من القرآن في يوم واحد، وهم جماعة من الطلبة عينوا لذلك والتزموا القيام به، وعلى من يدرس صحيح البخاري"⁷¹. كما اهتمت السيدة بعلماء المدينة المنورة ومكة المكرمة، ومنهم الشيخ محمد الطبري إمام المقام الخليلي، وكان كتب لها كتاباً مؤرخاً بعام 1143هـ/1730م لقبها فيه بالملكة خناتة⁷². وفي هذا الإطار نفهم سياق قصائد المدح التي خص بها عدد من العلماء من خارج المغرب السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ومنها ما أثبتته لنا محمد بن عبد السلام الناصري الذي رحل حاجاً عام 1211هـ/1796م⁷³. كما أثبت قصيدة للشيخ المرتضي الحسيني الحافظ يعزي فيها مولاي سليمان في وفاة والده سيدي محمد بن عبد الله⁷⁴. وحدثنا الرحالة من جديد أن هذا السلطان أرفقه هو الآخر وهو في طريقه إلى الحج بكتاب "يعين فيه كيفية تفرقة صدقة الحرمين"⁷⁵، للشرفاء والعلماء والمؤذنين والفراشين وسدنة الكعبة المشرفة⁷⁶. وكانت معه صدقة أخرى تفرق أيضاً على العلماء وأرباب الطوائف، من الوفايين والبكريين والعمريين وطلبة الأزهر وغيرهم بمصر⁷⁷. وهذا السلوك سبق للسلطان المولى المولى إسماعيل والسلطان المولى عبد الله أن قاما به مع هذه الفئة من المجتمع المصري عبر الركب الرسمي المغربي كما يفهم ذلك من إفادات أحد السائرين ضمنه و هو الإسحافي الذي أخبر أن الإعانات السلطانية أخذت طريقها إلى

"السادات البكريون، فعادتهم الجارية لهم على عهد مولانا إسماعيل قدس الله روحه، فهي عشر سبائك كبيرة من الذهب، مائة مثقال كبيرة في كل سبيكة. وجدد لهم رسمها وحكمها أمير المؤمنين مولانا عبد الله نصره الله. فهي تصلهم كل سنة على يد أمير الحاج السيد عديل"⁷⁸، وأن بينهم "وبين مولانا مولاي عبد الله نصره الله و بين والده مولانا إسماعيل رحمه الله المحبة والصدقة والعهد الذي لا يتحول"⁷⁹.

سفير إذن أو موفد غير رسمي خارج البلاد، هو ركب الحج المغربي في القرن 18م. ما بشأن الدور السياسي للركب المشرقي؟.

شاهد هذا الدور في الركب المشرقي، أن ركب الحج أعتبر أيضا وسيلة للقيام بعدد من النشاطات السياسية. لقد كان الركب الشامي هو من تكفل بنقل الآلة والخلعة ل"ثائر قرطغراو" الذي ضاق حكام استانبول بتمرده فنصبوه "وزيرا" على المناطق الكردية⁸⁰. وأخبرنا الناصري في حجته الأولى أن أمير الركب الشامي قام بعمل إداري محض عام 1781 وهو تعيينه لحاكم مكة⁸¹. و كان هذا الأمير يتقلد منصبا سياسيا آخرا إلى جانب منصبه كأمر الركب وهو منصب حاكم دمشق⁸².

بقي الإشارة إلى مهمة خطيرة كان يقوم الركب المشرقي المصري في القرن 18م وهي جمع المكوس في طريقه. وهذه من الإشارات القوية التي جعلتنا نعتبر ركب الحج سلطة محلية. وشاهد هذه السلطة الجبائية ما حدثنا به الناصري في رحلته الصغرى عن أمير الركب المصري، قاسم باي الغزي، الذي كان يقبض المكس في "بندر العقبة" عند العودة من الحجاج المغاربة وغيرهم. "وقد كان قبض من أهل فاس- سنة 1796م- بالخصوص سبعمائة ريال، وبالمدينة المنورة أحد عشر ريال... ظلما وعدوانا، ومكسا في مدينة الرسول"⁸³. بل سبق أن تحدث الإسحاقى عن هذا السلوك بحق أمير هذا الركب عام 1143هـ/1730-1731م وإن لم يسمه⁸⁴.

- رابعا: ركب الحج قوة عسكرية رادعة.

صحب ركب الحج كتيبة عسكرية وازنة، سواء في المغرب أو في المشرق⁸⁵، لحماية
أرواح آلاف الناس وحماية الأموال التي كانت بالقناطر المقنطرة، كما قال الحضيكي أحد
السائرين مع الركب⁸⁶.

من أولى الإشارات التي وصلتنا من الرحلة في هذا الصدد، إشارة للهشتوكي عام
1121هـ/1709م بعدما تجاوز حجاج الركب المغربي موضع "مقرب" في الذهاب
بالأراضي الليبية أنهم تعرضوا لاعتداء، ف"اجتمع الركب كله بمدافعهم وعدتهم وأطلقوا
البارود والرصاص فخافوا (أولاد علي)"⁸⁷. أما الإسحاقى فتحدث عن جيش الركب
المغربي عام 1143هـ/1730-1731م وهو يستعرض قوته بالأراضي الليبية في صورة
احتفالية "فيمن معه من الوصفان عبيد البخاري.. ولعبوا بالبارود لعبا قضوا منه ترك
البلد وغيرهم العجب، ويعترفون أن لا قدرة لهم على ذلك اللعب ولا معهم من
الفروسية ما يقاوم ذلك"⁸⁸. وأخبرنا المؤلف في الإطار نفسه أن أمير الركب المصري
لذلك العام، وهو محمد باشا باي، طلب من الركب المغربي أن يسير معه لما يتوفر عليه
من فرسان، وذلك رغبة "في الاستظهار به على شياطين العرب أهل القفر بالحجاز
المتلصصين"⁸⁹. وبعد أكثر من 50 سنة من رحلة الإسحاقى تحدث محمد بن عبد
السلام الناصري سنة 1196هـ/1782م أن الركب المغربي استعد لمواجهة الأعراب
في "توزر" بما ينيف عن 500 بندقية⁹⁰. كما تحث عن تخريب أمير الركب السجلماسي
في وقت سابق السيد الحفياني، مدشر "المخيلي" الذي اعتدي فيه على الركب⁹¹. وعاد
الناصرى ليزكرنا في حجته الثانية أي بعد مضي حوالي 15 سنة من رحلته الأولى، بوجود
فرسان ترافق الركب المغربي⁹².

وبالنسبة لركب الحج الرسمي المصري أو الشامي، فقد كان يضم هو الآخر قوة
عسكرية لها أهميتها. فحولها أخبرنا الهشتوكي في رحلته أن الركب الشامي "معهم من رمات
المغرب نحو خمسمائة ومعه خيل كثير"⁹³. وهذا ما أكدده لنا الناصري في رحلته
الحجية الكبرى، وهو على الراجح يقصد بهم جنودا من إيالات الجزائر وتونس وليبيا⁹⁴.
ونكتشف ذلك أيضا في وصف الصميلي للركب المصري عند دخوله بندر ينبوع في

فخامة وضخامة" دالة على علو القامة.. ونشر الرايات والأعلام ما لا يحيط بوصفه ألسنة الأقاليم، وقدم أمامه جملة من العسكر وافرة... وأظهروا من السلاح الفائق والملابس الفاخرة... وجعل الأمير حوله من الأبطال ما حرك تلك الجبال، ومن الغيطات والأبواق...⁹⁵. وأبرزت لنا الرحلة الحجية مظاهر أخرى لهذه الإمكانيات العسكرية وهي تعرض لتنافس الركبين المصري والشامي في إظهار القوة بـ"عرفات مكة المكرمة"، كما أخبرنا بذلك المكناسي في حجته عندما "تقدم وزير الشام بمحله وعسكره وطوله وكذا باي مصر بمحمله وعسكره وطولهم تنقر والمزامير، والعسكر يخرج المدافع، وكل واحد من الفريقين يجهد في التقدم على الآخر"⁹⁶.

ومن صور استعمال القوة العسكرية لركب الحج المشرقي، تعدد مواجهاته في أماكن ومناسبات مختلفة مع الأعراب في القرن 18م، كما أخبرنا بذلك الهشتوكي وهو يتحدث عن أعراب الشام عندما "كسره (الركب الشامي) وهزمهم وقتل منهم قتلى كثيرين"⁹⁷. أو ما حصل في جبل "أحد" عند حجة أبي مدين الدرعي الثانية حين تعرضت الأعراب به للركب الشامي "فحاربهم وقتل عدة من أكابره و أسر عدة منهم"⁹⁸.

وحدثنا بعدها الناصري في رحلته الأولى عن أمير الركب المصري- وهو يقترب من موضع "بندر المويلح"- الذي قطع رؤوس عددا من المحاربين له⁹⁹. ونقل لنا المؤلف كذلك أخبارا حول واقعة "واد العقيق" عندما تعرضت أعراب "حرب" بالحجاز للحجاج في مضيق بين جبلين، "فاجتمعت الركاب المغربية مع المصري بعد أن تولى أمير مصر جمعها جبرا عليها. فقدم الطرابلسي لقوته ومنعته وشدته على الأعراب، والسجلماسي والتونسي والجزائري، وأما الركب الفاسي فقد دخل وسط المصري. فرتبت الجيوش وأخرجت الرماح وانعزل الركبان من خيل وبغالة وأخذ الناس أهبتهم للقتال"¹⁰⁰.

كما أخبرنا الرحالة ذاته في رحلته الثانية عن أمير الركب المصري أيوب باي الغزي الذي قطع رؤوس جماعة وافرة من المحاربين في موضع "السقيفة" بعد بلدة الينبع في الذهاب¹⁰¹.

و كان ركب الحاج يستبق أحيانا المواجهات التي قد تحصل مع الأعراب في طريق الحج، كما أخبرنا بذلك المكناسي - الذي كان يرافق الركب الشامي - مثلما حصل سنة 1787م بين موضع "الحسا" و"بركة عنتر" في اتجاه مكة على طريق الشام عندما "تقدم العسكر إلى هذا المكان خشية أن يتمكن به العرب فلا يترك الحجاج يسيرون حتى يرضونهم"¹⁰². وتقدم إلى مضيق بين موضع "معز" وموضع "الأخضر" في الطريق من دمشق إلى مكة - كما يقول المكناسي - قوم من العسكر خشية الاعتداء على الركب¹⁰³. وعند وصول هذا الأخير إلى قلعة "هدية" إلتقاه وزيرا معه جيش كثير وعدة دعما لأمير الركب عند العودة من الحجاز إلى الشام ليتقوى به على الأعراب¹⁰⁴.

و كان حكام مصر يداومون على دعم ومساندة ركبهم بالعدة والعتاد والمؤن في مواضع عديدة كموضع "الدار الحمراء"¹⁰⁵ وموضع "المغائر"¹⁰⁶.

وأخبرتنا الرحلة المغربية أيضا أن استعراض القوة العسكرية من قبل الركبين المصري والشامي وتنافسهما في ذلك كان يخلق في كثير من الأحيان حزازات بينهما، كادت أن تؤدي في بعض منها إلى مواجهات، مثلما صرح بذلك الصميلي و الإسحاقى من بعده وهما بـ "عرفات"¹⁰⁷.

خلاصة:

لم يكن مقصد هذا البحث إزاحة ركب الحج عن هدفه الأصلي، ألا و هو تشكيل جمع بشري منظم ومتضامن يتجه في جو إيماني صوب أراضي الحرمين الشريفين لأداء ركن الحج و استغلال المناسبة لزيارة قبر النبي (ص) و زيارة مزارات و مشاهد أخرى. ولكن مصاحبتنا لعدد من الركاب الحجية ذهابا و جئنا في القرن 12/18م، هو الذي كشفت لنا وجود أدوار أخرى غير الأدوار التقليدية لركب الحج. فلا يستغرب إذن دوره السياسي، لأن انطلاقته حملت معها هذا الدور. فالسلطة السياسية المركزية هي من عينت أميره، و هي من أسندت إليه توصيل الصرة الثمينة للحرم الملكي و توصيل أعطيات لجهات محددة، و هي من أرسلت معه كتيبة نظامية من الجيش لحمايته، و هي من فرضت في

فترات محددة على ركاب البلاد التوحد قسرا في ركب واحد ينطلق بإشارة السلطان. و قد قدمنا بالدليل التاريخي تجليات هذا الدور مشرقا و مغربا. أما الدور القتالي للركب، فهو تحصيل أمر واقع مادام هذا الأخير يغادر موطنه إلى مواطن أخرى و بصحبته أموال طائلة تغري قطاع الطرق والقبائل التي تتخذ من سرقت الركاب الحجية أو غيرها و من خطف المسافرين تجارة لها.

هوامش البحث:

- ¹ - تعبيرين أوردهما الهشتوكي: أحمد بن محمد بن داود الجزولي التلمي الهشتوكي، رحلة الهشتوكي، مخطوط بالمكتبة الوطنية للمغرب رقم 147ق، ص 25
- ² - عبد الرحمن الغنامي المزمزي الشاوي، رحلة القاصدين ورغبة الزائرين، مخطوط بالخزانة الحسينية بالمغرب تحت رقم 5656، ص 5
- ³ - عبد المجيد الزبادي المنالي، بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، مخطوط المكتبة الوطنية للمغرب رقم 398ك، ص 89.
- ⁴ - أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج1، الطبعة الحجرية، فاس، ص 147
- ⁵ - أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1991، ص 257.
- ⁶ - أبو مدين بن أحمد الروداني الدرعي، الرحلة الحجازية، مخطوط بالمكتبة الوطنية للمغرب رقم 297 ق ضمن مجموع من 20 إلى 208، ص 197
- ⁷ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، تقديم وتحقيق المهدي الغالي، أطروحة لنيل الدكتوراه (النسخة المرقونة)، كلية الآداب الرباط، 2011، ص 493
- ⁸ - «Les provinces arabes du XVIe-Raymond André- XVIIIe et Architecture des pays arabes à l'époque ottomane» in *Histoire de l'empire ottoman*, Fayard, 1989, pp370-371.

- ⁹ - محمد بوكبوط، "سفارة محمد بن عثمان المكناسي و مشاهداته في استانبول و الشام والحجاز 1786-1789"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس، سلسلة رسائل وأطروحات، 2004، ص194
- ¹⁰ - محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، مطبعة المخزن، تطوان، 1953، ص41. الشرقي بن محمد الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، مخطوط المكتبة الوطنية للمغرب، ميكروفيلم رقم 3724، ص29
- ¹¹ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص 695
- ¹² - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، مخطوط مؤسسة علال الفاسي، رقم 457ع، ص71.
- و أشار عباس الجراري أن نجل السلطان هو المولى أحمد وشقيقه هو المولى موسى: عباس الجراري، «مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية»، ضمن مجلة المناهل، ع10، مقال (44-66)، ص51
- ¹³ - يقول الزباني أن الباشا "خلع...على أمير الحج خلعة وعلى أمراءه الذاهبين معه": الزباني، الترجمانة الكبرى، صص209-210. وعند: محمد بن الطيب الشركي الصميلي، الرحلة الحجازية، نسخة مصورة عن مخطوطة خزنة جامعة لايسك بألمانيا تحت رقم746، صص 120 إلى 122.
- ¹⁴ - شروط الأولى عنده أن يكون مطاعا ذا رأي وشجاع وهيبة وهداية: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، الطبعة الأولى، 1989، ص139.
- ويرى المنوني أن العادة في أمير الركب الفاسي أن يختار أميره من علية الناس فضلا وأخلاقا وثروة وعراقة بيت: المنوني، من حديث الركب المغربي، ص30
- ¹⁵ - كان أمير الركب الفاسي في سنة 1113هـ هو الحاج جسوس، وهي أول إمارته (محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983،

- ص285). وأميره لسنة 1166هـ هو الحاج محمد الفلوس "لأن اعديل ضعف حالهم... فذهب أهل فاس فاستأذنه- السلطان- في شان الفلوس المذكور، فأذن لهم فيه (محمد بن أحمد الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، دار المآثورات، الرباط، 1986، ص156).
- ¹⁶ - يأتي توثيقه في فقرة موالية.
- ¹⁷ - الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص148
- ¹⁸ - نفسه، ص28
- ¹⁹ - ابن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج2، ص186
- ²⁰ - الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص28
- ²¹ - الروداني الدرعي، الرحلة الحجازية، ص76. محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، م.س، ص30.
- ²² - ابن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج1، ص186
- ²³ - محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق عبد العالي المدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط، 2011، ص83
- ²⁴ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص134
- ²⁵ - الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص29
- ²⁶ - محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز، سلسلة أبحاث، مطبعة منشورات عكاظ، 2011، ص274
- ²⁷ - بوكبوط، سفارة محمد بن عثمان المكناسي، ص188
- ²⁸ - الزباني، الترجمانة الكبرى، صص209-210. الصميلي، الرحلة الحجازية، صص 120 إلى 122
- ²⁹ - محمد بن عثمان المكناسي، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبرالحبيب، دراسة وتحقيق محمد بوكبوط، دار السويدى للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، ص283.

- ³⁰ - أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى..م.س، ص 257
- ³¹ - أطلق اللقب على أمير ركب الحج المصري: المكناسي، رحلة إحرار المعلى، ص 265
- ³² - الإسحافي، رحلة الإسحافي، صص 209-210. الصميلي، الرحلة الحجازية، صص 120 الى 122
- ³³ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص 376.
- ³⁴ - ناصر الأنصاري، المجلد في تاريخ مصر: النظم السياسية و الإدارية، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1997، ص 193
- ³⁵ - و يدعى هذا الأمير ب"باي إبراهيم": الهشتوكي، رحلة الهشتوكي، صص 245-258.
- ³⁶ - الإسحافي، رحلة الإسحافي، صص 249-250
- ³⁷ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص 376.
- ³⁸ - الأنصاري، المجلد في تاريخ مصر، ص 204
- ³⁹ - نفسه، ص 200
- ⁴⁰ - الناصري، الرحلة الصغرى، ص 104
- ⁴¹ - الإسحافي، رحلة الإسحافي، ص 237. الناصري، الرحلة الكبرى، ص 237.
- ⁴² - الإسحافي، رحلة الإسحافي، ص 27
- ⁴³ - يراجع الفقرة الأولى: ركب الحج مجتمع بشري ضخم بكل تناقضاته.
- ⁴⁴ - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج7، إشراف محمد حجي وإبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، المغرب، 2001، ص 76.
- ⁴⁵ - المحمل " قبة من خشب رائق الصنعة بخرط متقن وشبابيك ملونة بأنواع الأصباغ وعليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب. ورقبة الجمل وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم... ويتبعه جمل آخر مثل صفته، ثم الكسوة المشرفة ملفوفة قطعاً قطعاً": الزباني، الترجمانة الكبرى، صص 204-205. وإشارات أخرى عند: الصميلي، الرحلة الحجازية، ص 132
- ⁴⁶ - الروداني الدرعي، الرحلة الحجازية، ص 93

- 47- الناصري، الرحلة الكبرى، ص 333
- 48- ملاحظاته أثناء تواجده بمصر عائداً من الحج: الزباني، الترجمانة الكبرى، ص 204
- 49- الزباني، الترجمانة الكبرى، صص 209-210. الصميلي، الرحلة الحجازية، صص من 120 الى 122
- 50- الزباني، الترجمانة الكبرى، ص 174
- 51- كانت هذه الكسوة من الحرير الأسود وفيها بخط أبيض آيات من كتاب الله: الناصري، الرحلة الكبرى، ص 477. الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، صص 236-237
- 52- والكيس 500 قرش وثمان الحمل 7 أكياس، أي أن الجميع تصل تكلفته إلى 227 ألف كيس وهو ما يعادل 113500 قرش: ابن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج 1، ص 129
- 53- الصميلي، الرحلة الحجازية، ص 139
- 54- نفسه، ص 124
- 55- الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص 233
- 56- كانت أموال الركب الشامي و أموال الركب المصري بالقناطر المقنطرة كما قال الحضيكي: الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص 105
- 57- الناصري، الرحلة الكبرى، ص 375
- 58- الزبادي المنالي، بلوغ المرام، ص 81
- 59- الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص 47
- 60- نفسه، ص 59
- 61- الناصري، الرحلة الكبرى، ص 702
- 62- الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص 56
- 63- نفسه، ص 83
- 64- نفسه، ص 84
- 65- نفسه، ص 104

- ⁶⁶ - محمد بن خليل غلبون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الإخبار، إشراف أحمد الزاوي الطرابلسي، المكتبة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ص 201
- ⁶⁷ - الناصري، الرحلة الصغرى، ص 71
- ⁶⁸ - نفسه، ص 151
- ⁶⁹ - الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، صص 148 و 149
- ⁷⁰ - نفسه، ص 215
- ⁷¹ - الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص 311
- ⁷² - هو محمد بن علي بن فضل الحسيني الطبري إمام المقام الإبراهيمي سنة 1143. ينظر. نفسه، صص 313-314
- ⁷³ - قصيدة لأديب تونسي من 60 بيتا، جاء فيها:
وأكرم الخلق أفعالا و أخصبهم عقلا و أكملهم فطنة وأدبا
ومنه:
- أم المغارب إذا رمت نيل العلا أما ترى كل نجم طالع غربا
ينظر: الناصري، الرحلة الصغرى، صص 73 إلى 77
- ⁷⁴ - جاء فيها:
- ملك الملوك الصالحين وحرزهم بيت القصيد الملتجى والمقصد الصلح
نفسه، صص 31-32
- ⁷⁵ - الناصري، الرحلة الصغرى، ص 36
- ⁷⁶ - نفسه، ص 105
- ⁷⁷ - نفسه، ص 99
- ⁷⁸ - الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص 148
- ⁷⁹ - نفسه، ص 147
- ⁸⁰ - المكناسي، رحلة إحرار المعلى، ص 148. الزباني، الترجمانة الكبرى، ص 177
- ⁸¹ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص 416

⁸² - المكناسي، رحلة إحرارز المعلى، ص 247.
و عند رايونند أن مسؤولية قيادة الركب السوري كانت تعود لحاكم دمشق من عام 1708 وحتى 1918:

Raymond (A), Les provinces arabes, op.Cit.p371

⁸³ - الناصري، الرحلة الصغرى، ص 109
⁸⁴ - الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، صص 249-250
⁸⁵ - بوكبوط، سفارة محمد بن عثمان المكناسي، ص 199
⁸⁶ - الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص 105. الروداني الدرعي، الرحلة الحجازية، صص 56-75-83.

⁸⁷ - الهشتوكى، رحلة الهشتوكى، ص 226
⁸⁸ - الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص 84
⁸⁹ - نفسه، صص 205-206
⁹⁰ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص 689
⁹¹ - نفسه، ص 194
⁹² - الناصري، الرحلة الصغرى، ص 60.

نعرف كذلك وجود هذا السلاح الناري من خلال إشارات الهلالي وهو يتحدث عن سرقة بندقية من الركب في أحد المواضع: أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، الرحلة الحجازية، خزانة سيدي

عبد الله البلباني، كوسام، الجزائر، ص 27

⁹³ - الهشتوكى، رحلة الهشتوكى، ص 258

⁹⁴ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص 376

⁹⁵ - الصميلي، الرحلة الحجازية، ص 132

⁹⁶ - المكناسي، رحلة إحرارز المعلى، ص 265

⁹⁷ - الهشتوكى، رحلة الهشتوكى، ص 258

- ⁹⁸ - كلام الدرعي وهو بموضع "البيع" في حجته الثانية: الروداني الدرعي، الرحلة الحجازية، ص202
- ⁹⁹ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص 492
- ¹⁰⁰ - نفسه، ص463
- ¹⁰¹ - الناصري، الرحلة الصغرى، ص104
- ¹⁰² - المكناسي، رحلة إحراز المعلى، ص253
- ¹⁰³ - نفسه، ص253
- ¹⁰⁴ - نفسه، ص283
- ¹⁰⁵ - الناصري، الرحلة الصغرى، ص110
- ¹⁰⁶ - الناصري، الرحلة الكبرى، ص492
- ¹⁰⁷ - محمد بن الصميلي، الرحلة الحجازية، ص157. الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص236.

مظاهر العمران الاسلامي الصحراوي بوادي سوف

" الاعشاش نموذجاً "

أ/طرقاق الوردى/-جامعة باتنة -1- /قسم التاريخ والآثار

tertag1974@gmail.com

الملخص

إن فن تنظيم المدن ظهر وازدهر إثناء الحكم الإسلامي ، ويخضع تخطيطها إلى قوانين وأنظمة مرتبطة بوضعية المجتمع وأنظمة المختلفة حيث يستجيب فيه الشكل للمضمون. وعمران مدينة وادي سوف العتيقة بني انطلاقاً من معطيات تحكمت في شكل الشبكة العمرانية وتوسعاتها محددة نمط النسيج العمراني. فالتركيب العمراني لمدينة وادي سوف العتيقة يغلب عليه الطابع الإسلامي فكان يتدرج من البيئة العامة إلى الخاصة. فتكون الانطلاقة من الساحة العامة، المجال الأوسع الذي يمثل مركز التجمع السكان في المناسبات الكبرى والذي يظم مختلف المباني الدينية " كالمسجد " والاقتصادية والاجتماعية كالأسواق والساحات العامة، ومنها تنطلق الشوارع والدروب نحو الأحياء وإلى خارج القصر.

الكلمات المفتاحية: المدن الإسلامية - التخطيط العمراني - الساحة - المسجد -

السوق - الشوارع.

Résumé

L'art de l'urbanisme a émergé et a prospéré sous la domination islamique, et sa planification est soumise à des lois et règlements liés au statut de la société et aux différents systèmes dans lesquels la forme répond au contenu.

L'ancienne ville de Ouadi Souf a été construite sur la base de données déterminées sous la forme du réseau urbain et de ses extensions spécifiques au tissu urbain.

La structure urbaine de l'ancienne ville de Ouadi Souf est principalement islamique, allant de l'environnement général au spécial. Le point de départ de l'espace public est le centre de la population qui organise des événements religieux majeurs tels que « la mosquée », les marchés économiques et sociaux et les places publiques. Et les routes vers les quartiers et à l'extérieur du Elkser.

Mots-clés:

Villes islamiques – Urbanisme – Place – Mosquée – Marché – Rues

تمهيد

اشتركت مجمل المدن الصحراوية العتيقة في عامل حضاري له الأهمية بمكان إلا وهو الدين الإسلامي هذا العامل الذي كان له الدور الفعال في تحديد الأشكال الرئيسية لمعالم تكون المدينة ، حيث أنها أبرزت المساجد و حددت نوعية الساحات التي تحيط بها فالمدن العتيقة الصحراوية تميزت بتوجهها نحو الداخل من خلال عناصرها العمرانية المختلفة التي تكاد تكون ثابتة، حيث أظهرت هذه العناصر التعبير الفطري بعفوية وصدق عن المجتمع و احتياجاته و هي : المسجد ، الخدمات العامة ، المناطق السكنية ، شبكة الشوارع.

يعتبر القصر السوفي في مفهومه كتلة واحدة رغم تميز عناصره بوظائف مختلفة ، ترتبط هيكلته ارتباطا وثيقا بالتوزيع المجالي لمكوناته البنائية ، وتموقعها الذي تحدده وظيفتها وكذلك الحاجات الاجتماعية والاقتصادية لسكان القصر، المتميزة بأسلوبهم الثقافي والفكري الخاص بهم.

وتتشكل قصور وادي سوف عموما حول مركبات عمرانية عديدة "نقدمها من خلال حي الاعشاش " تتمثل فيما يلي

لايختلف حي الاعشاش عن بقية القصور الصحراوية من حيث الخصائص العامة، ويتكون القصر من حين مندمجين هما حي الأعشاش والمصاعبة، وهو يمثل النواة الأساسية لمدينة الوادي ، لذلك يمثل نموذجا أصيلا للعمارة السوفية القديمة، ولا تزال اغلب مبانيه مأهولة بالسكان ، كان قديما يتوسط الغيطان التي زالت بالتوسع العمراني على حساب مساحات زراعة النخيل.

المسجد:

المسجد من أهم المنشآت العامة في المدينة الاسلامية لما له من دور أساسي في حياة المجتمعات اذ يعتبر زيادة على الوظيفة التعبدية "مكان لاقامة الصلاة"¹، هناك وظائف اخرى ذات الارتباط بدور المسجد حيث ارتبط لعدة وظائف نذكر منها الأتي :

مركز ديني و اجتماعي تقام فيه الصلاة و يفسر فيه تعاليم الدين و دراسته و ملتقى للاجتماع الناس بساحته خمس مرات في اليوم.

- مركز سياسي لالتقاء الخطب و إذاعة الأخبار و ساحة للعدل و الحكم بين الناس و إقامة الحدود

- مركز ثقافي و تعليمي تقام به المناظرات و الحلقات العلمية بين العلماء و عليه فالمساحة التي تخدمها المساجد تتوقف على البعد بين المسجد والمدة الزمنية بين الآذان و الإقامة أي ان هناك حد أقصى للمساحة التي يخدمها المسجد أثناء التخطيط للمدينة و عليه فإن إحياء دور المسجد بالمدن العتيقة ليس فقط إحياء للقيم و المعايير التخطيطية للمجتمع بل إنه إحدى مقومات التي سيتم التأصيل من خدمتها للقيم الحضارية في بناء المدينة .

وحكمت هذه الاهمية للمسجد الجامع موضعه في المدينة باعتباره النواه الاساسية في تخطيطها حيث كان اول ما يختط ، ومن حوله كانت تخطط الخطط " الاحياء " وتنتهي اليها شوارعها ودروبها ن حيث يقع موقعه مباشرة بعد اختيار موقع المدينة أو القصر ، قبل أن تنطلق أشغال البناء الأخرى، وهي ليست قاعدة وسطية المسجد الجامع ، فقد يحتل موقعا خارج منشأة القصر ، في مكان تقام حوله السوق الأسبوعية ، وهذا راجع إلى إتاحة الفرصة للقادمين الأجانب الفرصة للصلاة وعدم الاختلاط بالسكان² .

يحتوي القصر على مسجد يعرف باسم المسجد العتيق، والذي يقع³ تقريبا باتجاه الجنوب الشرقي للمدينة العتيقة"حي المصاعبة وحي الاعشاش" متوسطا حي الاعشاش كموقع أساسي نظرا للدور الذي يلعبه كنقطة استقطاب وتوحيد لأطراف القصر فهو محاط بالبنائات السكنية والسوق .

تأسس هذا المسجد على يد السيد المسعود بن محمد بن الشابي سنة 1597 م الذي قدم من الجريد إلى سوف، ولما سمع على أهل سوف يتبينون على كل ما رأوه أو سمعوه قرر الذهاب

إليهم وحين وصل أرض سوف ثم اللجة ثم الرقم وما قاربها، أضافه سيدي أحمد بالزقم ثلاثة أيام وبعدها اتصل بسيدي عمر الذي كان كفيف البصر. فأكرمه الناس ومكث هناك شيئاً يعلم الناس أمور الدين ثم ارتحل البوادي ثم نزل موضع تكسبت الأولى فنكره البعض من أهلها حتى أباه العش بن سليمان ابن محمد اليربوعي واعتبر من بعد عن تقصيره في بادئ الأمر. ثم مكث سيدي المسعود مدة فعلم الناس ودعاهم لبناء هذا المسجد وأتم بناءه أبنائه ليعتبر أول مسجد في الوادي ثم ذهب إلى تغزوت ليعود إلى اللجة أقام بها زمناً ليرجع إلى الجريد⁴.

شهد المسجد ترميماً تعود إلى سنة 1350هـ-1930م لكنها لم تغير من ملامحه الأولى وظل في صورته الحالية امتداداً لما كان عليه في الماضي

الأسواق

تلعب الأسواق دوراً كبيراً في انتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمسلمين على مختلف مستوياتهم الاجتماعية، وتؤكد الكتابات التاريخية أن الأسواق في المدينة الإسلامية كانت تتميز بالتنظيم المتقن وتصنيف مختلف السلع في أماكن تختص بكل صنف منها، وتزخر العديد من العواصم العربية حتى الوقت الحالي بتلك الأسواق⁵. ويضع الماوردي شروطاً تشمل تحقيق كل الحاجات المتجددة التي يحتاجها الإنسان كالكسب والمعاش والرفاهية والمال⁶، وهي متعلقة بالتجارة والسوق.

يقع سوق الأعشاش في الشرقية للقصر تتوسط المسجد والزواوية تقريباً عبارة عن محلات تجارية ودكاكين ذات مساحات صغيرة عرضها يتراوح ما بين 3.00م إلى 4.00م وبطول يقدر بـ 4.00م.

تعرض في هذه السوق منتجات مختلفة باختلاف حاجيات السكان: من منتجات فلاحية ومواد غذائية، وصناعات تقليدية مثل كالحداذة والنجارة الزرابي والبرانس

والأقمشة والأسلحة ومواد الزينة الحلي، إلى جانب مواد منزلية كالأواني المنزلية، ومواد البناء.

وما يميز هذه السوق أن شوارعها تمتاز بالضيق في بعض الأحيان لتتجاوز 1.50م إلى 2.50م، يصعب على مركبة تجارية الدخول إلى السوق، لذلك كانت وسيلة النقل في هذا الوسط في أغلب الحالات ت عن طرق الحيوانات " عربات تجرها أحمره محملة بالبضائع في حالات البيع والشراء

كما تتميز هذه السوق بالتنظيم والتقسيم للبضائع المعروضة للبيع فكل قسم منه يختص في عرض بضاعة معينة، جزء تباع فيه المواد الغذائية وجزء آخر مخصص للخضر والفواكه وآخر للأقمشة وسوق للأواني المنزلية.

الشوارع

لما كان الطريق هو المسلك الذي يستعمله المارة لبلوغ الهدف المنشود داخل الشبكة العمرانية لأن وظيفتها لا تتجاوز المرور والعبور، فهي بمثابة قنوات اتصال بين مختلف المكونات الجالية للقصر، وإنشاؤها وتخطيطها يمثل أهمية في بناء وهيكل القصر عامة⁷.

لذا جاء تخطيط المدينة الإسلامية متميزا حماية وحفظا لحياة الجماعة والجيرة والتقارب الاسري فالأزقة الضيقة دليل على مواجهة الأبواب بعضها لبعض وقربها ومما يجبي حق الجار ويقوي رابطة التآلف التي قواها الاسلام بالزيارات والدعوات، ويوفر هذا النوع من الخطط للأزقة ظلا وافرا أما الشوارع المتفرعة فهي للاستخدام الخاص بالأحياء.

ويضع ابن الربيع شروطا لتخطيط موضع المدينة انه على الحاكم أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق⁸.

اعتمد في المدن العتيقة الصحراوية على معايير جد دقيقة و مفصلة بحيث لا يمكن حصرها جميعها لكونها تتشعب لتصل حتى سلوك الأفراد في الشوارع. حيث أن اتساع

الشارع سيتم تحديده من خلال ضرورة الحاجة للشارع وأهميته و دوره. فمن بين أهمية المعايير الخاصة بالشوارع الآتي:

- الارتفاق بالشوارع النافذة حق للجميع و لا يجوز أخذ تعويض عن هذا الارتفاق
- يحق لمن يملك على هذه الشوارع بيتا أو أرضا أن يفتح له بابا سواء كان للمنزل أو لكدان .

- يحق لملاك الأراضي حوار الشارع النافذ الارتفاع بمبانيهم دون قيد أو شروط ، والبناء تحت مستوى السطح الأرض بأي أعماق يوردونها باستثناء القاعدة الشاملة لا ضرر ولا فرار .

- يمنع استعمال الشارع في حفر بئر خاصة أو حفر مجاري إلا في حالة حفر بئر للعامة لتحقيق حق المرور دون عوائق بالشارع للمارة و كذا الراكنين .

- لا يسمح بإقامة سقف في الشوارع النافذة بين الرصيفين حتى و إن كانت الأرض المقابلة ملك لنفس المالك و مهما كان ارتفاع السقف.

- يرخص بإنجاز بروزات تتعدى هواء الشارع ، شرط أن تكون هذه الشرفات (البروزات) مرتفعة بالقدر الذي يسمح للمارة بالولوج دون ضرر أي بقدر فارس مع رحه منصوبا ، عند وجود شارع أو طريق خاص يتم تحديد ، بعرض أربع أذرع و لا يجوز الارتفاق به إلا لأهله وحدهم ، حيث لا يحق لأحد فتح باب عقاره نحوه إلا لهم دون سواهم و أخذ الإذن منهم⁹.

و من أهم الملامح التخطيطية التي امتازت بها شوارع المدن العتيقة الآتية:

- استخدام شوارع ضيقة غير مستقيمة لتوفير أماكن مظلمة وضع الرياح الضارة و تأكيد الحوار و الترابط

- تدرج الشوارع و تكاملها

- التقسيم إلى مقاطع بصرية تسمح بالرؤية عن بعد و تحقيق التلاقي وعدم الإحساس بالملل و تحقيق المتعة البصرية
- الظهور و الوضوح و الرؤية من بعد.
- الاستمرارية و الإحساس بالحركة وذلك عن طريق استمرار الشخصية الوظيفية الواحدة - وكذا الطابع الواحد
- الاعتماد عن الشوارع المسدودة
- الطرق القادمة من وسط المدينة تنتهي لطريق داخل السور ويوازيه (حيث يقع حول السور خندق ليعمل في الأغراض الدفاعية)
- الحارات تنتهي ببوابات لغلق المناطق السكنية و ذلك للأغراض الأمنية و تحقيق الخصوصية.

وتدرجت الشوارع حسب أبعادها من العناصر العمرانية العامة التي تحكم فيها المسجد الجامع الى حد كبير باعتباره مقصدا السكان من كل ارجاء المدينة.

تنتشر بحي الاعشاش مجموعة من المسالك التي تسمح بالتنقل بين ارجائه وتعطيه درجة عالية من الموصولية، نظرا لكثرة الشوارع والازقة وانتظامها، مع ذلك الصفة الغالبة لهذه الشوارع الضيق والالتواء،، اما المسالك المغطاة فهي قليلة ، تمس اجزاء من المسالك والممرات الصغيرة، و احيانا توجد عقود دعم فقط على المسالك دون تغطية كاملة،. وتتوزع المسالك عادة وفق تدرج مجالي وظيفي. ويمكن تقسيمها الى :

-شوارع محورية

تربط شوارع الحي بين مختلف انحاءه، ولها امتدادات داخل الاحياء الاخرى ، تتميز بنوع من الاستقامة ، وتتبع محورين اساسيين ، المحور العرضي شمال جنوب ومحور طولي شرق غرب ، وعرض هذه الشوارع من 2 الى 3 متر ، وشارع يفصل بين حي الاعشاش

والمصاعبة من الشمال الى الجنوب بعرض يزيد عن 6 امتار. وهي ضوارع لتتنقل الاشخاص. منا توجد شوارع مهمة على محيط الحي ومن كل الجهات ، واسعة ونشيطة الحركة .

-شوارع نافذة

شوارع للعامه تسمح بالتنقل داخل الحي وهي اقل اتساعا من سابقتها ، تتميز بالتعرج .

-شوارع محدودة

عبارة عن مسالك ذات استعمال خاص او شبه خاص ، اي ذات استعمال محلي تمتد داخل الحي حيث تربط بين المنازل، وتاخذ اشكالا مختلفة ، خطية مستقيمة او ملتوية ومتفرعة.

الساحات

لم تكتفي المدينة الاسلامية بتحديد شبكة الطرقات في الشوارع والازقة فقط بل حددت ايضا الرحبات التي تلعب دورا هاما في شحن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمسلمين والتي تمثل

نقطة التقاء مجموعة من الشوارع مما ييسر الحركة لاتساع ابعادها مقارنة بالشوارع ويسمح ذلك للباعه الجوالين بممارسة نشاطهم بها، كما كانت تحتوي على بعض المرافق العامة

وتقع هذه الساحات "الرحبة" بحي الاعشاش وسط مجموعات المساكن حيث تشكل مجالا مركزيا عند تقاطع الشوارع، وهي ساحات صغيرة، مع وجود ساحات اوسع على اطراف الحي تستغل للاحتفالات والاجتماعات. وتاخذ غالبا شكل مستطيل او شبه منحرف.

الاحياء السكنية

يتكون الحي من حارات التي تتشكل في مجموعها من سكنات متراسة فيما بينها ، التي تأخذ اشكالا مختلفة تفرضها شبكة الشوارع والازقة التي تفصلها ،ومبدا الاستغلال الكامل للمساحة. وتظم كل حارة مجموعة من العائلات التي تربط بينها اواصر القرابة لذلك كثيرا ما نجد بين بيوتها بوابات خاصة تربط بينها مباشرة للتنقل دون المرور بالشارع، وتأخذ الحارات اشكالا مختلفة من حيث التصميم ،اما منتظمة مربعة الشكل او مستطيلة او شبه منحرف، او غير منتظمة فتأخذ اشكالا كيفية منتظمة ، وتتميز عن العديد من القصور الصحراوية بانها اكثر تنظيما واكل التحاما ،لذلك فان الفراغات بينها اكثر اتساعا¹⁰ .

التحصينات

يعني تحصين المدينة ، وحماتها من الاخطار والهجمات المباغته من الاعداء ، حيث كانت الاسوار والابراج والخنادق تؤدي دورا مهما في الدفاع عن المدينة أو القصر ، وتأمين أهلها.

ومنه نبع حرصهم الشديد على احاطتها بسور ضخم يبنى بالحجارة ثم الطابية المقاومة للضربات القوية ، ثم دعموا أسوارهم بالأبراج الدائرة والمربعة والمضلعة احيانا ن الى بجانب المداخل الضخمة¹¹ .

إن العناصر التي تالف دفاع المدينة القديمة تتشكل في الأسوار المجهزة بقلاع للمراقبة وكما يحيط بالمدينة خندق يدعى "البحر"¹²

لكن وللأسف لم يبق اي اثر للتحصينات كالأسوار والابواب ،التي كانت تحيط بالوادي القديمة بما في ذلك حي الاعشاش، فخلال القرنين "11هـ و12هـ -17م

و18 م" كانت المدينة تتمتع بتحصين منظم من اسوار وابواب محروسة ، لكنها اندثرت مع مرور الوقت وآخر بقاياها ازيل سنة 1368هـ 1949 م¹³

المنزل

منذ القدم راعى مشيدو المساكن عدة أمور منها الظروف المناخية، والدين والعادات والأعراف والحشمة والحياء لصيانة المرأة من الأنظار، إضافة إلى الجوانب الصحية المناسبة¹⁴.

والمنزل السوفي يدعى " الحوش " نسبة إلى الفضاء الواسع في وسط المنزل، وهو عبارة عن مساحة مكشوفة تتوسط المنزل يأتي مباشرة بعد السقيفة ، وهو القلب النابض بالحركة الداخلية لأفراد الأسرة المنظمة للنشاطات اليومية لهم ، منه ينتقلون خروجاً ودخولاً لمجموع الغرف أو الفضاءات الأخرى، كما تساعد على إمداد مجموع الغرف بالضوء حيث تحافظ على الاتصال المباشر بالفضاء الخارجي ، وتعمل على تجديد الهواء النقي صيانة لصحة السكان ، كما توفر للعائلة الراحة والطمأنينة والاستقلال وأواصر الوحدة والألفة بين جميع أفراد الأسرة ، وفي هذا الصحن تفتح كل المرافق التي كانت أرضها رملية، ولا يمكن للسوفي العيش في منزل بدون حوش، لأن أغلب أيام السنة حارة، وتحتاج إلى الهواء الطلق، حتى يبرد الرمل فيستلقي فوقه ليلاً وخاصة في ليلي الصيف الحارة ، وبعض الناس يقيم " السدة " في وسطه وهي بمثابة السرير ، ويوجد في الحوش بئر في الجهة الشرقية ، ويمكن تحديد مرافق البيت السوفي كما يلي:

-السقيفة :

وهي مدخل البيت، وتكون مستورة - حتى لا ينكشف للأجانب البيت ونسائه - بحائط يكمن دورها في حجب الرؤية على من يكون في الخارج لمن هم في الداخل من أهل البيت لتأكيد حرمة الأسرة وصيانة الأعراف ، حتى لا يتمكن أي غريب من

اكتشاف أسرار أفرادها، وغالبا ما يكون التخطيط الهندسي لها ذا شكل مستطيل لا يتجاوز قياسها 2م x 4م. يمكن استغلالها لجلوس الضيوف العاديين، كما شيدت بجانبها حجرة سُميت " دار السقيفة " وهي عبارة عن غرفة استقبال للضيوف في الحالات الرسمية الهامة التي تتطلب احترامهم والاعتناء بهم في ظروف حسنة¹⁵.

- دار الخزين :

تتوفر المنازل على غرف تراعى فيها شروط معينة لما لها من أهمية وخصوصيات تؤهلها على ما وضعت من أجله ، تحتل موقعا من الدار بعيدا عن النظار ، ويكون أبرد مكان فيها ، وأقل عرضة للشمس كأن يكون في الجهة الشمالية أو الغربية .

وتستعمل لتخزين المؤونة من مواد غذائية وخاصة التمر الذي تعلق عراجينه على أعمدة من خشب ، وغالبا ما يخصص له مكان يُدعى "الخاوية" وهي دائرية الشكل مبنية بالجبس في أحد نواحي الحجرة وفي أسفل الخاوية قسبة يخرج منها عسل التمر المضغوط ثم يجمع هذا العسل في قلة أو زير¹⁶ ، كما يشيد بالقرب من الخاوية " الحد " وهو مربع الشكل ويوضع فيه تمر النهوش ، أو الحبوب من القمح والشعير ، كما تستعمل " السبالة " قلة كبيرة لحفظ الحبوب ، أما الزير والقلة فيحفظ فيهما الزيت والشحم ، و في ركن من أركانها الصوف والوبر والخشب.

-المطبخ:

وهي المطبخ والذي يعتبر واحد من المرافق العامة الموجودة في المنازل وتكون في حجرة خاصة أو في وسط الساباط ، وتكون بها مدخنة " الشميني." والوقود المستعمل هو الحط الذي

يجمعه الحطاب من الصحراء ، أو الحطب المجلوب من الغيطان ، ويحتوي المطبخ على أدوات بسيطة مثل القدر والغربال والطبق الخشبي والمهراس وقصعة العود والطاوة، وهي

صفيحة حديدية تتخذ لصنع الخبز ، والرحى وهي مطحنة صخرية لطحن الحبوب المختلفة¹⁷

- دار النوم :

وفي الحوش تُخصّص غرف للنوم حجرتان أو ثلاث أو أكثر حسب مستوى العائلة وكبرها وتعدد الأسر فيها، تأخذ شكلا مستطيلا أو مربعا مساحتها تتراوح لا تتجاوز 3.5م×3م، وارتفاع 2.5 م، وفي بعض الأحيان تنجز المقصورة، وهي بيت صغير داخل الحجرة ، تشيد في جهة من قبة هذه الحجرة دكانة من الجبس وهي بمثابة السرير، وقد زودت جدرانها بكوات أغلبها يأخذ شكل مثلث متساوي الأضلاع ، أعدت خصيصا لوضع وسائل الإنارة أو أدوات الزينة وما شابه ذلك بالنسبة للمرأة ، وبعض الفتحات الصغيرة المتواجدة على جدرانها ، ولا تكون بالضرورة كل الغرف مزودة بهذه الفتحات ، هناك غرف لا تتوفر عليها

- السباط :

وهي غرفة مفتوحة للحوش وبها أقواس يدخل إليها الهواء بكثرة ، وفي البيت عادة سباط في الجهة الجنوبية يخصص لفصل الصيف ، وآخر في الجهة الشمالية ويخصص لفصل الشتاء¹⁸ ، وللسباط أهمية في البيت السوفي فهو مكان للراحة واجتماع الأسرة ، ومكان لعمل النسوة يقام به المنسج ويتم طحن القمح والشعير ن كما تقام فيه الحمارة التي تحمل قربة الماء أثناء النهار¹⁹ .

- الاصطبل :

للدواب قال أبو عمرو: الإصطبل ليس من كلام العرب²⁰ ، جمعها اصاطبل واصطبلات وأصابيل ، مصغرة اصطبل²¹ .

تردد في لسان العرب بالصاد مع الإشارة إلى أنه ليس من كلام العرب ، وفي المنجد بالصاد والسين ، مع الإشارة إلى أنها لاتينية أو يونانية ، فهي زريبة الدواب أو موقف الدابة .

اهتم أهل القصر بإنشاء اصطبلات والمعروفة باسم الكوري ، وذلك لحماية حيواناتهم كالحمير والبغال والماعز والدواجن كالدجاج والحمام... وتأمينهم لها لما لها من أهمية في حياتهم

كما يكون فيه بيت للخلاء تقليدي "خربة" وهي عبارة عن حجرين بينهما ثقب كبير، وتجمع الفضلات لتستعمل بعد ذلك في تسميد المزروعات كالنخيل وغيره. ويكون الكوري في الجهة الشرقية من الحوش لتعرضه إلى أشعة الشمس²². وقد تشيد زريبة في بعض المنازل تخصص للحيوانات²³.

البئر :

ويكون غالبا في بيوت الأغنياء، ويستعمل مأوها للطهي والغسيل، ويجلب الماء العذب من آبار القرية الخارجية أو من الغيطان من طرف الفتيات الصغيرات بواسطة القرب²⁴.

السلام :

هي عنصر معماري هام من عناصر البناء الداخلية ، في المصطلح الأثري السلم بمعناه العام هو مجموعة من الدرجات الموصلة بين أدوار المبنى ، وقيل أنه يسمى بهذه التسمية لأنه يسلمك حيث تريد²⁵ ، جاءت معظم السلم في أركان المنازل وتكون إما في اتجاه واحد أو أكثر ، وهناك بعض المنازل الضيقة التي لا تتوفر على مساحة كافية لإنجاز السلم فيلجأ أصحابها إلى جذوع النخل فيقسمونها على نصفين ويثقب جدار الجذع

على طوله بثقوب تمتد من أسفله إلى أعلاه لتستعمل كسلم للصعود ، تتعد كل فتحة عن الأخرى بـ 0.30 م .

وضعت هذه السلا لم بعناية لتمكن من تسهيل الصعود وتحمل الثقل ، ولا يكاد أي منزل من منازل قصر الأعشاش يخلو من هذا العنصر .

-الإنارة في البيوت :

في الليل يطبق الظلام الدامس وينتشر في القرى والمدن والبيوت ، ماعدا الضوء الخافت الذي ينبعث من الخارج خصوصا، وعند الميسورين بصفة أساسية ، ومن هذه الوسائل ،مصاييح الزيت²⁶ ، أو " الفتيلة " ، والشمع الذي يوضع فوق الأرض ، أو يثبت في الجدران ،

وكذلك يستخدم " كانكي الفينار" وهو غطاء زجاجي توضع بداخله الشمعة أو فتيلة الزيت لحمايتها من الهواء حتى تستمر في الاشتعال عندما تستعمل للإضاءة في الخارج ، إضافة إلى الفوانيس الصغيرة²⁷ . وسائل الإنارة التي تستعمل يومئذ بشكل محدود أثناء

الأكل

السطح

يحاط سطح المنازل بسور ارتفاعه ما بين 60 م فما فوق يتم الصعود إليه بواسطة سلم ، يأخذ مساحة المنزل ، وهو فضاء شاسع يستعمل للنوم ليلا في فصل الصيف والاستفادة من النسيم وتقوم النساء بتحفيف الملابس والمواد الغذائية الخاصة بأهل البيت ، ومكانا للعب الأطفال لكن معظم سطوح سكان وادي سوف مقببة أو ما يعرف بالأدماس لذا يعوض هذا الفضاء بصحن المنزل.

مما سبق يتضح ان المدينة العتيقة بوادي سوف قد خضعت للمعايير التخطيطية للمدينة الاسلامية تخطيطا يحقق غايات المجتمع الفردية والجماعية والمادية والروحية

، انطلاقاً من القيم والمبادئ الإسلامية فبرز التركيب البنيوي للمدينة الذي تحكمه مبادئ إسلامية والتي نراها في جميع المدن الإسلامية .

فالتركيب العمراني يغلب عليه الطابع الإسلامي ، فكان يتدرج من البيئة العامة الى الخاصة ، وتكون الانطلاقة من من الساحة العامة "الرحبة المجال الاوسع ، الذي يمثل مركز لتجمع السكان في المناسبات الكبرى ، ويضم مختلف المباني ذات الطابع الديني "كالمسجد" والاقتصادي والاجتماعي كالاسواق والساحات العامة" ، ومنها تنطلق الشوارع والدروب نحو الاحياء وخارج المدينة .

الهوامش

1 خالد محمد عزب ، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية ، سلسلة كتاب الامة ، وزارة الاوقاف والفنون الإسلامية ، الدوحة ، 1997، ص 49

2 صالح يوسف بن قرية ، أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2011

، ص 464

3 التصميم العمراني للقصر ينسجم مع طبيعة المدينة الإسلامية التي يتمحور نسيجها العمراني حول المركز الذي يمثل المسجد، ولم يخرج عن أسلوب التخطيط العمراني لبناء المدينة الإسلامية

4 مياسي، إبراهيم: من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة، مجلة الثقافة ، العدد 113،

الجزائر، 1996، ص 164

5 خالد محمد عزب ، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، المرجع السابق، ص 55

6 الماوردي ، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك ، تحقيق محي هلال

السرطان وحسن الساعاتي ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، لبنان 1981 ، ص 162

7 المرجع نفسه ، ص 459

⁸ بن الربيع ، سلوك المالك في تدبير الممالك ، تحقيق ناجي التكريتي ، مطبعة الهدف ، بيروت ، 1978 ، ص 192 ،

⁹ الفرستائي، ابو العباس احمد بن محمد بن بكر النفوسي، القسمة و أصول الأرضين، تحقيق بكير بن محمد الشيخ بلحاج، محمد صالح ناصر ، ط 2 ، نشر جمعية التراث ، غرداية ، 1999 ، ص 188، 191

¹⁰ Largeau"v". Le pays de righa,ouargla,voyage a Rhadamès hachette, paris,1879 p153

¹¹ صالح يوسف بن قرية ، أبحاث ودراسات .. المرجع السابق ص 469

¹² فؤاد حاج ، " تدهور المدينة التاريخية - مستأوة" الملتقى التاريخي الثالث، مقر متحف المجاهد ، تقرت ، 1998، ص 67، 68

13 Largeau"v".op,cit; p153

14Ahmed Nadjah, leS ouf des Oasis, Edition la maison des Livres- Alger, 1971 , p92

le commandant Cauvet, notes sure le Souf et le souafa, in

15 B.S.G. d'alger n=137,1934,

p66

16Andrei Voisin ,op , cit , p 114

17Mohammed Rochd,IsabelleUne Maghrebien d'adoption, o p u , Alger ,1992 ,p192

18 Ahmed Nadjah,op , cit , p 92

19Isabelle Eberhardt , Victor Barrucand-Dans l'ombre Choude de l'Islam- Imprimerie p,et A Diary , paris ,1926 , p251

²⁰الشيخ الإمام محمد ابن أبي بكر عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح ، ط9 ، القاهرة ، مصر ،
1962 ، ص 28

21عبد الرحيم غالب ، المرجع السابق ، ص 55

22Ahmed Nadjah,op , cit , p92

23,op , cit , p 114 Andrei Voisin

24Isabelle Eberhardt, op cit , p232

25عاصم محمد رزق ، المرجع السابق ، ص 150

26 Mohammed Rochd ,op ,cit , p191

27Isabelle Eberhardt , op , cit , p 222

الشيخ أحمد بن يوسف الملياني ودوره في تدعيم الحكم العثماني بالجزائر خلال

القرن 16

أ/يوسف بن حيدة/قسم العلوم الإنسانية / جامعة العربي بن مهدي

أم البواقي

benhidasf1@gmail.com

الملخص:

كان للأوضاع التي عرفها المغرب الأوسط، واحتلال الإسبانيين للسواحل دور في ظهور الإخوة بربوس عام 918هـ/1512م، وقيامهم بوظيفة الجهاد مما ساهم في قيام تقارب بين الإخوة عروج وخير الدين وأحمد بن يوسف الملياني، حيث كان العثمانيون يبحثون عن حليف للسيطرة على تلمسان، فكانت بداية التقارب بين الطرفين عندما التقى عروج بالشيخ أحمد بن يوسف سنة 1517، وأثمر هذا التحالف بالتعاون في مواجهة الخطر الإسباني الزياني، ومن نتائجه أن اعترف العثمانيون بفضل الشيخ أحمد بن يوسف في مساعدتهم ضد الزيانيين وحلفائهم الإسبان فازدادت العلاقة توطّداً بين الزاوية الراشدية والسلطة العثمانية، وقام العثمانيون بدعم زاويته واحترام أتباعه، حيث قام خير الدين سنة 1518 بإرسال هدايا ثمينة إلى الشيخ الملياني كاعتراف له بجميله، كما خصص له جزءاً من الجزية المفروضة على اليهود، وقد استمرت العلاقة بين الطريقة الراشدية والسلطة العثمانية على ما يرام حتى حتى بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر.

الكلمات المفتاحية: الشيخ، الطريقة، التصوف - الحكم العثماني - الزاوية .

Abstract:

Sheikh Ahmed ben youcef el Miliani and this Role in Suppating the Othmanian governing in Algeria.

Ward the period that Middle meghrab, and the conlisation of the spanish in the costes ,great role apeared in the Barbaros brothers emergence ,during 918h/1512. The st that trining hey did ,when they tried leberate the coron from spanish clonolization ,after Algerien inhabitants asked that from surrial ,wher the other minians looked for Alliant to govern Tlemcen ,then they found (Sheikh) Ahmed Ben youcef the tarika Rashedia ,when it was a closely relation between the two parts meanuhile ,Aroj met Ahmed,1517,that great miance was resulted out to defend from Spanish thrat ziani.

Rentls of that Allionle Othomanians dectamed Acknowledgb in this aida gains zianians their aliances ,After the relation between ,Rashidia zawiya Othmanian authority,Othmanins supported the Zawiya of Rashidia stream And respert his fdbwers .

Where kheir edin 1518 sent precians prents to sheikh Mliani to Aduit in his Facburitvrvard and he Speufiad part of the task (foriffs) àn jews,The relation between Rashidiab way and othmanian authority au good conditiens fill the Stort French condzattia.

keyword sheikh – confrère – sufism- ottoman – zawia

قَدِم العثمانيون إلى الجزائر بهدف مواجهة الخطر الإسباني فوجدوا حلفاء لهم ومساعدين من رجال الدين وشيوخ الطرق، والزوايا، فاعتمدوا على شيوخ القادرية⁽¹⁾ في حكمهم، كما استندوا كذلك إلى الشاذلية⁽²⁾، فأدركوا حجم تأثير شيوخها على الأتباع وقدرتهم في التأثير على العامة، رغم تخوفهم من تحالفها مع سلاطين المغرب⁽³⁾.

ونفوذ الشاذلية ارتبط بكثرة فروعها وزواياها وكثرة أتباعها، حيث كانت تتمتع بنفوذ روحي على العامة نتيجة الاعتقاد السائد من طرف السكان والحكام بتأثير البركة من الشيوخ، ومن هذا المنطلق عمل الإخوة ببروس على كسب مساعدة من السلطة الدينية، فعمل خير الدين على زيارة المرابطين وشيوخ الزوايا، وخاصة الزوايا الساحلية بمنطقة القبائل⁽⁴⁾.

ولعل من أبرز العلماء والمرابطين الذين كان يتبعون الطريقة الشاذلية خلال العهد العثماني الشيخ الثعالبي الذي كانت له رحلة إلى المغرب والمشرق، تلقى فيها العلوم وأخذ الشاذلية عن شيوخها، مما ساهم في انتشارها بين الجزائريين⁽⁵⁾، ونادى بالجهاد ضد الإسبان في مدينة بجاية والجزائر، والشيخ محمد التواتي الذي دعا إلى الجهاد وكانت زاويته مركزا متقدما لمواجهة العدو، ومأوى للحكام العثمانيين، ومنهم بيري ريس وابن عمه كمال ريس الذي وجدا الأمان والإستقبال من الشيخ التواتي⁽⁶⁾.

وكان معظم المرابطين قبل العهد العثماني من أتباع الطريقة الشاذلية، وكان أثرها واضحا ببلاد المغرب، حيث انتشرت عن طريق هجرة المرابطين لطلب العلم في المغرب

الأقصى وتونس، والزيارات المتبادلة بين العلماء وشيوخ الطرق، إضافة إلى ما تميزت به تعاليم الشاذلية التي لا تنكر التمتع بالدنيا والسماح بامتلاك الثروة، مما فتح المجال واسعا أمام الأتباع، وعلى حد تعبير سعد الله فإن المتصوفة الجزائريين كان أغلبهم ماديين⁽⁷⁾. ولعل من أبرز العلماء والمرابطين الذين كان يتبعون الطريقة الشاذلية خلال هذا العهد الشيخ أحمد بن يوسف الملياني مؤسس الطريقة الراشدية، الذي كان يتمتع بنفوذ صوفي وله مكانة مرموقة بين الأهالي نتيجة الاعتقاد في ولايته وتأثير دعوته وكراماته، وأن الله ينزل غضبه على من أغضب وليه كما هو الحال في سقوط وهران والمرسى الكبير وربط ذلك بدعوة الشيخ الملياني على حد تعبير الصباغ⁽⁸⁾.

ويرتبط نشاط الشيخ أحمد بن يوسف بدوره الصوفي وزاويته التي كان لها دور كبير في نفوذه بالمنطقة وكثرة عدد أتباعه، وللتعرف على نشاط أحمد بن يوسف الجهادي وعلاقته بالعثمانيين نعرض على نشأته وسيرته ودور زاويته وأتباعه في انتشار الطريقة الراشدية.

1) التعريف بالشيخ أحمد بن يوسف وتكوينه الصوفي :

اشتهر أحمد بن يوسف بالملياني والراشدي واسمه الكامل حسب التعاريف : " أحمد بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الجليل بن يمداس بن عبد الله الرضى بن حسن المرتضى بن جعفر الصادق بن محمد الناطق بن أحمد بن زين العابدين بن حمود بن علي بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الكامل بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب⁽⁹⁾، ولكن هذه النسبة إلى البيت النبوي لم يتطرق لها الصباغ في مناقبه باعتباره أقدم السّير وأقربها من حيث الزمان إلى المعلومات الواردة، ومن خلال عنوان التأليف أن أحمد بن يوسف راشدي النسب والدار⁽¹⁰⁾، ونحنا نحوه مؤلف تعريف الخلف برجال السلف : " بأنه الشيخ الولي الصالح القطب الغوث الزاهد العارف العالم المحصّل السالك

الناسك المقرئ بالقراءة السبعة الحجة أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نسبا ودارا
«(11).

كما اهتمت الروايات المتأخرة بأمر (يوسف) الذي اشتهر بالإنتساب إليه، وقد ذهب
بجملها بأنه والده بالتبني، مع ذهاب بعض الخاصة إلى أنه ليس والده مباشرة ولكنه من
آبائه الأقدمين حيث يتصل به في سلسلة النسب⁽¹²⁾، ولعل هذا الارتباط غير المباشر،
واعتبار يوسف جدّ قصي للشيخ أحمد قد تكون له دلالات وأهداف مرجوة من هذا
الترتيب أو الإتصال النسبي، خاصة وأن أهمية النسب الشريف له دلالات في الارتباط
الطريقي حيث يشترط في مؤسس الطريقة أن يكون له ارتباط بالبيت النبوي في سلسلة
متصلة حتى يستطيع أن يجمع عددا من الأتباع، كما أن النسب الشريف يعتبر أحد الركائز
والأسس التي تبنى عليها مشروعية الطريقة الصوفية ولعل هذا ما نجده في بعض مناقب
الملياني الراشدي دارا ومنشأ، الحسيني نسبا⁽¹³⁾.

وتمثل السلسلة الشريفة التي ألبسها المهتمون بسيرة الملياني وكتب المناقب رمزا من
رموز التواصل الصوفي التي أقرّها الأتباع والعامّة، وساروا مسار الطرق الصوفية الأخرى، في
التأكيد على اتصال شيوخها بالبيت النبوي لتدعيم نشاطها وانتشارها، وبحثا عن نفوذ
وكسب هيبة على الأتباع بما يحفظونه من شجرة النسب الشريف التي أصبحت ركنا كبيرا
من أركان التصوف و تأسيس الطريقة.

ولم تتناول الأدبيات التي أرّخت للشيخ أحمد بن يوسف متى ولد بالضبط، ولكن
التاريخ التقريبي الذي حاول بعض الباحثين ترجيحه في منتصف القرن 09هـ/15م، وتنسج
حول ميلاده قصص وروايات متقاربة مع قصص الأنبياء، مما يطبعها بطابع الغلو في تقدير
مكانة الشيخ وجعلها ضمن سلسلة الوسائط بين الله والإنسان، وتؤخذ في أغلبها من
قصص الأنبياء على طريقة قصة النبي إبراهيم عليه السلام⁽¹⁴⁾، أمّا حول مكان ميلاد الشيخ

فتتضارب الروايات حول مسقط رأسه، فمنهم من ذهب إلى أن مولده بقلعة بني راشد، وتذهب أخرى إلى أن مسقط رأسه غير مضبوط فترجعه إلى مناطق في الصحراء بتوات أو قورارة وأيضا إقليم ميزاب، ولعل هذا قد يرجع إلى التنازع الموجود حول مشاهير التصوف، ومحاوله كل منطقة الحصول على شرف الإنتساب إليها، إلا أن الدارسون أجمعوا على أنه ولد بقلعة بني راشد⁽¹⁵⁾.

وبهذه المنطقة كان مستقر الشيخ أحمد بن يوسف وبالضبط بدوار رأس الماء من قلعة بني راشد، حيث مثل هذا الإطار الطبيعي والبشري المجال الذي نشأ فيه وترعرع وبه قضى أطوار حياته المتنوعة، قبل أن يغادر مسقط رأسه في طلب العلم ليستقر به المقام في بجاية حيث تتلمذ على الشيخ أحمد زروق (ت 899هـ / 1492م)⁽¹⁶⁾ وأخذ عنه مبادئ الطريقة الزروقية، وساهم في تكوينه العلمي حيث أصبح حسب الروايات مصدرا للعلوم الفقهية والصوفية التي اكتسبها، كما ذاع صيته في الكرامات، وشكل مصدرا لدنيا لا منة فيه لفقير أو فقير عليه حتى زروق نفسه⁽¹⁷⁾.

2) النشاط الصوفي للشيخ أحمد بن يوسف :

بعد أن تتلمذ الشيخ أحمد بن يوسف على الشيخ أحمد زروق وأخذ عنه العهد، لم يغادر بجاية إلا بعد إذن منه، ولكن الإذن كان من شيخ آخر يدعى أبا القاسم البسكري، وانطلق نحو دواره رأس الماء للقيام بالوظيفة التعليمية المهمة بالشرعية ونشر الطريقة والقيام بدور المعلم لينتفع الناس بعلمه وعمله⁽¹⁸⁾.

وقد وصل أحمد بن يوسف إلى "راس الماء" هذا الدوار الذي سيكون بمثابة نقطة المركز للدائرة الواسعة التي ستشمل مناطق النفوذ المتعددة الأوجه، حيث أسس به زاويته الأولى، وكانت خطواته الأولى الإصلاحية بسوق أم العساكر باعتبارها منطقة تجارية تعرف تجمعا جماهيريا من مختلف المناطق، واستطاع أن يقوم بدور الإمام والواعظ والمرشد، وهكذا

نجح في كسب شهرة وتأيد من طرف الأتباع ، وهذا ما تكشفه روحه العلمية والموهبة التنظيمية التي بدأ يتميز بها شيخ الطريقة الراشدية (19).

وقد اكتست الرحلة الصوفية التي قام بها الراشدي أهمية في تكوين الشيخ المؤسس ، بما ساهمت به من تنشئة صوفية ، ومثلت عنصرا هاما في مساره التكويني ، لأنّ السفر بما فيه من شدائد وتجارب وتحصيل معارف ، يمثل مدرسة تكوينية يتعلم فيها المريد وينمي فيها استعداداته الخلقية ، ويطوّر مواهبه من خلال العثور على شيخ يوجهه في مسيرته الروحية .
ومما يجدر ذكره أنّ تكوينه الصوفي ساعده على تأسيس طريقة صوفية حملت اسم الراشدية نسبة إلى قلعة بني راشد ، فهي تنتمي في منظومتها الفكرية وسندها الصوفي إلى طريقتين الشاذلية والزروقية ، فقد تلقى الشيخ المؤسس أصول الزروقية عن الشيخ أحمد زروق بطريق التلقين بمعهد تمقرا نواحي بجاية ، حيث أخذ عنه الطريق بسنده إلى أبي الحسن الشاذلي وطريق التبرك بسندها في لباس الخرقا إلى عبد القادر الجيلاني (20) ، واتصال الطريقة الراشدية بالشاذلية عن طريق اتصال زروق بمحمد السخاوي وهو ما انفرد به الصباغ ، كما كان لاتصاله أيضا بأحمد بن عقبة عن أبو زكريا القدير عن علي بن وفا عن محمد بن وفا عن داوود الياحلي عن ابن عطاء الله عن أبو العباس المرسي عن أبو الحسن الشاذلي (21) ، وبهذا حاول أحمد بن يوسف أن يمزج طريقته بعدة مشارب صوفية فنهل من التيار الشاذلي والزروقية والغزالي محاولا الإستقلال عنها بمسحته الراشدية في التربية والتأهيل وفقا لنظام سلوكي وطقوسي خاص .

ويبدو أن التأثير الشاذلي في الطريقة الراشدية يظهر جليًا في سيرة الشيخ أحمد بن يوسف الملياني ، حيث أخذ من مبادئها التخلّي عن الزهد في الدنيا والتمتع بملذاتها ، فلم يكن يوجه مريديه بضرورة لبس الخرقا الصوفية ، كما كان يلبس الثياب الجميلة ويركب الفرس ويملك الأراضي ، حيث يذكر الصباغ في هذا الجانب بأن الشيخ أحمد بن يوسف

لما أنهى تكوينه على يد الشيخ زروق منحه هذا الأخير حفنة من الدراهم اقتنى بها فرسا بقعاء وسرجا ودرأوية (خنجر) (22).

كما قامت طريقته على أساس اختلاف المشارب الصوفية والتيارات الفكرية والمنهاج العرفاني محاولا الجمع بين الجانب الظاهري والباطني ، فقد وظّف الشيخ خبرته وعلمه وأسرار الخلق وطباعهم في تخصيص ما يلزم كل مريد من السلوك، وكان يناول تلاميذه الأذكار ويشكّلون دائرة للذكر الجماعي مع استعمال الغناء والموسيقى والأناشيد والآلات ، وتسمى أتباعه بالفقراء (23) ، وكان الراشدي كثير التلقين للأتباع وغيرهم ، فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروي : " أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامّة حتى النساء " ، فقال له : " قد دعونا الخلق إلى الله ، فأبوا ففنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر فقال الشيخ الخروي " فوجدته أوسع مني دائرة " (24) .

ونظرا للمكانة التي تمتع بها المؤسس وانتشار تعاليمه الصوفية فقد تفرعت طريقته إلى فرعين: الطريقة الراشدية الزروقية، والطريقة اليوسفية (25) التي غالت في الإعتقاد في الشيخ أحمد بن يوسف حتى نسبه بعضهم للنبوّة ، وفشا توغلها على يد رجل يدعى ابن عبد الله، الذي تزندق وذهب مذهبا باطلا عن ماحكي عنه ، وتبعه الكثير من الغوغاء وأهل الأهواء من الحواضر ، وتذكر الروايات أن هذه النحلة ظهرت في حياة الشيخ فلما بلغه ذلك قال : "من قال عنّا ما لم نقل يبتليه الله بالعلّة والقلة والموت على غير الملة (26) .

3) نشاط زواية الشيخ أحمد بن يوسف :

تنوعت الوظائف والأدوار التي قامت بها زوايا الشيخ أحمد بن يوسف كغيرها من الزوايا الصوفية ، ولعل من الأدوار التي اختصّت بها وظيفة التعليم حيث قام الشيخ أحمد بن يوسف بدوره كفقيه وشيخ طريقة بعقد مجالس للدرس وأخرى للذكر وتلاوة الورد،

وعرفت الزاوية استقطابا كبيرا للأتباع والعلماء والفقهاء ومنهم عبد الجبار الفجيجي، وعبد الله الحياط ومحمد بن علي الخروبي، كما قامت زاويته بوظيفتي الإيواء والإطعام والعلاج، حيث تعتبر رائدة في هذا المجال وكانت مقصد الزوّار أفرادا وجماعات، وكانت تطعم عددا كبيرا من الأتباع المستقرين بالزاوية بأنواع الفواكه والأطعمة⁽²⁷⁾، وكانت تمتلك مئة خيمة خصّصت بعضها لإيواء الضيوف، وهذا كلّه يرجع إلى الثروة المالية التي كان يمتلكها الشيخ أحمد بن يوسف من حقول وقطعان من الأبقار والأغنام ومما يقدمه الزائرون وغيرهم من هدايا وزيارات وإعانات، إضافة إلى مميزات الفترة وما عرفه المجتمع من مشاكل الفقر وقساوة المعيشة التي تطلبت من الزاوية بزعامة شيخها أن تكون بديلا عن السلطة في هذا الجانب .

وفي هذا المجال اشتهر الشيخ أحمد بن يوسف الملياني بمعالجة الأمراض والأوبئة المنتشرة في المغرب الأوسط نظرا لما تميّز به من صلاح فقد كان يلجأ إليه المرضى والموبوءون ويلتمسون عنده الشفاء وكان يلامس المرضى ولا يخشى انتقال الداء عن طريق العدوى⁽²⁸⁾.

وهذا الدور الذي اضطلع به الشيخ وزاويته في الإيواء والإطعام، ومواجهة الأمراض والعلل المنتشرة في المغرب الأوسط عجزت الدولة الزيانية أو العثمانية على مواجهته، ولم تستطع التكفل بالمرضى الذين قتلتهم الأوبئة خاصة من العدوى، ووقفت موقف المتفرج وغلقت أبواب العلاج أمام المصابين، مما جعل زوايا الشيخ أحمد بن يوسف تقوم بهذه المهمة وتصبح مراكز للعلاج ولكل أفراد المجتمع، ولم تستثنى شريحة معينة دون تمييز أو مفاضلة فاستقطبت العام والخاص والمستقر وعابر السبيل والتابع والمنكر⁽²⁹⁾.

وهكذا نجح الشيخ أحمد بن يوسف في تنويع نشاط زاويته لمواجهة الأزمات الاقتصادية، وأصبحت بديلا عن السلطة أو منافسا لها، أمام تزايد الأتباع وتعدد

الوظائف الاجتماعية والإهتمام بالمجتمع وما لحق به من مشاكل كالمجاعة والأمراض المختلفة، ومواجهة الأزمات والنّوائب بما أتيح له من قدرات وإمكانات أمام عجز السلطة وغياها في التكفل بمن أصابتهم الأزمات ، وهذا ما جعل المجتمع المغربي يعتمد على شيوخ الطرق ورجال التصوف أمام غياب السلطة للتكفل بالفئات الاجتماعية، وبرز دور الزوايا الصوفية في المجال الاجتماعي بما أتيح لها للتخفيف من آلام البؤساء .

4) علاقة الشيخ بالأمراء الزيانيين:

كان استقرار الشيخ أحمد بن يوسف الملياني برأس الماء وإنشاء زاويته بالقرب من مقر السلطة أثر كبير على العلاقة بينه وبين الأمرأ الزيانيين ،ففي البداية نظرت السلطة الزيانية إلى الشيخ بعين الرضا وعملت على كسب وده ،وساهمت في دعم الزاوية وتمكينها من موارد اقتصادية هامة مثل الأراضي مما جعلها تتمتع بسلطة موازية للسلطة الحاكمة بكثرة الأتباع والموارد.

ولكن العلاقة لم تستقر على التوافق إذ سرعان ما بدأت تعرف توترا كبيرا بسبب خلافات بين الشيخ والأمرأ الزيانيين ،ويكتنف الغموض بداية ظهور الصراع بسبب الإختلاف حول الفترات الزمنية التي مرّ بها حكم الأمرأ الزيانيين ولم يقتصر الصراع على مرحلة معينة ،ولعل المرحلة التي عرفت ظهور الصراع الراشدي الزياني ترجع إلى عهد الأمير أبو عبد الله محمد الملقب بالمتوكل حكم ما بين (866-880هـ / 1462-1475م) (30)

فقد واجه الشيخ أحمد بن يوسف مشاكل عديدة في عهده ،ولم يكن على وفاق معها وكان كثير النقد للأسرة الحاكمة منتظرا الفرج على يد قوة إسلامية تنقذ البلاد من القوة المسيحية التي تمثلها إسبانيا⁽³¹⁾، مما جعله يغادر المنطقة حوالي سنة (911هـ/1505م)، متنقلا بين المناطق المجاورة حيث نزل في يبل بني وغدمن شمال القلعة

،وانتقل إلى مصراته ،ثم تانصرت ، إلى أن استقر به المقام في سهل الشلف، وكان يؤسس الزوايا في مختلف المناطق التي يستقر بها للقيام بوظيفته الدعوية الصوفية⁽³²⁾ .

وقد اختلفت الروايات حول الأسباب التي أدت إلى نشوب الخلاف بين الطرفين ، حيث يرجع البعض ذلك إلى سماح الحكام الزيانيين لليهود بتسيير الشؤون المالية للدولة⁽³³⁾، إضافة إلى تخوّف الزيانيين من تزايد نفوذ الشيخ أحمد بن يوسف وكثرة عدد أتباعه ومحاولتهم الحد من نشاطه ووضعه تحت سلطتهم فدعا عليهم ،وحاولوا حرقه ولكن النار لم تلتهمه على حسب ما ذكره مترجموه⁽³⁴⁾ ، ولعل هذا التوتر في العلاقة هو جعل أحمد بن يوسف يغادر جوار الأمراء الزيانيين من زاوية رأس الماء ووطن بني راشد .

أما اشتداد النزاع الراشدي الزياني فقد عرف تطورا في عهد الأمير الزياني أبي حمو والذي تولى عرش الدولة الزيانية حوالي سنة (922هـ/1516م) وعرف عهده ظهور الصراع الإسباني العثماني في المغرب الأوسط وتراجع السلطة الزيانية أمام الأطراف الجديدة، وقيام الأمير الزياني بربط علاقته مع الإسبانين واعترافه بسلطتهم والتبعية لهم ،وأثر ذلك على الشيخ أحمد بن يوسف الملياني الذي تعرض للسجن في عهد حكم هذا الأخير⁽³⁵⁾ .

5) التقارب العثماني الراشدي :

كان للأوضاع التي عرفها المغرب الأوسط ،واحتلال الإسبانين للسواحل ،دور في ظهور الإخوة بربروس عام 918هـ/1512م،وقيامهم بوظيفة الجهاد التي عجز عنها الزيانيون المتحالفون مع الإسبان، ونتيجة للإنتصارات التي حققها الإخوة عروج وخير الدين في مناطق مختلفة .

ولعل الحديث عن هذه العلاقة يرجع إلى تاريخ سنة (923هـ/ 1517م) بداية التواجد العثماني بالمنطقة رغم اختلاف الروايات عند طريقة التقارب ، وفي إطار التحركات

التي كان يقوم بها عروج انتقل إلى منطقة تلمسان رغبة منه في نصره سكان تلمسان من الخطر الإسباني وحليفه الحكم الزياني متبعا طريق الهضاب ومنتجها إلى قلعة بني راشد وجهته بعيدا عن الساحل حتى لا يصطدم بالإسبان ، ولا نعلم إن كانت هناك اتصالات سابقة بين شيخ الطريقة الراشدية ، وهل كان اتجاه عروج في مساره يسعى للوصول إلى الشيخ أحمد بن يوسف ، حيث تؤكد الرواية على معرفة سابقة بين الطرفين فإثناء توغل عروج بوطن هوارة وفي طريقه إلى القلعة في جيش كبير أثار ذلك هلع سكان المنطقة حيث عمل الملياني على تسكين روعهم ، مما قد يشير إلى بداية التقارب بين عروج وشيخ الطريقة الراشدية ، كما أن القوة العسكرية التي تميّز بها جيش عروج والانتصارات المتتالية جعل سكان تلمسان يلجأون إليهم ، فقام وفد تلمساني بالتوجه إلى الإخوة لطلب النجدة منهم ، وكانت بدايات مشاركة الشيخ أحمد بن يوسف ضمن جيش عروج في حملته هاته على القلعة ثم تلمسان ، وشارك مشاركة فعالة في تدعيم سلطتهم ضد الحكام الزيانيين⁽³⁶⁾ .

وفي رواية أخرى أن بداية التقارب بين الأتراك والشيخ أحمد بن يوسف عندما قام الإخوة ببروس بزيارة الشيخ أحمد بن يوسف الملياني سنة 1517 على شاطئ البحر غرب مدينة وهران ، حيث دهم أسير مغربي إلى ذلك ، ونصحهم بالإتصال برجل من ذوي النفوذ الروحي ، وقد قال له عروج أنه سيصدق ولاية وكرامة الشيخ إذا استطاع أن يطلعه عن مقاصده ، وإن وفق سيقبل رجليه ويطلب منه الدعاء الصالح ، ولما وصل إلى الشيخ قال له هذا الأخير: "عزمت إذن وأصحابك على الهجوم على العدو "فجئى عروج عند قدميه " حسب رواية الصباغ⁽³⁷⁾ .

ولعل أهم مظاهر أسباب التقارب بين الطرفين ترجع أولا إلى ظهور العثمانيين في الجزائر وقيامهم بالوظيفة الجهادية ضد الخطر الإسباني ، فكان موقف الشيخ أحمد بن يوسف يتمثل في تدعيمهم ابتداء من سنة (923هـ، 1517م) لمواجهة الخطر المسيحي ،

وبذلك أصبح توحيد القوات والتعاون للدفاع عن البلاد واجبا على المسلمين كافة، إضافة إلى أسلوب الحكام العثمانيين في التقرب إلى الزعامات المحلية، والإعتماد على العلماء والمرابطين وشيوخ الطرق في وقت الشدة باعتبارهم يمثلون الرأي العام، ويؤثرون بالنصح والموعظة والنفوذ الروحي على العامة⁽³⁸⁾.

وقام التحالف على أساس أن لا يتدخل العثمانيون في شؤون أتباع أحمد بن يوسف وذريته وحصولهم بموجب ذلك على هدايا قدّرت بأكثر من أربعة آلاف دينار، وفي المقابل قام أحمد بن يوسف بمساعدة عروج للقضاء على سلطة الأمير الزياني المتحالف مع الإسبان بهدف المحافظة على العرش⁽³⁹⁾.

ودافع الشيخ أحمد بن يوسف وأتباعه عن قلعة بني راشد بمساعدة إسحاق ومن معه من الأتراك واستشهد أغلبهم واستطاعوا أن يردّوا الأمير أبوحمو ومن معه من الأعراب والإسبانيين⁽⁴⁰⁾، وواصل السلطان أبوحمو ومن معه من الإسبان الهجوم على تلمسان وتمكنوا من تحطيم أسوار المدينة واحتلالها بعد معركة عنيفة استشهد فيها عروج (ت 925هـ/1518م)، وتم اعتقال الشيخ أحمد بن يوسف، ثم أُفرج عنه بعد تولي مسعود حكم الزيانيين⁽⁴¹⁾.

وقد اعترف العثمانيون بفضل الشيخ أحمد بن يوسف في مساعدتهم ضد الزيانيين وحلفائهم الإسبان فازدادت العلاقة توطّدا بين الزاوية الراشدية والسلطة العثمانية، وقام العثمانيون بدعم زاويته واحترام أتباعه، حيث قام خير الدين سنة 1518 بإرسال هدايا ثمينة إلى الشيخ الملياني كاعتراف له بجميله وقدم له مبلغ مالي قدره 4000 دينار مكافأة له على دعمه لهم في حروبهم ضد الزيانيين، كما خصص له جزءا من الجزية المفروضة على اليهود والمقدرة بثمانية صيعان، عند ذهاب الحجاج إلى الحرمين⁽⁴²⁾.

ورغم التحالف الموجود بين الطرفين إلى أن الشيخ أحمد بن يوسف كان متحفظاً من العثمانيين وحكمهم خاصة بعد قيامهم في تلمسان بإفساد بعد دخولهم إليها⁽⁴³⁾، ولعل هذا التصرف هو الذي جعل الشيخ الملياني يضمن رسالته التي وجهها إلى خير الدين نوعاً من الإستقلالية عنهم وعدم التقيد بحكمهم حيث يقول: "إن حكمتك لا يجري علينا ولا على نسلنا ولا على من تعلق بنا ولا على نسلهم فإن رهبتهم أحستهم وإن خالفتم عوقبتهم"⁽⁴⁴⁾.

لم يعمر الشيخ أحمد بن يوسف طويلاً بعد الأحداث التي عرفتها تلمسان ووفاه الأجل سنة (931هـ/1524م)، وتذكر السيرة أنه أوصى في حياته أن يشدّ نعشه على ظهر بغلة ولا يدفن إلا في الموضع الذي تقف به فكان اتجاه الدابة إلى مليانة حيث أقيم هناك ضريحه⁽⁴⁵⁾، الذي أصبح مزاراً للأتباع، وربما يكون لخير الدين دور في تحديد مكان الدفن حتى يسهل على السلطة العثمانية مراقبة نشاطه⁽⁴⁶⁾.

وانتقلت أسرة الشيخ أحمد بن يوسف وأتباعه من تلمسان إلى مليانة الأقرب إلى العاصمة حيث ضريح الشيخ، واستمرت العلاقة بينها وبين السلطة العثمانية يميّزها الإحترام والتقدير حتى بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر، حيث ظل أتباع الشيخ متبعين لنهجه في دعمهم للسلطة العثمانية مقابل محافظة العثمانيين على شرط الشيخ الملياني ودعمهم له، ولعل هذه الإستمرارية هي التي جعلت خير الدين يقوم بتكريم ابن الشيخ الملياني محمد بن مرزوقة حين قدم إلى الجزائر وأهداه هدايا تليق بمقامه واعترف به خليفة لوالده في رئاسة الطريقة الشاذلية ونشر دعوتها⁽⁴⁷⁾، وعيّنه أميراً على ركب الحجيج إلى الحرمين، واستمرت هذه المهمة في أحفاده من بعده حيث يذكر الورتلاني في رحلته أنه اتّصل في حجته الأولى بحفيد الشيخ أحمد بن يوسف المعروف ب: أحمد بن طيبة في سنة 1153هـ/1740م⁽⁴⁸⁾.

وتواصلت هذه العلاقة التحالفية بين الطريقة الراشدية والسلطة العثمانية فقد جسدها أيضا أحد أتباعه وهو "ابن شعاعة" الذي كان يقوم بخدمة العثمانيين مقابل بعض الإمتيازات كإعفائه من الضرائب ومنحه وقفا تمثل في أرض زراعية، كما يذكر Bodin في هذا الجانب أنّ السلطة العثمانية قد حافظت على هذا التحالف حيث قام الداوي حسين باشا بمصاهرة الشيخ وتزوج من إحدى حفيداته (49).

واستفاد العثمانيون في توطيد أركان حكمهم وتدعيم نفوذهم من الشيخ أحمد بن يوسف وأتباعه داخليا، وحتى خارجيا في تنافسهم مع الدولة السعدية الناشئة التي دخلت معها في صراع حول تلمسان، وبهدف استكمال مشروع توسيع الإمبراطورية العثمانية نحو المغرب الأقصى (50)، كما أنّ تأثير التصوف واعتقاد بعض الحكام في الأولياء وتأثير كراماتهم جعلهم يخشون من تأثير دعواتهم، وينظرون إليهم نظرة تعظيم، ويحضون منهم بنعوت سامية تشير إلى نظرة التفضيل والتبرك والذي ينظر بها الناس إلى من ارتقوا في نظرهم إلى درجة الأولياء.

ويبدو أنّ هذا التأثير الروحي قد انعكس على تعامل الحكام مع شيوخ الزوايا، فكانوا يقومون بتقديسهم إلى حدّ الإفراط، وغالبا في احتفالات الزوايا الموسمية من خلال "الزيارة" والرعاية المادية، حيث كان البايات ينتقلون إلى الأضرحة والمزارات والزوايا التي تقام بها الإحتفالات الدينية، مما أعطاهم طابعا رسميا وتشريفيا من السلطة الحاكمة (51).

والمكانة التي احتلها الأولياء والصلحاء جعلت العثمانيين يدفنون الحكام إلى جانب الأضرحة وقبور الأولياء مثل الحاج أحمد داي الذي قتل سنة (1109هـ/1697م) ودفن بجانب ضريح عبد الرحمان الثعالبي (52)، وكانت الأضرحة والمزارات والزوايا أماكن مقدسة وملاجئ لا يمكن انتهاكها، حيث يستمد المرابط أو مقدم الزاوية سلطته من نفوذ زاويته

،وممثلا لأتباعه لدى السلطة المركزية، وناطقاً رسمياً باسمهم في علاقته مع موظفي البايليك (53).

وكان لهذه السياسة المتبعة من طرف السلطة العثمانية اتجاه الزوايا والمرابطين وشيوخ الطرق أثر على العلاقة المتميزة بين الطريقة الراشدية والدولة العثمانية وخاصة في مواجهة الإحتلال الإسباني لطرده من السواحل الجزائرية، ويظهر دور الجهاد في توحيد القوى الدينية، واستمالة السكان إلى جانب العثمانيين في مواجهة الخطر الخارجي، واستمرار التعاون بين المرابطين والعثمانيين في هذه المرحلة على أساس جهاد العدو المشترك وضمن المساعدة في استتباب الأمن داخل الأيالة مقابل امتيازات محددة، وشاع في الجزائر التحالف بين المرابطين والعثمانيين، مما ساعد على إقبال الناس على الطرق الصوفية وتكاثر عددها وأصبحت تتمتع بنفوذ موازي للسلطة من خلال الإمكانيات المتعددة وكثرة الأتباع.

الهوامش :

(1) - تنتسب القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت561هـ/1166م) تنشأت في بغداد، وانتشرت في مختلف مناطق العالم الإسلامي، تقوم على برنامج تربوي، يقوم على قواعد سلوكية في العلاقة بين الشيخ المؤدب و المرید، وعلى أساس طريقة تربوية تتضمن النصيحة والأخذ بيد المرید وفق مراحل خلال عملية التكوين الصوفي والتدرج به من السهل إلى الصعب إلى غير ذلك من المبادئ، كما بنيت الطريقة على تخصيص أورد وأحزاب وأدعية تتضمن مجموعة من الأدعية مثل دعاء التوسل والدعاء الشريف، و الأحزاب مثل حزب الإشراف، والحزب المبارك، وحزب الحفظ، والإستغفار مئة مرة والتسبيح مئة مرة، وذكر لا إله إلا الله مئة مرة، وقراءة الفاتحة بعد الصلوات الخمس والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعدد 121 مرة، للتفاصيل عن القادرية راجع : إسماعيل بن السيد محمد سعيد القادري، الفيوضات الربانية في المآثر والأورد القادرية، تهذيب ومراجعة

عبد الهادي قطش، دار الهدى ، الجزائر، 2004، ص 12؛ عبد القادر الجيلاني ، الأوراد القادرية ، ضبط وتوثيق محمد سالم بواب ، دار الألباب ، بيروت، 1992، ص ص 14-20. أيضا ؛ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، دار البصائر الجزائر، ج4، 2007، ص 43.

(2) - وتنتسب إلى مؤسسها علي بن عبد الله بن عبد الجبار المعروف بالشاذلي ، المولود بغمارة من جبال الريف عام (593هـ / 1196م) تتلمذ على الشيخ عبد السلام بن مشيش 622هـ / 1225م) وكانت انطلاقة الشاذلية من مصر، بعد أن استوطن الشيخ مع أتباعه بالإسكندرية حوالي سنة (642/1244م) ، وقام بتكوين مدرسة صوفية أشرف عليها مع أبرز تلاميذه ، ومنهم الشيخ أبو العباس المرسي (616هـ / 1219م - 686هـ / 1287م) ، وابن عطاء الله السكندري (ت 709هـ / 1309م) الذين كان لهم دور كبير في نشر تراث الشاذلية وجمع أوراها ، للتفاصيل راجع : أحمد بن محمد بن عياد الشافعي، 2004 المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، إعتنى به عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، ص 14، 16؛ محمد اعبيدو ، الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش ، دار أبي الرقاق للطباعة والنشر ، الرباط، 2013، ص ص 4 - 11.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830)، دار البصائر، الجزائر، ج1، 2007، ص 192.

(4) - FILALI(K), saintete Marabotique et etude du mouvement Mysticisme ,Contribution A L etude du mouvement Marabotique en ALgerie sous La Domination Turque,in Insanyyat,N°3 ,P121.

(5) - سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، ص 495.

(6) - يشير سعد الله أن الشيخ التواتي منحهم رمزا يتمثل في عصا صلبة لكمال راييس دلالة عن قرب تخليه عن منصبه ، أما بيري راييس منحه عصا طرية دلالة على المستقبل الزاهر ، وهذا الاعتقاد كان له أثر في الحكام العثمانيين والمرتبطين بشيوخ التصوف : أنظر : سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، ص 466.

(7) - نفسه ،ص 492.

(8) - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الصّبّاغ، 1140هـ، 1727م، بستان العارفين هار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1707، ص 117.

(9) - Bodin (M) , Note et question sur sidi Ahmed ben Yousef, - Rev Afr N°66, 1925, OPU, Alger, 1986 ,pp169,175.

(10) - عبد الله نجمي، التصوف

والبدعة بالمغرب طائفة العكاكزة ق 16-17م، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2000، ص 63 .

(11) - محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية ، الجزائر ، 1979، ص ص 97 ، 100 .

(12) - نسبة إلى الحسين بن علي رضي الله عنه :أنظر : مجهول المؤلف ، مناقب أحمد بن يوسف الراشدي الملياني ، دفين مليانة الجزائرية ، مخطوط ، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز ، الدار البيضاء ، ص 1.

(13) - لم يولي الصّبّاغ اهتماما بنسب أحمد بن مخلوف بقدر ما اكتفى بإبراز كونه راشدي النسب ، وانتمائه الهواري المريني الزناتي ، أنظر : الصّبّاغ ، المصدر السابق ، ص 1 ، وعن سلسلة النسب المذكورة راجع : Emile Dermehem , Le culte des saints dans LIslam : Maghreben Paris, 1954, p 223.

Ibid.p245.

(15) - Bodine , op , cit, p135-

(16) - اسمه الكامل أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي والمعروف بزروق نسبة إلى جده ، ولد سنة (846هـ / 1442م) بالقرب من تازة بالمغرب الأقصى وهو فقيه مالكي ، ويعتبر من الشيوخ الذين وضعوا قواعد للتصوف ترك مؤلفات عديدة مثل " قواعد التصوف " و"عدة المرید

الصادق" ، توفي بمصراتة (غرب ليبيا) ، للتفاصيل أنظر عنه : عبد الرحمان بن محمد العياشي ، الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية ، الخزانة العامة للرباط ، رقم 157 ، ص 2؛ أيضا السابق أحمد بابا التمبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تعليق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، ط1، طرابلس، 1989، ص، ص 130 -133؛ أيضا : محمد بن عسكر الحسيني الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق محمد حجي ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر والترجمة، الرباط ، 1977، ص 48.

(17) - نجمي ، المرجع السابق ، ص 63.

(18) - الصبّاغ ، المخطوط السابق ، ص 85-86.

(19) - نجمي ، المرجع السابق، ص 84-85.

(20)- إلى جانب مشروعية سند الإتصال فإن جميع الطرق الفرعية عن الزروقية تنتظم في سلك

الشاذلية ، حيث تجعل للشيخ سند جديد في الشاذلية عن طريق محمد السخاوي ، عن أبي زيد القبابي عن علي بن عبد الكافي ، عن ابن عطاء الله أخص تلاميذ الشيخ أبي العباس المرسي مريد الإمام أبي الحسن الشاذلي أنظر: خشيم ، المرجع السابق ، ص 176، أيضا : الطاهر بونابي : طريقة أحمد بن يوسف الملياني ، الراشدي بين ثنائية التصوف العرفاني السني والطريقة الصوفية الإصلاحية ، من (9هـ-

10هـ/ 15-16م) ، مجلة المواقف ، العدد السادس ، كلية الآداب واللغات والعلوم الإجتماعية والإنسانية ، معسكر ، ديسمبر 2011، ص 396-397؛ النجمي ، المرجع السابق ، ص 115

(21) - وينسب إلى أحمد بن يوسف قوله في سنده "طريقتنا هذه من واحد إلى واحد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنظر : الصبّاغ ، المصدر السابق ، ص 130.

(22) - أنظر : بونابي ، المرجع السابق ، ص 397؛ سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، ص ص 494-496.

(23) - الصبّاغ ، المصدر السابق ، ص 243؛ بونابي ، المرجع السابق ، ص 398.

(24) - النجمي ، المرجع السابق ، ص 115.

(25) Rinn,op -cit ,pp 271,273.

- (26) - الشفشاوي ، المصدر السابق، ص125.
- (27) - نفسه ص ص 64 ، 90.
- (28) - الصّبّاغ ، المصدر السابق ، ص26
- (29) - نفسه ص 27.
- (30) - تعددت الروايات حول فترة حكمه ما بين (880-911/1475-1505م) ، ما بين (911هـ - 922/1505 - 1516م) للتفاصيل أنظر : Bodin , op,cit ,pp 166,170؛ نجمي ، المرجع السابق ، ص 98.
- (31) - أبو القاسم سعد الله ، السلطة السياسية والطرق الصوفية في المغرب العربي أثناء العهد العثماني ، ضمن كتاب على خطى المسلمين ، حراك في التناقض ، عالم المعرفة ، الجزائر ، ط1. 2009، ص 183.
- (32) - نجمي ، المرجع السابق، ص89.
- (33) Marcel. Bodin,op,cit , PP 173, 174
- (34) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص464.
- (35) - نجمي ، المرجع السابق، ص99.
- (36) - ينفي نجمي العلاقة بين حكم ابو حمو على الملياني بالسجن تنفيذاً للحكم المؤجل الذي أصدره قبله الأمير أبو عبد الله ، مرجعاً ذلك إلى السياق المختلف بين المرحلتين أنظر : نجمي ، المرجع السابق ، ص 99.
- (37) - الصّبّاغ ، المصدر السابق ، ص11.
- (38) - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983، ص45.
- (39) - نجمي ، المرجع السابق، ص 102.
- (40) - الصّبّاغ ، المصدر السابق ، ص13.
- (41) - نجمي ، المرجع السابق، ص 103.

(42). صادوق محمد الحاج ،مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف ، ديوان المطبوعات الجامعية،1964،ص ص104،105.

(43). Bodin, op-cit, p.185.

(44)- صادوق، المرجع السابق،ص105.

(45)- الصَّبَاغ،المصدر السابق،ص125.

(46)- سعد الله،السلطة السياسية ..،ص198.

(47)- سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص465.

(48) - الحسين بن محمد السعيد الورتلاني،نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا،الجزائر،1908، ص 107 .

(49) . Bodin, op-cit, p.18 .

(50) Auguste,Cour ,Letablissement des dynasties des cherifsdumaroc et leur rivalite regence dAlger(1509- 1830),Paris,1954,pp de la 79,127.

(51) -عبد الله حمودي،الشيخ والمريد،النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة،ط4،ترجمة عبد الحميد جحفة،دار توبقال للنشر،الدار البيضاء،المغرب،2014، ص ص 110،112،

(52) - حسين بن رجب شاوش بن المفتي،تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها،ط1 دراسة وتحقيق : فارس كعوان ، بيت الحكمة،العلمة الجزائر،2009،ص32.

(53) ناصر الدين سعيدوني،الإدارة العثمانية في الأرياف الجزائرية "نموذج مقاطعة دار السلطان"، أعمال المؤتمر الرابع للدراسات العثمانية حول : الحياة الإدارية و بروز القوميات ودور الأقليات في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، جمع ومراجعة وتقديم :عبد الجليل التميمي ،منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات بزغوان ،تونس،1992،ص 263.

نسبة القول بجواز قتل الثلث لاستصلاح الثلثين إلى الإمام مالك، تاريخها،
وموقف المحققين منها.

أ/فاتح حب الحمص / كلية العلوم الإسلامية (الخروبة) / جامعة الجزائر 1.
habelhames.info@gmail.com

الملخص:

في القرن الخامس الهجري نسب إمام الحرمين الجويني إلى الإمام مالك القول بجواز قتل الثلث لاستصلاح الثلثين، وتابعه على هذه النسبة جماعة من الفقهاء، فردّ عليهم علماء المالكية، ويّبنوا أن هذا القول لا تصح نسبته إلى الإمام مالك، ولم يقله أحد من المالكية، سوى ما أفتى به اللّخمي في مسألة السفينة، وهو من اجتهاداته الخاصة التي شدّ فيها عن مذهبه المالكي؛ وعليه فإنه لا يصح -تاريخيا- أن يُنسب هذا القول إلى الإمام مالك، وإن أفتى على وفقه اللّخمي.

Summary:

The imam of Al-Haramain al-Juwaini has attributed to Imam Malik the saying that it is permissible to kill one-third to reclaim the two-thirds, and this was followed by a group of fundamentalists, The scholars of the Maalikus responded to this, and clarified that this view is not valid for Imam Malik, Or any one from maalikus, except what was said by lakhmi in The issue of the ship, which is one of his own insights, which is a deviation from the doctrine of Maliki; and therefore it is not permissible to attribute to the Imam Malik this statement based on the fatwa of the lakhmi.

الكلمات المفتاحية: مالك، الجويني، اللّخمي، الثلث، الثلثين، استصلاح،

السفينة.

مُقَدِّمَةٌ

لقد عرف التاريخ الإسلامي منذ قرونه الأولى وإلى يومنا هذا نشاطا تأليفيا واسعا، أفرز لنا ثروة هائلة من المصنفات في مختلف المجالات والتخصصات.

وقد رافق حركة التأليف في العلوم الشرعية ظهور المذاهب واختلاف الآراء، فصار من اهتمامات كثير من المصنفين بسط الخلاف وعرض الأقوال منسوبة إلى أشخاص أو طوائف؛ بغرض التقييم، وهي ظاهرة إيجابية إذا ما التزم فيها التحري في النقل، والإنصاف في النقد.

والخطأ لا يردُّ غالبا فيما ينسبه المصنّف إلى إمام مذهب أو أصحابه؛ لأنه يكون على دراية تامة بأرائهم، وممارسة طويلة لمؤلفاتهم، واطلاع كاف على ما تصح نسبته إليهم.

ولكن الخطأ يحصل كثيرا فيما ينسبه المصنّف إلى غير إمامه وأصحابه؛ معتمداً على وسائل قد لا تُمتُّ بصلة وثيقة إلى مَنْ يُنسب إليه هذا الرأي، أو متكئا على قول شاذ لأحد الأعلام لا يصح أن يُحمَّل إمام مذهب وأصحابه تبعته.

ويتفاهم الوضع إذا تغافل هذا المصنف عن قواعد التحري وأصول التحقيق، منساقا مع الرد، حريصا على النقد، خاصة إذا كانت المسألة مما خالف فيها مذهب المذهب المردود عليه.

وفيما يلي دراسة تاريخية أصولية فقهية تتناول هذه الظاهرة من خلال نموذج حي، يتمثل فيما نسب إلى الإمام مالك في بعض كتب الأصول وغيرها من القول بجواز قتل الثلث لاستصلاح الثلثين.

والغرض منه أساسا هو التثبت من صحة هذه النسبة، بعد الكشف عن تاريخها، وأصحابها، وأصلها، وموقف المحققين منها.

المطلب الأول: الإمام مالك والاستصلاح

أولا: تعريف موجز بالإمام مالك

هو إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني.

وأمه هي: العالية بنت شريك بن عبد الرحمن الأزديّة.

ولد سنة ثلاث وتسعين للهجرة (93هـ)، ونشأ في صون ورفاهية. أخذ العلم عن جماعة من كبار علماء عصره، منهم: أيوب بن أبي تميمة السخيتاني، وداود بن الحصين، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وموسى بن عقبة، ونافع بن مالك، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ويزيد بن رومان، وغيرهم. تأهل للفتيا وله إحدى وعشرون سنة، وجلس للإفادة؛ فقصده طلبة العلم من الآفاق، وازدحموا عليه.

كان مجلسه مجلس وقار وحلم، ليس فيه شيء من المرء واللغظ؛ وكان رجلاً مهيباً. أخذ عنه العلم جماعة من الأفاضل، منهم: حماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ومحمد بن الحسن الشيباني، وعبد الرحمن بن القاسم، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن وهب، وأشهب بن عبد العزيز، ومحمد بن إدريس الشافعي، وعبد الله بن عبد الحكم، ويحيى بن يحيى الليثي، ومطرف بن عبد الله. وحدث عنه جماعة من شيوخه وأقرانه، وجاوز عدد الرواة عنه ألفاً وثلاثمائة (1300).

امتحنه بعضُ الولاة؛ بسبب فتواه بعدم وقوع طلاق المكره، فضُرب بالسياط وجبذت يده حتى خُلِعَتْ من كتفه، فلم يزد ذلك إلا رفعة وعلوًّا. أعظم مؤلفاته كتاب "الموطأ"، وقد اعتنى به العلماء من قديم، وشرحه جماعة منهم.

وله مؤلفات أخرى غيره، منها: رسالة في القدر، ورسالة في الأقضية، ورسالة في إجماع أهل المدينة، وجزء في التفسير، إضافة فتاوى ومسائل كثيرة نقلها عنه كبار أصحابه، ومن أعظمها "المدونة".

وهو أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة، وأعرض عمّن ليس بثقة في الحديث؛ فلم يكن يروي إلا ما صح، ولا يحدث إلا عن ثقة. مات سنة تسع وسبعين ومئة للهجرة (179هـ)، ودفن بالبقيع.

ملاً مذهبه المغرب، والأندلس، وكثيراً من بلاد مصر، وبعض الشام، واليمن،

والسودان، والبصرة، وبغداد، والكوفة، وبعض خراسان.

وقد تأول جماعة من الأئمة كسفيان بن عيينة، وابن جريج، قوله صلى الله عليه وسلم: «يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ»ⁱ. على أن المراد هو الإمام مالك.ⁱⁱ

قال الذهبي: «لم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقهِ والجلالة والحفظ»ⁱⁱⁱ.

وقد أُلّف في مناقبه وأخباره جماعة من العلماء منهم: القاضي أبو عبد الله التستري، وأبو الحسن بن المنتاب، وأبو إسحاق بن شعبان، والزيير بن بكار، وأبو بكر الأبهري، وأبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وأبو عمر بن عبد البر، وأبو عبد الله الحاكم النيسابوري، وأبو الوليد الباجي.^{iv}

ثانياً: الاستصلاح وضوابطه عند الإمام مالك

الاستصلاح في اللغة: «نقيض الاستفساد»^v.

وهو في الاصطلاح: «اتِّبَاعُ الْمَصْلِحَةِ الْمُرْسَلَةِ»^{vi}.

ويوضح معناه قول محمد الأمين الشنقيطي: «إن المصالح المرسلّة التي تسمى عند الأصوليين بهذا الاسم، وبالاستصلاح، وبالمرسل، هي: الوصف المناسب الذي يتضمن ترتب الحكم عليه مصلحة، والحال أنه لم يرد نص من الشارع على اعتبار نفس ذلك الوصف في نفس ذلك الحكم، ولا على عدم اعتباره فيه»^{vii}.

والمصلحة المرسلّة - من حيث رتبته - على ثلاثة ضروب:

الضرب الأول: ما يقع في رتبة الضروريات، وهو ما عرف من الشارع الالتفات إليها، وهي خمسة: أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وعقلهم، ونسبهم، ومالهم. ومثاله: قضاء الشارع بقتل الكافر المضل، وعقوبة المبتدع الداعي إلى البدع؛ صيانة لدينهم، وقضاؤه بالقصاص؛ إذ به حفظ النفوس، وإيجابه حد الشرب؛ إذ به حفظ العقول، وإيجابه حد الزنا؛ حفظاً للنسل والأنساب، وإيجابه زجر السارق؛ حفظاً للأموال. والثاني: ما يقع في مرتبة الحاجات، كتسليط الولي على تزويج الصغيرة، فذلك لا ضرورة إليه، لكنه محتاج إليه لتحصيل الكفاء؛ خيفة من الفوات، واستقبالا للصالح

المنتظر في المآل.

والثالث: ما يقع موقع التحسين والتزيين، ورعاية أحسن المناهج في العبادات والمعاملات، كاعتبار الولي في النكاح، صيانة للمرأة عن مباشرة العقد؛ لكونه مشعرا بتوقان نفسها إلى الرجال، ولا يليق ذلك بالمرءة، ففوض ذلك إلى الولي؛ حملا للخلق على أحسن المناهج.^{viii}

ولا خلاف بين المالكية في اعتبار الإمام مالك للمصالح المرسلّة الواقعة في رتبة الضروريات والحاجيات، ولكن وقع الخلاف بينهم في اعتباره للمصالح المرسلّة الواقعة في رتبة التحسينيات.

فالشاطبي مثلاً فهم من مذهب الإمام مالك مراعاة المصلحة المرسلّة إذا كانت ضرورية أو حاجية، وعدم مراعاتها إذا كانت تحسينية؛ فقال في «الاعتصام» وهو يعدد الضوابط التي تميز المصلحة المرسلّة عن البدعة:

«والثالث: أن حاصل المصالح المرسلّة يرجع إلى حفظ أمر ضروري أو رفع حرج لازم في الدين... أما رجوعها إلى ضروري فظاهر من الأمثلة المذكورة، وكذلك رجوعها إلى رفع حرج لازم، وهو إما لاحق بالضروري، وإما من الحاجي. وعلى كل تقدير فليس منها ما يرجع إلى التحسين والتزيين البتة، فإن جاء من ذلك شيء، فإما من باب آخر لا منها، كقيام رمضان في المساجد جماعة -حسبما تقدم-، وإما من قبيل البدع التي أنكرها السلف الصالح، كزخرفة المساجد، والتثويب بالصلاة، وهو من قبيل ما لا يلائم»^{ix}.

ووافق الشاطبي على هذا الفهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي؛ حيث قال في «مذكرته الأصولية»:

«واعلم أن مالكا يراعي المصلحة المرسلّة في الحاجيات والضروريات، كما قرره علماء مذهبه... فقد عرفت أنواع المصالح، وعرفت المرسل منها وغير المرسل، وعرفت أن مالكا يراعيها في الحاجيات كالضروريات»^x.

أما شهاب الدين القرافي فإنه قد فهم من مذهب الإمام مالك اعتبار المصالح المرسلّة مطلقاً بمراتبها الثلاث؛ حيث قال بعد سرده لمجموعة من الوقائع التي اعتمد فيها

الصحابة على مطلق المصلحة:

«وأمر كثيرة لا تُعدُّ ولا تحصى، لم يكن في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم شيء منها، بل اعتمد الصحابة فيها على المصالح مطلقاً، سواء تقدم لها نظير أم لا، وهذا يفيدنا القطع باعتبار المصالح المرسله مطلقاً، كانت في مواطن الضرورات، أو الحاجات، أو التتمات»^{xi}.

ووافق القرافي على هذا الفهم أحمد بن عبد الرحمن حلولو^{xii}، فنقل في «شرحه للتنقيح» عن الإمام مالك اعتبار المناسب المرسل مطلقاً.^{xiii} وهذا عينه ما نقله جماعة من غير المالكية عن الإمام مالك. قال البيضاوي في «المنهاج»:

«الخامس: المناسب المرسل. إن كانت المصلحة ضرورية قطعية كلية، كتترس الكفار الصائلين بأسارى المسلمين؛ اعتبر. وأما مالك، فقد اعتبره مطلقاً؛ لأن اعتبار جنس المصالح يوجب ظن اعتباره، ولأن الصحابة رضي الله عنهم قنعوا بمعرفة المصالح»^{xiv}.

وقال شمس الدين الجزري^{xv} في «معراج المنهاج»: «وذهب مالك رضي الله عنه إلى اعتبار المصلحة كيف كانت، في محل ضرورة، أو حاجة، أو تنمة»^{xvi}. وقال التاج السبكي في «رفع الحاجب»: «والذي صح عن مالك أنه اعتبر جنس المصالح مطلقاً»^{xvii}.

وشدَّ ابن قدامة فنقل عن الإمام مالك أنه لا يراعي المصلحة المرسله إلا في الضروريات.^{xviii} هذا عن ضوابط المصلحة المرسله التي يعتبرها الإمام مالك أصلاً من أصول مذهبه.

أما دليله على اعتبارها فهو اعتماد الصحابة رضي الله عنهم عليها في كثير من الوقائع المنقولة عنهم؛ كما صرح به القرافي في كلامه السابق.

وقد نص الشنقيطي على انعقاد إجماع الصحابة على ذلك؛ حيث قال: «ودليل مالك على مراعاتها إجماع الصحابة عليها، كتولية أبي بكر لعمر، واتخاذ

عمر سجنا، وكتبه أسماء الجند في ديوان، وإحداث عثمان لأذان آخر في الجمعة، وأمثال ذلك كثيرة جدا»^{xix}.

المطلب الثاني: تاريخ هذه النسبة وموقف المحققين منها أولاً: تاريخ هذه النسبة

في سياق الكلام عن المصالح المرسله، وإبطال التمسك بها، وبيان سلبيات بناء الأحكام عليها؛ نَسَبَ بعضُ العلماء إلى الإمام مالك القولَ بجواز قتل الثلث لاستصلاح (أو استبقاء) الثلثين.

وأول من أظهر هذه النسبة وأشاعها هو: إمام الحرمين الجويني، وقد كررها في عدد من مصنفاته؛ بغرض بيان إفراط الإمام مالك -على حد تعبيره- في تعليق الأحكام بالمصالح.^{xx}

ومن ذلك قوله في «البرهان»:

«فلو قُدِّرَ وقوعُ واقعة حسبت نادرة لا عهد بمثلها، فلو رأى دُو نَظَرٍ جَدَعَ الأنفِ أو اصطلام^{xxi} الشفة، وأبدى رأياً لا تنكره العقول؛ صائراً إلى أن العقوبات مشروعة لحسم الفواحش، وهذه العقوبة لائقةٌ بهذه النادرة، فمثل هذا مردودٌ، ومالك رضي الله عنه التزم مثل هذا في تجويزه لأهل الإيالات^{xxii} القتل في التهم العظيمة، حتى نقل عنه الثقاتُ أنه قال: أنا أقتلُ ثلثَ الأمة لاستبقاء ثلثيها»^{xxiii}.

وبصدد الثناء على الشافعي وترجيح مذهبه، وبعدهما عاب أبا حنيفة بعدم الاعتناء بجمع الأخبار والآثار، قال في «البرهان» أيضاً:

«وأما الإمام مالك فلا يُشَقُّ غبازه في ضبط ما يصح من الأخبار والآثار... ولكنه يَنَحُلُّ بعض الانحلال في الأمور الكلية، حتى يكاد أن يُثَبِّت في الإيالات والسياسات أموراً لا تناظر قواعد الشريعة، وكان يأخذها من وقائع وأقضية لها محامل على موافقة الأصول بضرب من التأويل، فكان يتمسك بها ويتخذها أصولاً، ويبنى عليها أموراً عظيمة كما روي أن عمر رضي الله عنه قال للمغيرة وكان قد أخذ قذاةً^{xxiv} من لحيته، فظن عمر به استهانة فقال: "أَبْنُ مَا أَبْنَتْ وَإِلَّا أَبْنَتْ يَدَكَ"، ونُقِلَ عنه مشاطرة خالد وعمرو بن العاص على أموالهما. فاتخذ ذلك أصلاً، فرأى إراقة دَمٍ، وأخذ أموال بُتْهِمٍ من

غير استحقاق؛ لمصالح إيالية، حتى انتهى إلى أن قال: أقتلُ ثلث الخلق في استبقاء
ثلثيهم»^{xxv}.

وقال فيه أيضا:

«وبيان ذلك بالمثال أن مالكا لما زلَّ نظره، كان أثر ذلك تجويز قتل ثلث الأمة،
مع القطع بتحرز الأولين عن إراقة محجمة دمٍ من غير سبب متأصل في الشريعة، ومنه
تجويزه التأديب بالقتل في ضبط الدولة وإقامة السياسة، وهذا إن عُهدَ فهو من عادة
الجبابة، وإنما حدثت هذه الأمور بعد انقراض عصر الصحابة»^{xxvi}.

وفي كتابه «مغيث الخلق» الذي ادعى فيه «أنه يجب على كافة العاقلين، وعمامة
المسلمين، شرقاً وغرباً، بعدا وقربا؛ انتحالُ مذهب الشافعي»^{xxvii}، ذكر المانع من
الاقتراء بمذهب الإمام مالك، بعد اعترافه بأنه ملائم للأصول، فقال:

«ولكنه رحمه الله أفرط في ملاحظة الكتاب وقطع الذرائع، حتى أفضى به الأمر
إلى أن قتل ثلث الأمة في إصلاح ثلثيها، وتعليق العقوبات بالتهم وغير ذلك، حتى روي
عنه أن سارقا لو حضر مجلس القاضي وأدُعِيَ عليه السرقة، فظهر عليه القلق والوجل،
واحمرت وجنتاه واصفرت خدها، قال: تُقَطَّع يده من غير الشهود؛ لأن القرائن
والمخايل^{xxviii} تقوم مقام الشهود والدلائل، وكذا في سائر العقوبات»^{xxix}.

وقال في كتابه «الغياثي»: «

ثم التعزيرات لا تبلغ مبلغ الحدود على ما فصله الفقهاء. وما يتعين الاعتناء به
الآن -وهو مقصود الفصل- أن أبناء الزمان ذهبوا إلى أن منصب السلطنة والولاية لا
تستدُّ إلا على رأي مالك رضي الله عنه، وكان يرى الازدياد على مبالغ الحدود في
التعزيرات، ويسوِّغ للوالي أن يقتل في التعزير، ونَقَلَ النَّقْلَةَ عنه أنه قال: للإمام أن يقتل
ثلث الأمة في استصلاح ثلثيها»^{xxx}.

هذا بعض كلام الجويني من بعض كتبه، ومما يلاحظ عليه فيه:

• تجاوزُه النسبة المذكورة إلى دعاوى أخرى عريضة يَنسِبُ فيها إلى الإمام مالك
أيضا أنه أباح للولاة: القتل، وأخذ الأموال، وقطع الأيدي؛ بمجرد التُّهَم، والازدياد على
مبالغ الحدود في التعزير!

- جزؤه بنسبة هذه الأقوال الفظيعة إلى الإمام مالك، مُدْعِيًا أَنهَا مِنْ نَقْلِ النُقْلَةِ، وَأَنَّهُمْ ثَقَات! مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْصَحَ عَنْ أَعْيَانِهِمْ!
- جرأته الشديدة، وعباراته الغليظة المنفّرة، التي طالت الإمام مالكا وغيره! والتي جعلت أبا عبد الله المازري يعبر عن استيائه إزاءها بقوله في «إيضاح المحصول»:

«كما أستثقل منه الرمز إلى: (مخالفة مالك وأصحابه للسلف)! و(استيظائهم مركب العقوق في الحقوق)! و(خرقهم حجاب الهيبة)! إلى غير ذلك من ألفاظه التي هي مُصَيِّحَةٌ، وليست معانيها صحيحةً، ولا معنى للعقوق ههنا وذِكره، وهو كالحارق في مقدم نفسه حجاب الهيبة؛ إذ لم يَتَهَيَّبْ أبا حنيفةً ولا مالكا رضي الله عنهما»^{xxxix}.

والمؤسف أن بعض العلماء تابع الجويني على هذه النسبة من غير تَثَبُّتٍ.

منهم أبو حامد الغزالي، تلميذه الكبير؛ حيث قال في «المنحول»:

«فاسترسل مالك رضي الله عنه على المصالح؛ حتى رأى قَتْلَ ثَلَاثِ الْأُمَّةِ لاسْتِصْلَاحِ ثَلَاثِيهَا، وَقَتْلَ فِي التَّعْزِيرِ، وَقَطَعَ اللِّسَانَ فِي الْهَذَرِ»^{xxxix}.

وقال فيه أيضا:

«فإن قيل: ما الفرقُ بين مذهبكم ومذهب مالك رضي الله عنه، حيث انتهى الأمر به في اتباع المصالح إلى القتل في التعزير، والضرب لمجرد التهمة، وقتل ثلاث الأمة لاستصلاح ثلثيها، ومصادرة الأغنياء عند المصلحة...؟ قلنا: الفرق بيننا أننا تَبَبَّهْنَا لأصل عظيم لم يَكْتَرِثْ مالكُ به، وهو أننا قَدَّمْنَا إجماع الصحابة على قضية المصلحة... ومالك لم ينتبه لهذا الأصل»^{xxxix}.

وقال فيه أيضا:

«فأما مالك رحمه الله فقد استرسل على المصالح استرسالا جَرَّهُ إِلَى قَتْلِ ثَلَاثِ الْأُمَّةِ لاسْتِصْلَاحِ ثَلَاثِيهَا، وَإِلَى الْقَتْلِ فِي التَّعْزِيرِ، وَالضَّرْبِ بِمَجْرَدِ التَّهْمِ»^{xxxix}.

وقال في «شفاء الغليل»:

«وقد نُقِلَ عَنْ مَالِكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَتْلَ ثَلَاثِ الْأُمَّةِ لاسْتِصْلَاحِ ثَلَاثِيهَا؛ مِنْ طَرِيقِ الْمَصَالِحِ»^{xxxv}.

والملاحظ أن الغزالي لم يَسَلِّمْ مِنَ الْجَرَاةِ وَالِدَعَاوَى الَّتِي وَقَعَ فِيهَا شَيْخُهُ الْجُوَيْنِيُّ.

ومنهم ابنُ قدامة المقدسي؛ حيث قال في «روضة الناظر»:

«فإذا أثبت حكماً لمصلحة من هذه المصالح لم يُعلم أن الشرع حافظ على تلك المصلحة بإثبات ذلك الحكم، كان وضْعاً للشرع بالرأي، وحُكماً بالعقل المجرد، كما حُكي أن مالكا قال: "يجوز قتل الثلث من الخلق لاستصلاح الثلثين"، ولا نعلم أن الشرع حافظ على مصلحتهم بهذه الطريق، فلا يُشرعُ مثله. والله أعلم»^{xxxvi}.

وقوله «حُكي» يحمل بعض الورع المفتقد في عبارات الجويني والغزالي.

والغريب أن بعض المالكية المتأخرين نقلَ مقالة الجويني وسكت عنها؛ كأنه مُقرٌّ بصحتها.^{xxxvii}

وأغرب منه أن بعضهم قبلها، وتكَلَّفَ لها بعض التفصيل والتقييد.^{xxxviii}

ثانياً: موقف المحققين من هذه النسبة

أنكر جماعة من محققي المالكية والمنصفين من غيرهم أن يكون الإمام مالك قد أجاز قتل الثلث لاستصلاح (أو استبقاء) الثلثين؛ معتمدين في ذلك على استقرار كلامه وكلام أصحابه.

منهم أبو الحسن الأبياري^{xxxix}؛ حيث نقل عنه الشيخُ حلولو قوله:

«وما نسبه إمامُ الحرمين إلى مالك من جواز قتل ثلث الأمة لاستصلاح ثلثيها قد أنكره المالكية، ولا يوجد ذلك في كتبهم، وإنما هو في كتب المخالفين لهم، وكذلك ما ذكر من أن مالكا يبيح في العقوبات قطع الأعضاء ليس بصحيح؛ لأن هذا مما دل الدليل على إهداره»^{xl}.

ومنهم شهاب الدين القرافي؛ الذي ردَّ على الجويني دعواه، بقوله في «نفائس الأصول»:

«وكذلك ما نقله عن الإمام في «البرهان» من أن مالكا يجيز قتل ثلث الأمة لصلاح الثلثين، المالكية ينكرون ذلك إنكاراً شديداً، ولم يوجد ذلك في كتبهم، إنما هو في كتب المخالف لهم ينقله عنهم، وهم لا يجدونه أصلاً»^{xli}.

ومنهم نجم الدين الطوفي الحنبلي؛ حيث قال في «شرح مختصر الروضة»: «لم أجد هذا منقولاً فيما وقفتُ عليه من كتب المالكية، وسألتُ عنه جماعة من فضلائهم فقالوا:

لا نعرفه»^{xlii}.

ومنهم محمد بن الحسن البناني^{xliii}، الذي نقلَ عن أبي عبد الله الحطاب^{xliv}،
ومحمد بن عبد القادر الفاسي^{xlv}، وأبي العباس الشماع^{xlvi}؛ إنكارهم لما نسبته الجويني إلى
الإمام مالك، وذكر أن أبا عبد الله العربي الفاسي^{xlvii} أشبع الكلام على هذه المسألة في
جواب له طويل.^{xlvi}

ومنهم محمد الأمين الشنقيطي؛ حيث قال في محاضراته «المصالح المرسله»: «
أما دعواهم على مالك أنه يجوز قتل ثلث الأمة لإصلاح الثلثين، وأنه يجوز قطع
الأعضاء في التعزيرات، فهي دعوى باطلة لم يقلها مالك، ولم يروها عنه أحد من
أصحابه، ولا توجد في شيء من كتب مذهبه، كما حققه القرافي ومحمد بن الحسن البناني
وغيرهما، وقد درّسنا مذهب مالك زمنا طويلا وعرفنا أن تلك الدعوى باطلة»^{xlix}.

وأنكر في مذكرته الأصولية على ابن قدامة وأسلافه إطلاقهم لهذه النسبة، بقوله:
«وما ذكره المؤلف رحمه الله من أن مالكا رحمه الله أجاز قتل الثلث لاستصلاح
الثلثين ذكره الجويني وغيره عن مالك، وهو غير صحيح، ولم يروه عن مالك أحد من
أصحابه، ولم يقله مالك، كما حققه العلامة محمد بن الحسن البناني في حاشيته على
شرح عبد الباقي الزرقاني¹ لمختصر خليل»^{li}.

المطلب الثالث: مسألة السفينة وعلاقتها بهذه النسبة

أولا: صورة المسألة

قال الغزالي في «شفاء الغليل»: «

«فإن قال قائل: لو اجتمع جماعة في سفينة، وأشرفت على الغرق، وعلم أنه لو
أُلقيَ أحدهم في البحر لنجا الكل، ولو امتنعوا من ذلك لعمهم الهلاك؟ فلا شك في
اقتضاء المصلحة أن يُلقى واحدٌ في البحر بالقرعة؛ لأن فيه استبقاءً الباقين، وفي الامتناع
عن ذلك إهلاك الجميع، وإبقاء النفوس وتقليل الإهلاك واجب، وقد نقل عن مالك
رضي الله عنه: قتلُ ثلث الأمة لاستبقاء ثلثيها؛ من طريق المصالح. فما رأيكم فيه؟»^{lii}.

وقد تضمن كلام الغزالي هذا تصويرًا للمسألة، مع ربطها بما نُسب إلى الإمام
مالك، وكان ذلك منه في معرض التمثيل لما كان من المصالح غريبا عن تصرفات الشرع.

ثانياً: فتوى اللخمي في مسألة السفينة، وموقف المالكية منها

انفرد أبو الحسن اللخمي^{liii} من المالكية بأن أفتى بِطَرَحِ بعض أهل السفينة بالقرعة؛ إذا خيف غرق جميعهم.^{liv}

ولم يكن ذلك منه نقلاً لمذهب مالك، بل كان من اجتهاداته الخاصة.

وقد قُوبِلَتْ هذه الفتوى بالإنكار والردّ من طرف المالكية.

قال محمد بن الحسن البناي:

«ولما ذكر اللخميُّ أن المركب إذا ثَقُلَ بالناس وخيف عليه الغرق فإنهم يقترعون على مَنْ يُرْمَى، والرجال والنساء والعبيد وأهل الذمة في ذلك سواء، قال ابنُ عرفة^{lv} عَقَبَهُ: تَعَقَّبَ غَيْرُ واحدٍ نقل اللخمي طرح الذمي -فضلاً عن المسلم- لنجاة غيره، وربما نَسَبَهُ بعضهم لخرق الإجماع، وقال بعضهم: لا يُرْمَى الآدميُّ لنجاة الباقي، ولو كان ذمياً»^{lvi}.

ثالثاً: حكم مسألة السفينة عند غير اللخمي

لا يجوز عند غير اللخمي طرح بعض أهل السفينة لنجاة أكثرهم؛ لأن مصلحة تقليل الهلكى بتلك الطريقة مما عُهِدَ من الشرع إلغاؤه في نظائر هذه المسألة.

قال الغزاليُّ في «شفاء الغليل» إثرَ تصويره السابق لمسألة السفينة:

«قلنا: هذه بدعةٌ لا يجوز القول بها، والوجهُ التوكُّلُ على الله تعالى، وارتقَابُ نفوذ قضائه، فأما الإقراع والتخصيص بالإهلاك به فمحالٌ؛ لأن فيه قتلَ من ليس جانياً قصداً، ولا عهد في الشرع بتجريد القصد إلى قتلِ مَنْ ليس جانياً لمصلحة غيره، فمصلحة القتل فاتت، ومصلحة غيره ليست أهمَّ من مصلحته في حقه، ولا تغير مصلحة في حقه بالكثرة، ففي قتلِهِ تفويتُ كل أمره، وكيف لا؟ ولو أُكْرِهَ ظالمٌ شخصين على قتل شخص واحد، لم يُبَحْ لهما القتل لتكثير الإبقاء، ولو أُكْرِهَ مسلمٌ على قتلِ ذمِّيٍّ، أو عالمٌ تقيٌّ على قتلِ فاسقٍ غيبيٍّ، لم يَحِلَّ له قتله لمصلحة إحياء النفس وإبقائها، لا بطريق التقديم بالفضل، ولا بطريق التقديم بالكثرة؛ لأن المكروه على قتله لا جنائية من جهته، وحقُّه مرعي من عصمته في نفسه، فلا يجوز تفويته بالمصلحة. فهذه مصلحة غريبة غير ملائمة لتصرف الشرع، فليس في تصرفات الشرع قتل غير الجاني قصداً لمصلحة غيره»^{lvii}.

رابعاً: علاقة مسألة السفينة بما نسب إلى الإمام مالك

هناك علاقة ظاهرة بين (طرح بعض أهل السفينة؛ لنجاة أكثرهم)، و(قتل ثلث الخلق؛ لاستبقاء ثلثيهم)، وهي أن في كليهما قَصْدًا إلى إهلاك الأقل؛ لاستبقاء الأكثر، فهما فرعان لهذه القاعدة المصلحية، ولهذا قَرَنَهُمَا الغزالي ببعضهما في كلامه السابق عند تصوير مسألة السفينة، وجَعَلَ في «المستصفى» إحداهما لازمةً عن الأخرى مع التصريح بالجامع بينهما، حيث قال:

«وَيَتَأَيَّدُ بِمَسْأَلَةِ السَّفِينَةِ، وَأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ قَتْلُ ثَلَاثِ الْأُمَّةِ لِاسْتِصْلَاحِ ثَلَاثِيهَا؛ تَرْجِيحًا لِلكَثْرَةِ»^{lviii}.

مُبَيَّنًا أَنَّ الشَّرْعَ قَدْ أَلْغَى هَذِهِ الْمَصْلُحَةَ (تَرْجِيحِ الْكَثْرَةِ فِي الْإِهْلَاكِ)؛ بِانْعِقَادِ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أُكْرِهَ شَخْصَانِ عَلَى قَتْلِ شَخْصٍ؛ لَا يَجِلُّ لِهَمَا قَتْلُهُ، وَأَنَّهُ لَا يَجِلُّ لِمُسْلِمِينَ أَكَلُ مُسْلِمٍ فِي الْجَمَاعَةِ.^{lix}

خَاتِمَةٌ

تبين من خلال هذه الدراسة أن من الخطأ الفادح على التاريخ والدين أن يُقَوَّلَ الشخصُ ما لم يُقَلَّ، ويُتَنَاقَلَ عنه ما هو بريء منه، وإن كان هذا قد يحصل كثيرا من غير قصد؛ بسبب نقص التحري والتثبت تارة، أو التقليد والمتابعة تارة أخرى.

وعلى وجه الخصوص تبين جلياً أن الجويني كان مخطئاً هو ومن تابعه من العلماء في نسبتهم القول بجواز قتل الثلث لاستصلاح الثلثين إلى الإمام مالك؛ وأنهم لم يأتوا بأثارة من علم تشهد لهم بصحة ما نقلوا.

وأصاب المحققون من المالكية والمنصفون من غيرهم في تَبَرُّتِهِ مِنْهَا؛ مستنديين إلى استقراء كلامه وكلام أصحابه، وأهل مكة أدرى بشعابها.

ولا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ هَذَا الْخَطَأِ فِي النِّسْبَةِ مَسْأَلَةُ السَّفِينَةِ الْمَذْكُورَةُ آنفًا؛ بَأَنَّ يَكُونُ بَعْضُ النَّاسِ قَدْ نَقَلَ فِتْوَى أَبِي الْحَسَنِ اللَّخْمِيِّ فِيهَا إِلَى مُعَاصِرِهِ إِمَامِ الْحَرَمِيِّ الْجَوِينِيِّ، فَظَنَّهَا هَذَا الْأَخِيرُ مَذْهَبًا لِلْإِمَامِ مَالِكٍ، وَاسْتَنْتَجَ مِنْهَا بِطَرِيقِ الزُّوْمِ أَنَّهُ يُجِيزُ قَتْلَ ثَلَاثِ الْأُمَّةِ لِاسْتِصْلَاحِ ثَلَاثِيهَا، فَصَارَ يُنْقَلُ عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ اللَّازِمُ الْمُسْتَنْتَجُ؛ اتِّكَاءً عَلَى تِلْكَ الْفِتْوَى الشَّاذَّةِ.

وهذا النوع من الخطأ في النسبة كثيرا ما كان يحدث في أتباع المذاهب، وقد نبه الإمام ابن تيمية على نماذج منه في معرض رده على الغزالي فيما نسبته إلى الإمام أحمد؛ حيث قال:

«وأبو حامد في "الإحياء" ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة، وقال: "إنهم أسرفوا في التأويل، وأسرفت الحنابلة في الجمود"، وذكر عن أحمد بن حنبل كلاما لم يقله أحمد، فإنه لم يكن يعرف ما قاله أحمد، ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب، ولا ما جاء به القرآن والحديث، وقد سمع -مضافا إلى الحنابلة- ما يقوله طائفة منهم ومن غيرهم، من المالكية والشافعية وغيرهم، في الحرف والصوت وبعض الصفات، مثل قولهم: "إن الأصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية!" و"إن الحروف المتعاقبة قديمة الأعيان!" و"أنه ينزل إلى سماء الدنيا ويخلو منه العرش حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه وبعضها تحته!" إلى غير ذلك من المنكرات، فإنه ما من طائفة إلا وفي بعضهم من يقول أقوالا ظاهرها الفساد، وهي التي يحفظها من ينقروا عنهم ويشنع بها عليهم، وإن كان أكثرهم ينكرها ويدفعها، كما في هذه المسائل المنكرة التي يقولها بعض أصحاب أحمد ومالك والشافعي، فإن جماهير هذه الطوائف ينكرها، وأحمد وجمهور أصحابه منكرون لها، وكلامهم في إنكارها وردّها كثير جدا»^{ix}.

وهو يدل على مدى انتشار هذه الظاهرة واستفحالها، حتى عند من عرف بالتقدم في العلم؛ مما يستدعي الحذر منها، والسعي في تنقية التراث الإسلامي من شوائبها. والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لهوامش:

ⁱ رواه أحمد بن محمد بن حنبل في المسند (ط1)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1416هـ/ 1995م)، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، ج13، ص358؛ والترمذي محمد بن عيسى في سننه (ط1)، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996م)،

أبواب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة، ج4، ص412-413؛ ومحمد بن حبان في صحيحه (ط2)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1414هـ / 1993م)، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ج9، ص52-53؛ والحاكم محمد بن عبد الله في المستدرک (ط1)، القاهرة: دار الحرمين، 1417هـ / 1997م)، كتاب العلم، ج1، ص157. وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم.

ii ينظر: الترمذي، الجامع الكبير ج4، ص413؛ وابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ج9، ص53-54؛ والحاكم، المستدرک علی الصحیحین، ج1، ص158.

iii الذهبي محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء (ط3)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405هـ / 1985م)، ج8، ص58.

iv ينظر في ترجمة الإمام مالك: أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (ط1)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ / 1988م)، ج6، ص316-355؛ وعياض بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (عناية محمد بن تاويت، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، ج1، ص104-193؛ والسمعاني عبد الكريم بن محمد، الأنساب (ط1)، تعليق عبد الله عمر البارودي، بيروت: دار الجنان، 1408هـ / 1988م)، ج1، ص174؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء ج8، ص48-135؛ وابن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث (ط2)، تحقيق أكرم البوشي وإبراهيم الزبيق، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1417هـ / 1996م)، ج1، ص312-315؛ وابن فرحون إبراهيم بن نور الدين، الديباج المذهب (ط1)، تحقيق مأمون بن محيي الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ / 1996م)، ص56-81.

v الجوهري إسماعيل بن حماد، الصحاح (ط4)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، 1990م)، ج1، ص384، مادة «صلح».

vi ابن قدامة عبد الله بن أحمد، روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه (ط1)، تحقيق عبد الكريم بن علي النملة، الرياض: مكتبة الرشد، 1413هـ / 1993م)، ج2، ص537.

vii الشنقيطي محمد الأمين، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام (القاهرة: دار ابن تيمية)، ص151.

- viii ينظر: ابن قدامة، روضة الناظر، ج2، ص538-540.
- ix الشاطبي إبراهيم بن موسى، الاعتصام (تعليق مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة التوحيد)، ج3، ص56.
- x الشنقيطي، مذكرة في أصول الفقه (ط4، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ودمشق: دار العلوم والحكم، 1425هـ/ 2004م)، ص163.
- xi القرافي أحمد بن إدريس، نفائس الأصول (ط1، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكة المكرمة- الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، 1416هـ/ 1995م)، ج9، ص4088.
- xii هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن موسى القروي، المعروف بحلولو، فقيه أصولي مالكي، له شروح لعدد من المصنفات، توفي بعد سنة 875هـ. يُنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية (القاهرة: المطبعة السلفية ومكنتها، 1349هـ)، ج1، ص259.
- xiii يُنظر: حلولو أحمد بن عبد الرحمن، التوضيح شرح التنقيح (تحقيق بلقاسم بن ذاکر وغازي بن مرشد، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1425هـ/ 2004م)، ج3، ص948.
- xiv البيضاوي عبد الله بن عمر، منهاج الوصول إلى علم الأصول، مع شَرْحِيهِ: «نهایة السؤل» للإسنوي، و«منهاج العقول» للبدخشي (مصر: مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر، 1389هـ/ 1969م)، ج3، ص135-137. ويُنظر معه: السبكي عبد الوهاب بن علي، الإبهاج في شرح المنهاج (ط1، تحقيق أحمد جمال الزمزمي ونور الدين عبد الجبار صغيري، دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 1424هـ/ 2004م)، ج6، ص2436؛ وابن إمام الكاملية محمد بن محمد، تيسير الوصول إلى منهاج الأصول (ط1، تحقيق عبد الفتاح أحمد قطب، القاهرة: الفاروق الحديثة، 1423هـ/ 2005م)، ج6، ص128.
- xv هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري ثم المصري، فقيه أصولي متكلم شافعي، له شرح على «منهاج البيضاوي»، توفي سنة 711هـ. يُنظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى

- (ط1)، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج9، ص275-276.
- ^{xvi} شمس الدين محمد بن يوسف الجزري، معراج المنهاج (ط1)، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، 1413هـ/ 1993م)، ج2، ص232.
- ^{xvii} السبكي، رفع الحاجب عن مختصر بن الحاجب (ط1)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: عالم الكتب، 1419هـ/ 1999م)، ج4، ص342.
- ^{xviii} ينظر: ابن قدامة، روضة الناظر، ج2، ص539-540.
- ^{xix} الشنقيطي، المذكرة، ص163.
- ^{xx} ينظر: الجويني عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه (ط1)، تحقيق عبد العظيم الديب، قطر: 1399هـ)، ج2، ص1113.
- ^{xxi} الاصطلاح: هو الاستئصال. يُنظَر: ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب (تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، القاهرة: دار المعارف)، ج4، ص2489، مادة «صلم».
- ^{xxii} الإيالات جمع إيالة: وهي السِّياسة. يُنظَر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/ 1979م)، ج1، ص160، مادة «أول».
- ^{xxiii} الجويني، البرهان، ج2، ص1132-1133.
- ^{xxiv} القَدَاة: هي ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك. يُنظَر: ابن الأثير المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر (تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ج4، ص30، مادة «قذا».
- ^{xxv} الجويني، البرهان، ج2، ص1153-1154.
- ^{xxvi} المصدر نفسه، ج2، ص1206-1207.
- ^{xxvii} الجويني، مغيب الخلق في ترجيح القول الحق (ط1)، المطبعة المصرية، 1352هـ/ 1934م)، ص16.
- ^{xxviii} المَخَايِلُ: جمع مَخِيلَةٍ وهي المَظِنَّة. يُنظَر: الزبيدي محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر

- القاموس (تحقيق عبد الستار أحمد فراج وآخرين، مطبعة حكومة الكويت، 1385هـ/1965م)، ج28، ص461، مادة «خيل».
- ^{xxix} الجويني، مغيث الخلق، ص77.
- ^{xxx} الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم (ط2)، تحقيق عبد العظيم الديب، مطبعة نهضة مصر، 1401هـ)، ص219.
- ^{xxxii} المازري محمد بن علي، إيضاح المحصول من برهان الأصول (ط1)، تحقيق عمار الطالبي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001م)، ص292.
- ^{xxxiii} الغزالي أبو حامد محمد بن محمد، المنحول من تعليقات الأصول (ط2)، تحقيق محمد حسن هيتو، دمشق: دار الفكر، 1400هـ/1980م)، ص354.
- ^{xxxiv} المصدر نفسه، ص365-366.
- ^{xxxv} المصدر نفسه، ص500.
- ^{xxxvi} الغزالي، شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل (ط1)، تحقيق حمد الكبيسي، بغداد: مطبعة الإرشاد، 1390هـ/1971م)، ص247.
- ^{xxxvii} ابن قدامة، روضة الناظر، ج2، ص541-542.
- ^{xxxviii} ينظر: خليل بن إسحاق، التوضيح في شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب (ط1)، عناية أحمد بن عبد الكريم نجيب، القاهرة: دار نجيبويه، 1429هـ/2008م)، ج7، ص218.
- ^{xxxix} ينظر: الزرقاني عبد الباقي بن يوسف، شرح مختصر خليل (بيروت: دار الفكر)، ج7، ص30-31.
- ^{xl} هو شمس الدين أبو الحسن علي بن إسماعيل بن علي الأبياري، فقيه أصولي مالكي، له شرح على «البرهان» للجويني، توفي سنة 616هـ. يُنظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ص306.
- ^{xli} يُنظر: حلولو، التوضيح شرح التنقيح، ج3، ص950.
- ^{xlii} القراني، نفائس الأصول، ج9، ص4092.
- ^{xliii} الطوفي سليمان بن عبد القوي، شرح مختصر الروضة (ط1)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي،

- بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408هـ / 1988م)، ج3، ص211.
- ^{xliii} هو أبو عبد الله محمد بن الحسن البناني، فقيه مالكي، له حاشية على «شرح الزرقاني لمختصر خليل»، توفي سنة 1194هـ. يُنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص357.
- ^{xliv} هو أبو عبد الله محمد بن محمد الحطاب المكي، فقيه محقق مالكي، له شرح على «مختصر خليل» سماه «مواهب الجليل»، توفي سنة 954هـ. يُنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص270.
- ^{xlv} هو أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي، فقيه مالكي، له شرح على «شواهد ابن هشام»، توفي سنة 1116هـ. يُنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص329.
- ^{xlvi} هو أبو العباس أحمد بن محمد التونسي، المشهور بالشماع، فقيه مالكي، توفي سنة 833هـ، وقيل: سنة 839هـ. يُنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص244.
- ^{xlvii} هو أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد الفاسي، فقيه مالكي، له أجوبة ورسائل مفيدة، توفي سنة 1133هـ. يُنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص332-333.
- ^{xlviii} يُنظر: محمد بن الحسن البناني، حاشيته على شرح الزرقاني لمختصر خليل (بيروت: دار الفكر)، ج7، ص30-31.
- ^{xlix} الشنقيطي، المصالح المرسله (ط1، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1424هـ / 2003م)، ص20-21. ويُنظر له نحوُه في: رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ص154-155.
- ¹ هو أبو محمد عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني، فقيه مالكي، له شرح على «مختصر خليل»، توفي سنة 1099هـ. يُنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص304-305.
- ^{li} الشنقيطي، المذكرة، ص163.
- ^{lii} الغزالي، شفاء الغليل، ص247.
- ^{liii} هو أبو الحسن علي بن محمد الربيعي القيرواني، المعروف باللخمي، فقيه مالكي، له تعليق على «المدونة» سماه «التبصرة»، توفي سنة 478هـ. يُنظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ص298.
- ^{liv} نَسَبَ إليه الانفراد بهذا الحكم: التلمساني محمد بن أحمد في «مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على

- الأصول» (مكتبة الرشاد)، ص132؛ وخليل بن إسحاق في «التوضيح»، ج7، ص212.
- ^{lv} هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، فقيه مالكي، اشتهر بكتابه «الحدود الفقهية»، توفي سنة 803هـ. يُنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص227.
- ^{lvi} محمد بن الحسن البناني، حاشيته على شرح الزرقاني لمختصر خليل، ج7، ص31.
- ^{lvii} الغزالي، شفاء الغليل، ص247-248.
- ^{lviii} الغزالي، المستصفي من علم الأصول (تحقيق حمزة بن زهير حافظ، المدينة المنورة: 1413هـ)، ج2، ص494.
- ^{lix} يُنظر: الغزالي، المستصفي، ج2، ص505-506.
- ^{lx} ابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن قاسم وابنه محمد، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد، 1425هـ/ 2004م)، ج17، ص362-363.

المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي

"معالم خنقة سيدي ناجي نموذجاً"

أ/ كريم الطيب / قسم التاريخ والآثار / جامعة الحاج لخضر / باتنة 1

krimtayeb@gmail.com

abstract

The study of Islamic architecture in our time was associated with the Islamic archeology, which was created by orientalists and Western archeologists. Hence, this science was influenced by their methods and their way of thinking. This was reflected in the way of dealing with the remaining Islamic buildings. The study aims at studying some of the Islamic monuments in the eastern Zab, a historical archaeological study. Models in this study focused on the Sidi Al-Mubarak Mosque and the house of the Bin Hussein family, known as Saraya in the Municipality of Khanaqah Sidi Naji. The sites dedicated to the above study are of archaeological significance , As it is really valuable archaeological evidence, because of resistance to the harsh natural conditions prevailing in the region, which is characterized by its desert climate, as well as the historical situation and political changes experienced by the region over the historical periods. It has also contributed to the region in

terms of scientific, cultural, religious, and even social and has gone beyond to the areas adjacent to the homeland, and the nature of the architectural and decorative of these sites, still maintain its form despite the long time of establishment

ملخص البحث:

ارتبطت دراسة العمارة الإسلامية في عصرنا بعلم الآثار الإسلامية، الذي نشأ على يد المستشرقين وهواة الآثار الغربيين ومن ثم تأثر هذا العلم بمناهجهم وأسلوبهم في التفكير وانعكس ذلك على طريقة تناول العمائر الإسلامية الباقية، بالوصف والتحليل. يهدف البحث إلى دراسة بعض المعالم الأثرية الإسلامية في الزاب الشرقي دراسة أثرية تاريخية. وكنماذج ركزنا في هذه الدراسة على مسجد سيدي المبارك ومنزل أسرة بن حسين، أو ما يعرف بالسرايا في بلدية خنقة سيدي ناجي. لا شك أن المواقع المخصصة للدراسة السالفة الذكر لها أهمية أثرية، إذ تعد بحق شواهد أثرية هامة، بسبب مقاومتها الظروف الطبيعية القاسية التي تسود المنطقة، والتي تتميز بمناخها الصحراوي، وكذا الظروف التاريخية والتحويلات السياسية التي شهدتها المنطقة على مر الفترات التاريخية. كما ساهمت في المنطقة من الناحية العلمية، الثقافية والدينية، وحتى الاجتماعية و قد تجاوز ذلك إلى المناطق المجاورة للوطن، كما أن الطابع العمراني و الزخرفي لهذه المواقع، مازال يحافظ على شكله رغم مرور زمن طويل على إنشائها

الموقع الجغرافي و إشكالية التسمية:

تقع بلدية خنقة سيدي ناجي في منطقة الزاب الشرقي أقصى شرق بسكرة، وهي تتوضع في أقدام سلسلة الاوراس بالضبط في أقدام جبال النمامشة، وتبعد عن مقر الولاية "بسكرة" بحوالي 100 كلم، وترتبط بها بواسطة الطريق الوطني رقم 83 و يعد

المحور الرئيسي في هيكله مجال البلدية وفي الحركة والاتصال، وبمسافة 25 كلم عن مقر الدائرة زربية الوادي شرقا.

● اسم الخنقة: جاء في القاموس المحيط¹ أن الخانق الشعب الضيق والزقاق المختنق: المضيق ومختنق الشعب مضيقه والخانق مضيق في الوادي والخانق شعب ضيق في الجبل، وأهل اليمن يسمون الزقاق خانقا². كما أن اسم الخوانق ارتبط بالزوايا في المشرق، حيث يذكر ابن بطوطة³ "وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق واحدها خانقه". وبما أن هذا المصطلح غير شائع في بلاد المغرب، رغم أن بلدة خنقه سيدي ناجي بدايتها الأولى كانت عبارة عن زاوية للتصوف والعبادة، إلا أننا نرجح أن تسمية الخنقة تسمية جغرافية تعني الفج والمضيق بين جبلين، و كثيرا ما يضاف إلي اسم آخر، فيقال خنقة كذا و كذا، ومن ثمة أضيفت الخنقة إلي الجد الأول للأسرة سيدي ناجي.

1 مسجد سيدي المبارك:

أ- ظرفية التأسيس: يعد " مسجد سيدي المبارك " المعروف كذلك، " بالجامع الكبير " و " جامع الجمعة " من أهم المراكز العلمية بالمنطقة، يعود تأسيسه - كما سلف الذكر- إلى سنة 1147هـ /1734م، ذلك ما تدل عليه كتابة موجودة على يسار المحراب تذكر بأن " محمد بن محمد الطيب " هو الذي بني المسجد في أواسط صفر من سنة 1147هـ. وهي كتابة تأسيسية تحلّد ذكرى بناء المسجد، نفذت بخط مغربي بأسلوب الحفر البارز، يتميز هذا الخط كغيره من كتابات هذا المسجد، بعدم الإتيان والجودة ورسم بعض الكلمات وفق الرسم القرآني، وهو ما نلمسه في كلمة الفقرا بدون همزة. فقد تضمنت الكتابة اسم باني هذا المسجد، وهو الشيخ محمد بن محمد بن الطيب بن احمد بن المبارك في التاريخ المذكور وهو سنة 1147 من الهجرة النبوية.

لا نعلم على وجه التحديد، فيما إذا كانت عملية البناء هذه مجرد عملية تجديد وتوسعة للمسجد الذي بناه جده، أم هي إعادة بنائه كلية من طرف هذا الحفيد الشيخ محمد بن محمد الطيب، إلا أننا نرجح أن هذا التاريخ يدل على إعادة بناء للمسجد وتوسعة الذي كان قائما، والذي كان في الأساس زاوية أسسها الشيخ سيدي المبارك لتعليم العلوم النقلية والعقلية، وتلقين الطريقة الناصرية الشاذلية، والتي أصبحت وجهة لطلاب العلم والتصوف من كل مكان ودفن بجوارها حيث ضريحه الآن في الركن الغربي الشمالي للمسجد الحالي سنة 1031 هـ / 1622م، وأصبحت شيئا فشيئا تحمل اسم مسجد سيدي المبارك.

ب الوصف العام للمسجد:

يأخذ جامع سيدي المبارك بن ناجي شكلا مستطيلا، 13×26 م يتكون من بيت الصلاة، والمدرسة الناصرية الملاصقة لبيت الصلاة من الناحية الشمالية، وكذا الميضأة (المطهرة)، ومن الناحية الغربية ضريح سيدي المبارك وتحديدًا الركن الشمالي الغربي منه، أما الركن الجنوبي الغربي، فيوجد ضريح الشيخ بن حسين محمد، إضافة لذلك صحن ملحق بالمسجد غير مغطى يستعمل للصلاة في فصل الصيف مبلط بالآجر الأحمر. تأخذ بيت الصلاة في جامع سيدي المبارك شكلا غير منتظم، طول ضلعها 17,50م، أما العرض فيبلغ 13,60م وبذلك يبلغ جوفه 210,80م، على غرار مسجد سيدي عقبة، ومسجد سوس بتونس والقرويين بفاس⁴ والمسجد البراني للقصبة بمدينة الجزائر⁵. تحتوي بيت الصلاة، على خمس أساكيب موازية لجدار القبلة وسبع بلاطات عمودية على جدار القبلة (المحراب)، ويبلغ عرض البلاطة الواحدة 2,30م، أي تقريبا المسافة الموجودة في بلاطات مسجد عقبة بن نافع، ولكنها تختلف من حيث الطول. فبلاطة المحراب والثلاثة التي على يمينها يعادل طولها

عمق بيت الصلاة، أما البلاطات الثلاث التي على يمين المحراب فطولها 11,20م. و يرجع هذا الاختلاف في المقاسات إلى وجود الضريح "أحمد بن ناصر" في الركن الشمالي الغربي لبيت الصلاة.

أما الأساكيب، فهي تختلف من حيث المقاسات، إذ يبلغ عرض أسكوبالمحراب 2,30م، أما طولها فيعادل طول ضلع بيت الصلاة. و الأسكوب الأخير عرضه 2,30م، أما طوله فيبلغ 15م. وتنحصر جميع الأساكيب بين خمس صفوف من الأعمدة يحمل كل صف منها بائكة من العقود، أما الجدران فيبلغ سمكها 60سم، وهي تقريبا سمك جدران مسجد سيدي عقبة. يحتوي مسجد سيدي المبارك على صحن يقع في الجهة الغربية من المسجد وهو أيضا غير منتظم الشكل طول ضلعه على يمين المحراب 7,15م أما على يساره فيبلغ طوله 9,70م أما طول ضلع الصحن على جدار القبلة "المحراب" فيبلغ 7,10م به رواق عرضه 1,20م محمول على دعائم (أعمدة) يبلغ عددها عشرة دعامة مصنوعة من الحجارة ومبلط بالآجر الأحمر جلب من تونس أيام أحمد باشا. يتميز مسجد سيدي المبارك بميزة منفردة عن بقية مساجد الجزائر، وهي تعدد الأضرحة فيه، والتي تعد كمزارات تضم شيوخ الزاوية الذين هم في نفس الوقت شيوخ الخنقة البارزين، والذين أرتقوا إلى مصاف الأولياء الصالحين. ونجد ما يشابه ذلك في العمارة السلجوقية أين يتم إلحاق المدرسة بالمدفن، وهي قاعدة العمارة السلجوقية (470هـ/708هـ) الموافق ل (1077م /1308م)⁶. ويورد صالح لمعي⁷، في هذا المجال وعلى سبيل المثال تربة درويش باشا والي دمشق (982هـ الموافق ل 1574م، وهي تقع ضمن مجموعة معمارية تتألف من جامع ومدفن ومكتبة (كتاب)، والقبة لها طنبور من طابقين.

الملاحظات التي يمكن أن نخرج بها من خلال دراستنا لمعالم الخنقة مايلي:

1. المنطقة لم تكن مهجورة من قبل، فبقايا القرية البربرية تدل على تواجد بشري سابق.

2. الواحة كانت ممر رئيسيا للقوافل المتنقلة من الصحراء نحو الشمال، أو من الجزائر وحتى المغرب الأقصى إلى الحجاز في مواسم الحج.

3. مساحة الواحة ضيقة، عكس مدينة بادس المجاورة التي لا تبعد عنها إلا بمسافة قليلة والتي توجد في منبسط، وهذا ما جعلها عامل طرد للسكان في العهد الروماني والبيزنطي. ضف إلى ذلك وجودها في منخفض، وهو عبارة عن طمي وأتربة ترسبت من وادي العرب، وبذلك لا تستوعب العدد الكبير من السكان.

4. الواحة كانت عرضة لفيضانات وادي العرب المجاور لها من حين إلى آخر، مما جعلها عامل طرد للسكان.

6. موقعها المحصن جعلها ملجأ للفارين والملاحقين سواء من الأفراد أو القبائل على مر الحقب التاريخية، خاصة وأن المنطقة شهدت صراعات كبيرة.

7. إشكالية النسب، وهي إشكالية كانت دائما مثار الاختلاف والتضارب، خاصة وان تأسيس الخنقة جاء في وقت انهيار آخر الإمارات الإسلامية في المغرب العربي. حيث أصبح النسب الشريفى مطلب الجميع. وهذا ما جعلنا نجد نسبين لأسرة سيدي المبارك: الأول ينتهي إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، والثاني إلى الادارسة ومنه إلى الرسول صلي الله عليه وسلم.

8. ارتباط تأسيس خنقة سيدي ناجي بالرؤية التي رآها في المنام مؤسس البلدة عن جده الأول "سيدي ناجي"، وهذه ميزة نجدها في تأسيس أغلب القرى والبلدات وهو قيام التأسيس على أساس الرؤية والأسطورة.
9. أن من رمم مسجد سيدي المبارك وهو عمر التونسي هو نفسه من رمم مسجد سيدي عقبة والدليل على ذلك هو وجود نفس اسم المرمم في المسجدين.
- 10) المسجد كان في بدايته عبارة عن زاوية ليتحول مع مرور الزمن إلي جامع ومدرسة
- 11) الملاحظ أيضا، هو توفر شروط العمارة الإسلامية في تأسيس الخنقة، من إحاطتها بصور بغرض الحماية، و تموضعها بين جبل ووادي، وهذا ما تكلم عنه ابن خلدون، وابن الأزرق، وابن الربيع.
- 12) دقة وتنظيم البلدة من حيث تقسيم سكانها قريبا على أحياء وحاترات وهو ما يشبه المدن الأولى التي أسسها المسلمون كالكوفة والبصرة والقيروان والفسطاط ولهذا عرفت البلدة ذات الخمس مساجد وخمس حارات وخمس سواقي وخمس أبواب.
- 13) ظاهرة تعدد الأضرحة بالمسجد وهي ظاهرة نادرة قاما نجدها في مساجد الجزائر.
- 14) الزخرفة التي تزين المسجد وهي زخرفة ذات نمط متطور عما وجدناه في مساجد الزاب الأخرى، زخارف نباتية، هندسية، فلكية غاية في الإتقان.
- 15) المقبرة الملحقة بالمسجد الخاصة بأسرة بن حسين والتي تضم شيوخ وأبناء الأسرة ملحقة بالمسجد منفصلة عن مقبرة العامة من سكان الخنقة.

16) طريقة بناء القبور والشواهد وهي دلالة عن التأثير العثماني في المنطقة كما تبين الحظوة والمكانة التي كانت لأسرة بن حسين.

17) المدرسة الناصرية والتي تعد نموذجا فريدا من نوعها في الزاب من حيث التصميم والبناء والوظيفة عكس مسجد سيدي عقبة.

18) الصحن الملحق بالمسجد والذي يتميز بالإتقان والزخرفة والانتساع.

19) استعمال الحجارة في صناعة الأعمدة (السواري) والتيجان بإتقان عال عكس مسجد سيدي عقبة الذي استعملت فيه أعمدة وتيجان جلبت من خرائب تهودة الرومانية وكذا استعمال جذوع النخيل.

20) الاستعانة باليد الفنية الخارجية والتي جلبت من تونس تحديدا، في أعمال الزخرفة والبناء.

21) التحكم في تقنيات الري حيث استغل شيوخها ما وجدوه من قنوات رومانية قديمة في المنطقة وأضافوا لها قنوات جديدة لاستصلاح أراضي الخنقة.

السرايا أو (منزل أسرة بن حسين): تعد السرايا معلما تاريخيا وأثريا بارزا في خنقة سيدي ناجي، لما تتميز به من مكانة وهندسة معمارية وزخرفة. إلا أن هذا المنزل زالت أغلب معالمه نتيجة عدم مقاومته للظروف الطبيعية، كالأمتار والفيضانات التي كانت تضرب المنطقة بين الفينة و الأخرى، ونتيجة لهجرة ساكنيه وعدم الاهتمام به إلا في السنوات الأخيرة أين أجريت عليه ترميمات وإصلاحات تمت دون دراسة

علمية مدروسة. كما انه لم يتم بنائه مرة واحدة، بل كان يخضع إلي إضافات بين الفينة والأخرى حسب حاجة العائلة وعدد الأفراد.

قام بتأسيس المنزل، محمد بن محمد الطيب في 1732م⁸، وأكمل بنائه أحمد بن ناصر أثناء عمليات الزيادة التي أضافها علي مسجد سيدي المبارك(المدرسة، والدمس، والقبة وكذا بناء القلعة) في سنة 1171هـ الموافق لـ 1758م. حيث أنفق من ماله الخاص حوالي ثمانية آلاف سلطاني ذهبي، هذه الإضافات والزيادات تدل على الرخاء المادي الذي كانت تعيشه بلدة الخنقة، ويعد هذا المسكن من المساكن المتعددة الوظائف، فبالإضافة إلي كونه مسكن العائلة فهو أيضا مقر للحكم وإدارة شؤون الخنقة، خاصة وأن البلدة كان لها الحظوة الكبيرة في العهد العثماني كما سبق ذكره في المدخل التاريخي، حيث كانت تسمى "دار إمارة الاوراس والزاب الشرقي" في جمع العشور والزكاة، ضف إلي ذلك أنها كانت مقصد لبعض البايات سواء من قسنطينة أو تونس كزائرين أو هارين للاحتماء وطلب الدعم. ولهذا كان التفكير في بناء مسكن يليق بأسرة بناصر.

الوصف العام للسرايا(المنزل):

تمتاز السرايا (أو منزل عائلة بن حسين) بطابع الترييع والتكعيب تقريبا مثل تصميمات قصور مدينة الجزائر، التي تعود للفترة العثمانية شأنها شأن التصميمات التي تمتاز بها العمارة الإسلامية المعروفة في العالم الإسلامي⁹، حيث يبلغ طول ضلعها 16م، أما العرض 12م. وبذلك لا تختلف عن نمط القصور العثمانية بمدينة الجزائر العاصمة، مثل قصر عزيزة (25م × 20م)، وقصر حسين باشا¹⁰.

لم يخرج منزل عائلة بن حسين عن هذا النمط المعماري، فهو يحتوي على طابق أرضي يشتمل على المرافق الصحية والمعيشية، وكذلك علي غرف خاصة للضيوف بينما الطابق العلوي يحتوي على غرف للنوم¹¹ ونجد شبيها في تخطيط القصور الأموية الأولى في بادية الشام وقد تم علي أساس الفناء المركزي المكشوف الذي تدور حوله وحدات المسكن الكبير¹² وما يسترعي الانتباه في السرايا أن واجهتها تقع في زقاق ضيق بعيد عن مواجهة الشوارع الكبرى والعامة المتميزة بكثرة الحركة النشطة كما أنها تقع في غير مواجهة مراكز الجذب العامة كالأسواق والمرافق العامة. يمكن تقسيم المنزل إلي عدة طوابق، والملاحظ أنه يمثل بحق ناطحة السحاب في منطقة صحراوية تتميز ببساطة مساكنها. نظرا لارتفاعه الملحوظ مقارنة بباقي منازل الخنقة خصوصا، والنمط العمراني المعروف في منطقة الزاب عموما، حيث يبلغ ارتفاعه ارتفاع مئذنة مسجد سيدي مبارك الملاصقة له.

من خلال دراستنا النظرية والوصفية، وكذا التحليلية لأهم المعالم الأثرية الإسلامية لخنقة سيدي ناجي، والمتمثلة في مسجد سيدي المبارك وكذا السرايا. يمكن الخروج بعدة ملاحظات واستنتاجات أبرزها:

(1). تأسيس خنقة سيدي ناجي جاء كحتمية دفاعية بدرجة أساسية بعد فرار سيدي المبارك من مطاردة الشايبة له في الصحراء.

(2). ارتباط تأسيسها بالرؤية التي رآها في المنام مؤسس البلدة عن جده الأول "سيدي ناجي"، وهذه ميزة نجدها في تأسيس أغلب القرى والبلدات وهو قيام التأسيس على أساس الرؤية والأسطورة.

3). إشكالية النسب، وهي إشكالية كانت دائما مثار الاختلاف والتضارب، خاصة وان تأسيس الخنقة جاء في وقت انهيار آخر الإمارات الإسلامية في المغرب العربي. حيث أصبح النسب الشريفى مطلب الجميع. وهذا ما جعلنا نجد نسبين لأسرة سيدي المبارك الأول ينتهي إلي عثمان بن عفان، والثاني إلي الادارسة ومنه إلي الرسول صلي الله عليه وسلم .

4). أن خنقة سيدي ناجي اكتسبت مكانة مرموقة علميا واقتصاديا في مدة وجيزة في منطقة الزاب الشرقي، رغم وجود قرى لها أسبقية الظهور في المنطقة كسيدي عقبة، ليانة وبادس، التي كانت مركزا عمرانيا كبير منذ العهد الروماني، ورغم ذلك لم تحقق ما حققته خنقة سيدي ناجي. فهل هذا يعود فقط للمكانة العلمية التي كان يتمتع بها مؤسس الخنقة والزاوية وهو سيدي المبارك؟

5. أم أن هذه الأسرة جلبت معها موارد مالية كبيرة أثناء تنقلها من تونس، وهذا ما جعلها تصبح مركز استقطاب للاستقرار السكاني والازدهار الاقتصادي (للحرفيين والتجار).

6). المنطقة ورغم بعدها عن مقر الحكم العثماني إلا أنها لم تكن بعيدة عن مجريات الأحداث السياسية والثقافية، بسبب المكانة التي حظيت بها في العهد العثماني من لدن الحكام العثمانيين دون المناطق الأخرى، والذي تجلي في حصول شيوخها على حق جباية الزكاة والعشر في الزاب الشرقي وجبل ششار، وهي حظوة لا يمكن الحصول عليها مجانا خاصة وان العثمانيين كانوا لا يعطونها لأي كان.

7). موقع خنقة سيدي ناجي، وهو طريق القوافل بين الصحراء والتل بالنسبة للقبائل الرحل في رحلة المصيف، وكذا طريق الحج الذي كان يمر بها، والذي ينطلق من المغرب الأقصى وموريتانيا، وهذا ما شجع حركة التجارة والتبادل التجاري في المنطقة

8). العلاقات الطيبة مع دايات تونس حيث كانت ملاذا للبعض منهم أثناء صراعهم على السلطة واستضافتهم، وهذا ما يسمي في لغة اليوم الدبلوماسية "باللجوء السياسي"، هذه المكانة جعلتهم حلقة وصل بين الايالتين التونسية والجزائرية عند حدوث الأزمات.

9) إلا انه من جهة أخرى، كانت هذه المكانة مثار شكوك بايات قسنطينة وعدم الثقة في شيوخ الخنقة، وبذلك كانت خنقة سيدي ناجي منطقة تجاذب بين الايالتين.

10). الروابط الثقافية وحتى الأسرية بين أسرة سيدي ناجي و الأيالة التونسية، جعلت المنطقة تتأثر بالنمط العمراني والثقافي التونسي، فقد استفادت الخنقة من دون شك ببعض المظاهر الثقافية والفنية من تونس نظرا للتقارب الكبير الذي كان بينهما. فقد استعان شيوخها في تزيين مسجد سيدي المبارك بصناع تونسيين ماهرين أمثال: أحمد بن عمر التونسي الذي نقش المحراب و الاصطاحسين الذي نقش القبة وعلي بن محمد التونسي وعمر الصفا قسي... إلخ، وقد وجدت خطوطهم على مسجد ومدرسة الخنقة، فنقش مثلا على الباب الغربي للمسجد ما يلي: "ركب هذا الباب يوم الأحد الثامن من شهر الله المعظم شوال سنة 46 ومائة وألف علي يد صانعه أصطاحسين أحمد بن عمر الشريف الجبالي النقاش وباني هذا المسجد الحاج محمد السعد بن عمر الصفا قسي رحمه الله".

11). الزخرفة العثمانية البارزة في معالم الخنقة في المسجد والسرايا، والتي تدل بشكل لا يدعوا للشك أن المنطقة كانت تعيش في رخاء اقتصادي ومالي كبيرين.

12). ظاهرة استعمال العقود النصف دائرية، والتي نجدها في اغلب المنازل في خنقة سيدي ناجي إلي يومنا هذا، وهذا يدل أن المعماري في المنطقة أصبح يتحكم في تقنيات البناء بدرجة كبيرة. حيث أصبح كيف عمران البلدة حسب متطلبات البناء والظروف الزمنية التي تعيشها.

13). ظاهرة استعمال العقود البرميلية على شكل العقود الرومانية والتي استعملت في المدرسة الناصرية والسرايا.

14). عمليات الترميم العشوائية التي تمت عليها دون دراسة علمية، شوهت هذا المعلم التراثي وأفقدته زخرفته وهندسته التي تعود إلى حوالي أربعة قرون خلت.

15). يمكن القول في الأخير، أن مكانة شيوخ خنقة سيدي ناجي الدينية والعلمية جعلت تأثيرهم ينتشر بسرعة في ناحية الزاب الشرقي، وكذا حنكتهم السياسية منذ تولي أحمد بن ناصر المشيخة في البلدة جعلتهم يحتلون هذه المكانة مع مرور الزمن. إلا أن البلدة فقدت هذه المكانة في الوقت الراهن، بعدما أهملت وتعرضت للموت البطيئي بعد هجرة سكانها، وبذلك تعرضت السرايا للسقوط.

الخاتمة

لقد تبين لنا من الدراسة الميدانية المتعلقة بالمعالم الأثرية الموجودة في منطقة الزاب الشرقي، استخلاص بعض خصوصيات العمارة الإسلامية المحلية بالمغرب الأوسط في القرون الأولى للفتح الإسلامي والعهد العثماني:

1. أنها عمارة محلية في طابعها ونسقتها العمراني في بدايتها الأولى، إلا أنها تأثرت فيما بعد بالمؤثرات الخارجية الآتية من منطقة الأناضول وبالتحديد تركيا بسبب الوجود العثماني بالجزائر، وهذا ما نلاحظه في عمارة خنقة سيدي ناجي وبالتحديد في السرايا.

2. عمارة الزاب الشرقي، اعتمدت في بدايتها على المواد المحلية الصنع في عملية البناء والزخرفة، مثل جذوع النخيل واللبن و الجص، ومع مرور الزمن تطورت أساليب البناء وتقنياته، حيث استعمل البناء تقنيات مختلفة عن التقنيات المستعملة محليا ومزجها بتقنيات خارجية، مستعينا بخبرات خارجية من المناطق المجاورة للجزائر، كتونس مستغلا الروابط التاريخية بين هذه الأخيرة وتونس، كذلك استعان بالمواد التي كانت تجلب للجزائر في العهد العثماني من دول أخرى.

3. أن المعماري لم يهتم بالجانب الجمالي بشكل كبير، بقدر اهتمامه واحترامه لأسس البناء وقواعده، وهذا ما وجد في مسجد سيدي عقبة. أما في معالم خنقة سيدي ناجي فنجده قد بدا يطور مهاراته وتقنياته، وبدأ يعطي الناحية الجمالية حقها من حيث استعمال الآجر والمزج بين عدة مواد وتقنيات في المبني الواحد، دون الإخلال بالنسق العام للمبني، ضف إلى ذلك اهتمامه بالعنصر الزخرفي في المبني لإضفاء الناحية الجمالية عليه، حيث لم يكتفي بالزخرفة البسيطة على الجص بل تعداه إلى

الزخرفة على الحجر ومواد أخرى، كذا تنوع مواضيع الزخرفة، سواء النباتية أو الهندسية وحتى الرموز الفلكية، كالنجوم والأهلة تحت تأثير العمارة العثمانية.

4. فيما يتعلق بعمر البناء وسلامته، فقد لجأ معماريو المنطقة إلى استعمال الأسس التي كان يعطيها البناء الأهمية البالغة، بحيث راعي تضاريس المنطقة وطبق النوع اللائق بها.

5. والخلاصة التي يمكن الخروج بها من هذه الدراسة أن عمارة الزاب عموماً والزاب الشرقي خصوصاً حملت الصفات العامة للعمارة الإسلامية يمكن حصرها كالتالي:

أ- من حيث الهندسة والتخطيط:

- استخدام الصحن أو الفناء المحاط بالأواوين أو الأروقة كعنصر أساسي في تخطيط العمائر بكل أنواعها تقريباً.
- الاعتماد على العقود ذات الأقواس المختلفة والعمد أو العضائد كعناصر أساسية لحمل السقوف
- العناية بالواجهات وأسوار المباني والاهتمام بالبوابات بشكل خاص.
- مراعاة التقاليد الاجتماعية والدينية في الهندسة والتخطيط، وإيجاد الحلول للتكيف مع البيئة الطبيعية وأحوال الجو.
- الاعتماد في التسقيف على القباب والسقوف المعقودة وتكاد تكون القبة العنصر الشائع الذي لا يستغني عنه في العمائر الدينية، والمدنية أحياناً.

ب من حيث المظهر العام:

- الإكثار من الزخرفة والعناية بالتجميل و الميل إلى التنوع في استعمال العناصر، والاعتماد على التكرار في بعضها الآخر.
- توخي التناظر في توزيع العناصر، والاعتماد على التكرار في بعضها الآخر.
- تجنب تمثيل الكائنات الحية، والتركيز على استعمال المواضيع الهندسية والنباتية، والعمل على إغناء هذه المواضيع وتطويرها.
- تسخير الخط العربي، بعد تطويره وتجميله، في أغراض فنية و زخرفية متعددة

الهوامش:

¹ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص 1138.

² لسان العرب: باب الخاء، المجلد الثاني، ص 325.

انظر أيضا: المصدر نفسه، المجلد 3، ص 190، مصطلح "الزقاق"، والتي تعني السكة يذكر ويؤنث، والزقاق الطريق الضيق دون السكة، وأيضا طريق نافذ وغير نافذ.

³ ابن بطوطة: الرحلة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1980، ص 37.

⁴ شافعي فريد: شافعي فريد: العمارة العربية في مصر الإسلامية، مجلد 1، (عصر الولاية)، الهيئة المصرية للتأليف و النشر، مصر، 1970، ص 65.

⁵ Bouruiba(r) : apport de l'Algérie a l'architecture religieuse arabo- islamique, O.P.U, Alger, 1986 pp64-65

⁶ صالح لمعي: القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ص31.

⁷ المرجع نفسه: ص29.

⁸ G .Mercier:**mélange d'histoire et d'archéologie**, p157.

⁹ محمد الطيب عقاب: قصور مدينة الجزائر " أواخر العهد العثماني " دار الحكمة، الجزائر 1999، ص51.

¹⁰ محمد الطيب عقاب: المرجع السابق، ص51.

¹¹ صالح لمعي: عمارات الحضارات القديمة، ص53.

¹² وجدان علي بن نايف: سلسلة التعريف بالفن الإسلامي " الأمويين، العباسيين، الأندلسيين " دار البشير للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ص456.

العلاقات الخانية _ السلجوقية من معركة زرفشان إلى معركة قطوان:(395 هـ / 1004 م _ 536 هـ / 1141 م):

أ/ شارف خالد / جامعة الاغواط

Summary:

The state is Qarakhanid first Muslim Turkish state appeared in history, the mid-tenth century AD, was extracted Transoxiana of Samanids, and ruled until the beginning of the third century AD, and is characterized by information about these state scarce and disperse, it is rare that the two opinions agree in the case of issues related to Qarakhanid state, and the most important issues relating to this state is the relationship with the Seljuk, the address on the political relations between the Islamic forces in Central Asia at the time where there was volatility between loyalty and enmity and alliance and conflict, coup and the political roles of subordination to the anti-dependency.

There are a lot of aspects of the great similarities that combine the two, such as synchronized they had converted to Islam and the similarity of circumstances and causes, as well as the complexity of the political and military ties and even family between them, to stop the search when common the fact that the Seljuk opinion seized the Transoxiana as a complete and

comprehensive, and is thereby detracting from Qarakhanid historical role of the state and falls under thick curtain of mystery, because of the famous Seljuk rulers and the absence of state governors Qarakhanid by ancient sources and even recent studies, have tried to search correct this opinion based on available sources and references.

He also highlighted the research of political and military relations and cases of political affinity between the two parties, and follow the phases of the relationship between them and changes them.

تعتبر الدولة الخانية (القراخانية) أول دولة تركية إسلامية ظهرت في التاريخ أواسط القرن العاشر الميلادي، وقد انتزعت بلاد ما وراء النهر من السامانيين، وحكمت حتى بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وتتميز المعلومات الخاصة بهذه الدولة بالشح والاجتراء والتفرق، ومن النادر أن يتفق رأيان في قضية من القضايا المتعلقة بالدولة القراخانية، ومن أهم القضايا المتعلقة بهذه الدولة هو علاقتها بالسلاجقة، وهي عنوان على العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية في آسيا الوسطى آنذاك حيث ساد التقلب بين الولاء والعداء والتحالف والتنازع، وانقلاب الأدوار السياسية من التبعية إلى التبعية المضادة.

ويعود سبب اختياري لهاتين الدولتين إلى أوجه التشابه الكبيرة التي تجمعهما مثل تزامن اعتناقهما للإسلام وتشابه ظروفه وأسبابه، إضافة تشابك العلاقات السياسية والعسكرية وحتى العائلية بينهما، دون أن ننسى هنا التحدي العلمي الذي يطرحه الرأي الشائع

بكون السلاجقة قد استولوا على بلاد ما وراء النهر بصفة كاملة وشاملة، مما يغمط في دور القراخانيين التاريخي ويسدل عليهم ستارا كثيفا من الغموض، بسبب شهرة السلاجقة وحكامهم وتغيب القراخانيين وحكامهم من قبل المصادر القديمة وحتى الدراسات الحديثة.

ومن هنا فقد فضلت في ثنايا هذا المقال التوقف بنوع من التطويل عند أصول الدولة الخانية ونشأتها، وذلك لتعريف الباحثين بهذه الدولة، في حين تعد الدولة السلجوقية وما يتعلق بأصولها ونشأتها من الأمور المشهورة والمعلومة بالنسبة للباحثين في التاريخ الإسلامي الوسيط.

وقد اخترت سنة **395 هـ / 1004 م** كمعلم زمني لبداية هذه الدراسة وهي تمثل أول احتكاك عسكري مباشر بين الخانيين والسلاجقة في معركة زرفشان قرب سمرقند والتي انتصر فيها السلاجقة بقيادة سلجوق بن دقاق وحليفه المنتصر الساماني على الجيوش القراخانية المستولية على بلاد ما وراء النهر، بينما وضعت سنة **536 هـ / 1141 م** كمعلم لنهاية الدراسة، وهي السنة التي وقعت فيها معركة قطوان، وقد شهدت هزيمة التحالف السلجوقي _ القراخاني أما الجيوش القراخائية وبذلك انتهت السيطرة السلجوقية على بلاد ما وراء النهر وانتقلت إلى الخطأ.

أولا: الدولة السلجوقية أصولها ونشأتها:

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق التركمانية التي تعتبر واحدة من القبائل الأربع والعشرين التي تمثل المجموعة الغزية،¹ وقد كانوا يسكنون السهوب الواقعة شمالي بحر قزوين وآرال وقد

اتجهوا إلى الأراضي الإسلامية في الغرب حيث سيطروا على الوادي الأدنى لنهر سيحون إلى أن تمكن أحد زعمائهم واسمه سلجوق بن دقاق وهو ينتمي أصلاً إلى أسرة من أسر الأمراء من توحيد تلك القبائل واتخاذ مدينة جند في بلاد ما وراء النهر منطلقاً لتحركاتهم التي ستشهدها المنطقة، ولا بد من الإشارة إلى أن الرجل كانت تربطه بالمسلمين علاقات جيدة أدت إلى اعتناقه الإسلام فيما بعد.²

بعد اعتناق السلاجقة الدين الإسلامي على المذهب السني ، نهاية القرن العاشر الميلادي ، دخلوا بلدان العالم الإسلامي في خوارزم وما وراء النهر بالطريقة نفسها التي دخل فيها العديد من الأقوام التركية الوافدة أي في صورة قوات عسكرية مساندة تعمل في خدمة القوى المتنازعة في تلك البلدان.

لم يكن السلاجقة كغيرهم من قبائل الغز التي كانت تعتمد الغارات على الدولة البيزنطية والأراضي الإسلامية بغرض السلب والنهب بل كانوا على غاية من التنظيم والتخطيط، على عكس غيرهم من القبائل التركية، ورغم غلبة النزعة القبلية عليهم في بداية المطاف ولكنهم تمكنوا في فترة وجيزة من التموقع وأخذ مكانهم اللازم في خريطة القوى الإسلامية التي كان لها تأثير كبير في رسم ملامح مستقبل القوة الإسلامية في العصر الوسيط، فبعد أن عبروا خراسان توسعوا بالمنطقة مستغلين الصراع القائم بين القوات السامانية والغزنوية والقراخانية ، ليتمكنوا وبعد انضمامهم للسامانيين، الذين انهاروا أواخر القرن الرابع

المجري أمام الغزنويين والقراخانيين من الاستيلاء على أجزاء من بلاد ما وراء النهر كانت بمثابة منطلق لهم نحو إنشاء كيان سياسي مستقل.³

استطاعت القوة السلجوقية الناشئة استعادة الوحدة السياسية لأغلب العالم الإسلامي، بعدما كان يعاني من مشاكل داخلية كثيرة وأخطار خارجية متعددة خلال القرن الخامس الهجري تمثلت في تسلط البويهيين وضعف العباسيين والتهديد الكبير الذي كانت تمثله الخلافة الفاطمية إلى جانب التوسع البيزنطي على حساب الدولة الإسلامية حيث تمكنوا من إحداث التوازن ومنح العالم الإسلامي دماء جديدة ستساهم في رقد القوة الإسلامية.⁴

ثانياً: الدولة القراخانية أصولها ونشأتها:

أطلقت لفظة "القراخانية" في الشرق وفي أوروبا منذ عام 1874 على حكم هذه الدولة الإسلامية التركية حين نشر المؤرخ المستشرق - ف. ف. غريغوريف V.V Grigrer مقالته حول القراخانية فيما وراء النهر،⁵ فشاع بعد ذلك هذا الاسم (Karachanidem) في أوساط الباحثين كما عرفت هذه الدولة كذلك باسم ودولة

"خانات تركستان" أو "خاقانات تركستان" وذلك لوجود لقب "خاقان" ضمن ألقاب الأسرة، وسماها الأوربيون كذلك "الإيلكخانية".⁶

أما المصادر العربية الإسلامية المعاصرة لهذه الدولة فتسمي هذه السلالة بـ: "الخاقانية" أو "الخانية"، كما يرد لدى هذه المصادر تعبير: "آل أفراسياب".⁷

يتعذر تحديد الأصول الدقيقة للقراخانيين، وقد كانت هذه الأصول محط شك وتساؤل دائم، واختلفت الآراء وتضاربت حول الأصول الحقيقية للقراخانيين، وتعددت الآراء بين الأصل الإويغوري⁸، أو الأصل القارلوقي، أو غيرهما، وبما أنني أرجح الأصل القارلوقي للقراخانيين فإنني سأكتفي بذكر أهم الدلائل عليه مع ترك النقاش في هذه القضية لمقالات أخرى.

فقد كانت قبائل القارلوق تعيش على حدود البلاد الإسلامية إلى الشرق من مدينة طراز، وهم من الأتراك الشرقيين على ما ذكره الجغرافيون العرب في القرن الخامس الهجري/ العاشر الميلادي، وهم يشغلون المنطقة بين الغز والتغزغز، وحكموا منطقة سيميريتشي (بني صو) أو: بلاد الأنهار السبعة ابتداء من عام (143هـ/760م)،⁹ وقد وصفهم الكاشغري بأنهم أهل وبر ويعني أنهم قبائل بدوية¹⁰.

ويذكر بارتولد أن الدليل الأقرب إلى حقيقة الأصل القارلوقي للقراخانيين هي أن الحاكم القراخاني لمدينة "بلاساغون" كان يسمى "توركمان" وذلك في القرن 7 هـ / 12 م، ذلك أن الكاشغري كان يصرح بانتماء القارلوق إلى التركمان بقوله: "... قرلق وهم جيل من التركمان.."¹¹، كما يشير بارتولد إلى الوضع الخاص الذي تمتع به القارلوق في ظل الدولة القراخانية وهو يشابه إلى حد كبير وضع الغز في الدولة السلجوقية.¹²

ويضيف الأستاذ الصفصافي القطوري بأن القارلوق هم من واجه حركة الفتح الإسلامي في بداياته وظهرت بصمتهم الحربية في معارك كثيرة مثل معركة طراز، ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب إلى طاريم وصارت بلاساغون عاصمة لهم، كما تسموا باسم سياسي هو "التركمان"، ولكنهم مع انتشار الإسلام سارعوا بالدخول فيه.¹³

يكتنف الغموض البدايات الأولى لنشأة الدولة القراخانية، ولكن أول ذكر لحاكم قراخاني هو "بيلكه كول قدرخان"¹⁴ وقد حكم منذ 819 م، وحارب السامانيين وحاول توسيع رقعة بلاده على حسابهم،¹⁵ بينما يعطينا أوقطاي أصلان اسما آخر لأول ملك قراخاني وهو "يابغو" الذي كان زعيما للقارلوق واستغل سقوط المملكة الإيغورية في منغوليا ليعلن نفسه أميرا على القبائل التركية متخذا لنفسه لقب "قره خان".¹⁶

بدأ احتكاك الأتراك بالدين الإسلامي منذ أواخر القرن السابع الميلادي، وطوال القرنين اللاحقين تتابع اعتناق الأتراك له بأعداد كبيرة وبصفة جماعية، فقد ورد في عدد من المصادر التاريخية أنه في سنة 349 هـ / 960 م أعلن نحو 200 ألف خركاه (أي أسرة أو خيمة) من القراخانيين اعتناقهم للإسلام واتبعوا المذهب الحنفي¹⁷.

إن تعدد صور الاحتكاك بين القراخانيين والسامانيين العسكرية والسلمية قد نتج عنها حالات الاسلام الجماعية، فقد قام "إسماعيل بن ي . . . عاصمة الدولة القراخانية و قام ببناء مسجد قرأت فيه الخطبة باسم أمير المؤمنين "المعتضد بالله" على منبره، ويشير الطبري إلى ان هذا الأمير أسر أفرادا من الأسرة الحاكمة ونحوها من عشرة آلاف جندي قراخاني،¹⁸ كما أن إيواء القراخانيين لأمر ساماني بين ظهرانهم وفي وسط أفراد الأسرة القراخانية الحاكمة، وما تبع ذلك من وصول الدعاة المسلمين إلى هذه المنطقة قد ساهم كثيرا في اعتناق المزيد من القراخانيين للإسلام¹⁹.

وكان للتجارة بين المسلمين والأتراك _والتي ساعدت الدولة السامانية على ازدهارها_ دور كبير في نشر الإسلام بين القراخانيين من خلال تعاملاتهم مع الشعوب البدوية التي أعجبت بالتعاليم البسيطة الواضحة للدين الإسلامي خصوصا وأن التفوق الحضاري كان للدين الإسلامي على المسيحية والبوذية وغيرهما من الديانات.²⁰

ولكن الحادث الجلل الذي طرأ على علاقة القراخانيين بالإسلام هو اعتناق أول ملك من ملوك هذه الدولة للإسلام، ألا وهو ساتوق بغراخان الذي تلقب بـ "عبدالكريم" وقد أشار ابن الأثير إلى أن سبب إسلام ساتوق هو أنه رأى في منامه كأن رجلاً نزل من السماء فقال له بالتركية ما معناه: أسلم تسلم في الدنيا والآخرة، فأسلم في منامه فلما أصبح أظهر الإسلام، وقد توفي هذا الأمير سنة 344هـ/955م، بينما كان إسلامه سابقاً لوفاته بسنة، وكانت عاصمته غداة وفاته هي كاشغر وأصبحت تحت حكمه مدينة إسلامية.²¹

وقد خلفه ابنه موسى (ويحمل اسماً تركياً هو: بايتاش) الذي يشار إليه على أنه قضى على الفرع الشرقي للأسرة القراخانية بعد هزيمته للملك أرسلان خان، وأعلن سنة 349هـ الإسلام ديناً رسمياً لدولته.²²

توفي موسى بن ساتوق سنة 382هـ / 992م وخلفه ابنه الحسن. على ذلك، كان له دور كبير في تنشيط حركة الجهاد ضد القبائل التركية الوثنية المجاورة للدولة القراخانية من الناحيتين الشرقية والجنوبية،²³ وقد أشرك معه في الحكم ابن أخيه بغراخان الحسن بن سليمان الذي عرف كملك عادل مكرم للفقهاء والعلماء وقد ساهم في نشر الإسلام بين البوذيين والنصارى ولما توفي أبو الحسن علي سنة 388هـ / 998م في إحدى حروبه مع الترك الوثنيين، حيث أطلق عليه لقب "الحريق الشهيد" تولى الحكم أكبر أبنائه أبو نصر أحمد طغان خان، بينما تمكن أخوه و شريكه في الحكم: نصر إيلك خان من

الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر سنة 389 هـ / 999 م منها بذلك حكم الأسرة السامانية.²⁴

باستيلاء القراخانيين على بلاد ما وراء النهر سيبدأ فصل جديد في تاريخ آسيا الوسطى الإسلامي، حيث ستلعب هذه الدولة دورا كبيرا في العلاقات الدولية في وسط آسيا، خصوصا مع القوى الإسلامية المعاصرة مثل الغزنويين والعباسيين والسلاجقة، ولكنني سأقتصر على العلاقات القراخانية السلجوقية التزاما بموضوع المقال، كما أنني سأضرب صفحا عن التطورات السياسية في الدولتين إلا بما يخدم فكرة البحث.

ثالثا: مراحل تطور العلاقات بين القراخانيين والسلاجقة:

المرحلة الأولى (395 هـ / 1004 م _ 429 هـ / 1037 م) : الصلات الأولى بين القراخانيين والسلاجقة قبل تأسيس السلاجقة لدولتهم أو مرحلة العلاقات المتذبذبة بين تبعية السلاجقة للقراخانيين والعداء بينهما:

تمثل هذه المرحلة فترة القوة بالنسبة للقراخانيين وفترة الصعود بالنسبة للسلاجقة، حيث سنجد أن الخانيين سيستعملون السلاجقة في حروبهم مع الغزنويين أو في حروبهم مع بعضهم البعض.

ولكن العلاقات القراخانية- السلجوقية تعود إلى فترة متقدمة لم يكن فيها السلاجقة قد أسسوا دولة قائمة بذاتها وقد تمايزت هذه العلاقات بين السلم والحرب والتحالف، وكان يحكمها في الغالب تبادل المصالح السياسية حيث قدم السلاجقة المساعدة للأمير

الساماني المنتصر أبو إبراهيم بن نوح الذي كان بصدد مجموعة من المحاولات الأخيرة لاستعادة ملك آباءه حيث هرب إلى السلاجقة وطلب المساعدة سلجوق بن دقاق، حيث هزموا القراخانيين في معركة قرب زرفشانوفي معركة أخرى قرب سمرقند سنة 394 هـ/ 1003 ولكنهم سرعان ما تخلوا عن الأمير الساماني مدركين نهايته الوشيكة، ويعتبر هذا الاحتكاك العسكري أول لقاء مسلح بين الطرفين بعد دخولهم للإسلام، وظهور القراخانيين كدولة واستيلائهم على بلاد ما وراء النهر.²⁵

قام السلاجقة باستغلال الخلافات الداخلية في الدولة القراخانية والاستفادة من ذلك التوسع على حسابهم، وأصبحت مخاوف القراخانيين من السلاجقة جدية بسبب اتجاه أنظارهم إلى مناطق سيطرة القراخانيين في آسيا الوسطى.

فقد كان أمير بخارى المتمرد "علي تكين"²⁶ القراخاني مصاهرا لإسرائيل بن سلجوق ومحالفا له، وقد كان إسرائيل قائدا لقبائل السلاجقة فيما وراء النهر وقد واجها معا حملة الإيلىك خان نصر لتقويض هذا الاتفاق، ثم حملة السلطان محمود الغزنوي والتي نتج عنها سقوط إسرائيل بن سلجوق في الأسر وذلك سنة (416 هـ/ 1026 م).²⁷

وقد حاول الأمير القراخاني ناصر الحق شمس الدين إيلىك خان سنة 422 هـ/ 1030 م إيقاد الخلافات بين أفراد الأسرة السلجوقية، ثم قام بإرسال حملة عسكرية اشتبكت مع السلاجقة في معارك طاحنة نتج عنها هزيمة الحملة، بينما تحالف الأمير هارون شهاب

الدولة بغراخان مع السلطان السلجوقي طغرلبك وأخيه داوود مؤقتا، حيث ألقى الأمير هارون القبض علي طغرلبك وأخذه أسيرا، ما أثار غضب أخيه فجرد حمله سار علي رأسها وتمكن من هزيمة القراخانيين وإنقاذ أخيه من الأسر.

عمل علي تكين علي الاستفادة من السلاجقة في حروبه ضد جيرانه حيث قام بالاتصال مجددا بالسلاجقة بعدما أسر حليفه السابق (إسرائيل بن سلجوق)، حيث تحالف مع يوسف بن موسى بن سلجوق، وأولاه عطايا خاصا تمثل في تقديمه علي رجاله وتلقيه بالأمير (إينانغ بيغو) ومنحه إقطاعات كثيرة.²⁸

وقد هدف الأمير علي تكين من تقريب يوسف إلى تحصيل عدة مكاسب من بينها: ضمان قوة سلجوقية مهمة إلى جانبه في حروبه الطويلة مع الغزنويين وأبناء عمه القراخانيين، ومن جانب آخر هدف علي تكين إلى إبعاد الأمير يوسف عن أبناء عمه السلاجقة (طغرلبك وجغري بك) وبذلك ضمان تفريق كلمة البيت السلجوقي، ولكن الأمير يوسف فطن لمقاصد علي تكين ما جعله يتعد عنه، مما جلب عليه سخط علي تكين الذي قتله في النهاية سنة (421 هـ / 1030 م).²⁹

حاول السلاجقة الثأر لمصرع هذا الأمير وخاضوا حربا شرسة ضد الأمير علي تكين تداول فيها الطرفان الهزيمة والنصر، ولكن الخسائر الفادحة التي تكبدها السلاجقة جعلتهم يدركون خطورة بقائهم في بلاد ما وراء النهر، فقاموا بعبور نهر جيحون

والاستقرار في نواحي خراسان، حيث تمكن قائدهم طغرلبك من تأسيس دول للسلاجقة في خراسان وذلك سنة 429 هـ / 1037.³⁰

المرحلة الثانية (429 هـ / 1037 م _ 482 هـ / 1089 م) : العلاقات المتكافئة بين الدولتين القراخانية والسلجوقية:

وتمثل هذه المرحلة فترة الندية والعلاقات المباشرة بين الدولتين القراخانية والسلجوقية، خصوصا بين ضعف وانتهاء العامل الغزنوي وانحساره عن خراسان وما وراء النهر.

بعد انتقال السلاجقة إلى خراسان بدأت العلاقات بين الطرفين بالتحسن حيث عمل الأمير القراخاني محمود بغراخان الثالث على دعم السلاجقة مع تحريضهم ضد السلطان مسعود الغزنوي، لكن هذا الأخير عمل على عدم السماح بحصول هذا التحالف ومنع وصول إمدادات بغراخان إلى السلاجقة عبر اتفاق مع أخ الأمير بغراخان وهو الأمير شرف الدولة سليمان أبو شجاع أرسلان خان الثاني.³¹

حاول خان الدولة القراخانية الغربية إبراهيم طفغاج خان (المتوفى، 460 هـ / 1067 م) بسط سيطرته على قلعة ترمذ (وهي جزء من خراسان) وشن العديد من الهجمات على أرسلان ابن أخ طغرلبك تصدى له ومن ثم جنح الطرفان إلى الصلح، وتم التوقيع على وثيقة المصالحة سنة 441 هـ / 1049 م،³² بينما سعى طفغاج خان إبراهيم إلى تحسين

العلاقة بينه وبين السلاجقة عبر عقد مصاهرة بين الطرفين، حيث تزوج ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان من ابنة الأمير طفغاج إبراهيم خان.³³

وحتى عندما ساءت العلاقة بين طرفين مؤقتا بسبب هجوم ألب أرسلان على أراضي القراخانيين في سنة 458 هـ / 1061 م (سمرقند وفرغانة) لم يتم طفغاج خان بحل المشكلة بالوسائل العسكرية، بل قام بإرسال رسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يطلب فيها من الخليفة التدخل لوقف اعتداءات السلطان ألب أرسلان على أملاكه، وقد بعث الخليفة للأمير الخلع ومنحه الألقاب الفخمة.³⁴

عند تولي شمس الملك الحكم عقب وفاة أبيه طفغاج خان سنة 460 هـ / 1067 م قام بعقد مجموعة من المصاهرات بين الأسرتين القراخانية والسلجوقية، حيث تزوج السلطان ألب أرسلان بابنة قدر خان أرملة السلطان مسعود الغزنوي، بينما تزوج السلطان شمس الملك خان بابنة السلطان ألب أرسلان دون أن ننسى المصاهرة التي سبقت حيث أن أخت شمس الملك (تركان خاتون ابنة إبراهيم طفغاج خان) تزوجت من ملكشاه بن ألب أرسلان وهي والدة السلطان محمود السلجوقي.³⁵

ساعدت المصاهرات التي عقدت بين الطرفين على استقرار العلاقات السياسية بين الدولتين حتى وقعت حادثة تسببت في تدهور العلاقات بينهما.

حيث نشب خلاف سنة 465 هـ / 1072 م بين الخان شمس الملك ووالي خوارزم إياز بن ألب أرسلان السلجوقي، ومن ثم اتهم شمس الملك زوجته أخت الأمير إياز بالتجسس عليه، وقام بضربها حتى الموت، وكرد فعل شن السلطان ألب أرسلان حملة عسكرية على بلاد ما وراء النهر ثأراً لابنته ودخل بخارى وتوقفت حملته بسبب وفاته جراء طعنة تلقاها من أحد أسراه.³⁶

أوصى ألب أرسلان بالسلطة لابنه ملكشاه ولكن عمه قاورد بن جفري تطلع إلى الاستيلاء على ولاية الري ما جعل ملكشاه يعود غرباً لمنعه من السيطرة عليها،³⁷ وقد أغرت هذه الأحداث الخان شمس الملك، بالتوسع على حساب السلاجقة، فحرك قواته نحو ترمذ وتمكن من الاستيلاء عليها في نفس السنة (465هـ/1072م) ثم استولى على بلخ، وبذلك امتدت الدولة القراخانية لأول مرة في تاريخها إلى مناطق خارج بلاد ما وراء النهر.³⁸

استعاد السلاجقة سيطرتهم على بلخ في نفس السنة ولكن استعادتهم لمدينة ترمذ تأخرت للسنة الموالية حيث خرج ملكشاه بجملة استهدفت مدينة ترمذ حيث استولى عليها وقبض على واليها وهو أخ شمس الملك فأكرمه ملكشاه وخلع عليه.³⁹

بعد استعادة ترمذ من طرف السلاجقة سيواصل ملكشاه زحفه الى سمرقند، والتي كادت تصلها الجيوش السلجوقية لولا تدخل الوزير نظام الملك الذي أقنع السلطان ملكشاه بسحب قواته، وذلك بناء على رجاء من الخان شمس الملك للوزير نظام الملك،⁴⁰ وسيسود السلام بين الطرفين لمدة خمس سنوات تبتقت من حكم الخان لشمس الملك الذي خلفه على عرش الدولة القراخانية الغربية أخوه خضر خان الذي توطدت علاقته بالسلاجقة واستمرت العهود والمواثيق بينهما مصنونة محفوظة وعند وفاته تولى مكانه ابنه أحمد خان (482-488 هـ / 1089-1095 م).⁴¹

المرحلة الثالثة (482 هـ / 1089 م _ 536 هـ / 1141 م) : وقوع القراخانيون تحت النفوذ السلجوقي:

وتمثل هذه الفترة عهد النفوذ السلجوقي على الحكام القراخانيين، وهو يمثل السيطرة غير المباشرة على بلاد ما وراء النهر.

فقد أساء أحمد خان السيرة في الرعية فكاتب أهل سمرقند وأعيانها السلطان ملكشاه لغزو بلاد ما وراء النهر، وبعد عدة مكاتبات ومراسلات استجاب ملكشاه لهم وتحرك بجيشه نحو بخارى حيث استولى عليها، ثم إلى سمرقند عاصمة ملك أحمد خان وتمكن من الاستيلاء عليها بعد محاصرتها، وهرب الخان مختفياً وتمكن أعوان السلطان من القبض

عليه ولكن السلطان ملكشاه أطلق سراحه وأرسله مكرماً إلى أصفهان بعد شفاة ترکان خاتون زوجة ملكشاه وعمة أحمد خان .⁴²

وبهذا سقطت الدولة القراخانية الغربية سنة (482 هـ / 1089 م) تحت نفوذ السلطان السلجوقي ملكشاه الذي لم يكتف بذلك بل امتدت سلطته إلى الدولة القراخانية الشرقية حيث فرض سلطته أولاً على مدينة أوزكند ثم مدينة كاشغر عاصمة القراخانيين الشرقيين سنة 482 هـ / 1089 م وكان على رأسها هارون بغراخان (467-496 هـ / 1075-1104).⁴³

وقد دخل ملكشاه كاشغر بدون قتال حيث فضل الخان الشرقي الرضوخ لطلب السلطان بإقامة الخطبة وضرب السكة باسمه، بل واقترح عقد مصاهرة بين الطرفين، وبذلك خضعت الدولة القراخانية الشرقية وعاصمتها كاشغر أسوة بنظيرتها الغربية، ولم يبق مستقلاً من إمارات القراخانيين سوى بلاساغون وفرغانة.⁴⁴

لم تستقر الأوضاع نهائياً لصالح السلاجقة إذا أعقبت هذه التغييرات اضطرابات شاركت فيها أطراف متعددة، فقد ثار أهالي سمرقند على واليهم السلجوقي وقاموا باستدعاء أحد الأمراء القراخانيين وهو يعقوب تكين أخ ملك كاشغر، ما اضطر ملكشاه إلى قيادة حملة أنهت التمرد في سمرقند ومضى في تعقب يعقوب تكين الذي احتفى بأخيه في أوزكند، الأمر الذي جعل ملكشاه يطلب من هارون بغراخان صاحب

أوزكند (بصفته أحد أتباعه) بتسليم يعقوب تكين، ولكن تمرد الأمير السلجوقي طغرل ينال صاحب قلعة كاسان واستيلاؤه على كاشغر، أخلط حسابات ملكشاه وأجبره على اتباع سياسة جديدة تمثلت كالآتي:

- عفى ملكشاه عن يعقوب تكين وقام بإعادته إلى طاعة السلطان ثم أذن له بالعودة إلى قلعته في بلاد ما وراء النهر.

- إعادة الملك القراخاني (الغربي) أحمد خان بن خضر خان إلى مقر ملكه في سمرقند في سنة 485هـ / 1092م.

ويعني انتهاج هذه السياسة هو محاولة ملكشاه إعادة تمكين للأسرة القراخانية بفرعيها الشرقي والغربي في تركستان وما وراء النهر لخدمة أهدافه وضرب خصومه من السلاجقة المتمردين.⁴⁵

لم يستمر حكم أحمد بن خضر خان طويلاً حيث اتهمه العلماء بالإلحاد وسوء السيرة وأفتى فقهاء وقضاة سمرقند بإعدامه بعد محاكمته، وتم بالفعل تنفيذ الحكم سنة (488/ 1095) وأجلسوا مكانه في حكم سمرقند مسعود قدر خان (جبريل بن عمر)⁴⁶، وقد حاول هذا الأمير استغلال الخلافات التي نشبت بين أبناء ملكشاه لاستعادة أمجاد الدولة القراخانية، حيث سار بجيوشه إلى ترمذ وقام بالاستيلاء عليها سنة 497 هـ / 1103 م، وقد سار إليه السلطان سنجر، وتمكن من القبض عليه قبل نشوب القتال، حيث استغل

خروجه للصيد، ثم قام بإعدامه⁴⁷، وأرسل إلى ابن أخته الأمير القراخاني محمد أرسلان خان الذي كان في مرو وولاه سمرقند (495 هـ - 524 / 1102-1130 م).⁴⁸

وقد عملت قرابته من السلطان سنجر على دعم مركزه في بلاد ما وراء النهر حيث استعان بقوة خاله على ضرب المتمردين على سلطته، بل وخالف وصايا خاله بالإحسان إلى الرعية، حيث تطاول عليهم وصادر أملاك بعضهم، ما جلب عليه غضب السلطان فعزم على تأديبه سنة 507 هـ / 1113 م، وقد غضب الخان على السلطان ما أسفرت عنه المصادر، طالب عفوه وبذلك انتهت الفتنة بينهما⁴⁹.

ولكن محمد أرسلان خان أصيب بمرض الفالج (524 هـ / 1130 م) وواجه تمردا أدى إلى اغتيال ابنه نصر خان مما أجبر السلطان سنجر على التدخل لقمع الثورة، ولكن الثائرين تفرقوا ومن ثم زعم سنجر بأن الخان قد حاول قتله عبر مجموعة من الخيالة، ولكن الخان خرج إليه محمولا بسبب كبر سنه ومرض الفالج، فعفى عنه السلطان ونقله إلى قصره في بلخ حيث أنهى ما تبقى له من أيام.⁵⁰

عهد السلطان سنجر بالحكم إلى الخان حسن تكين حيث حكم سنتين وتوفي سنة 526 هـ / 1132 م فولى مكانه محمود بن محمد أرسلان خان (526-536 هـ / 1132-1141 م) وقد حرص على إقامة علاقات جيدة مع السلطان وقد عملت

الزوجة القراخانية للسلطان سنجر ترکان خان على أن يحظى محمود على رعاية سنجر مستخدمة في ذلك نفوذها ومستغلة محبة السلطان سنجر لها.⁵¹

معركة قطوان ونهاية الهيمنة السلجوقية على القراخانيين في بلاد ما وراء النهر:

تتابعت هجمات الخطا الوثنيين (وهم من شمال الصين) على القراخانيين وازدادت في عهد محمود خان الذي استنجد بالسلطان سنجر فلبى الأخير دعوته، قصد سمرقند بجيوشه سنة 535 هـ / 1141 م وقد سار معه جيوش الكثير من الأمراء المسلمين مثل سجستان والغور وغزنة ومازندان إضافة إلى جيوش القراخانيين، وقد وصله كتاب من كورخان ملك الخطأ يطلب منه العفو عن الأتراك القارغلية (الكارلوق المحتمين بملك الخطا) ولكن السلطان سنجر لم يرض بذلك وأرسل كتابا إلى كورخان يدعوه إلى اعتناق الإسلام ويهدده إن لم يستجب، رفض كورخان تهديد السلطان سنجر والتقى الجمعان في سهل قطوان⁵² وكانت الهزيمة ساحقة على تحالف القوات الإسلامية حيث أيدت غالبية الجيش أو أسرت، وسقط في الأسر زوجة السلطان سنجر فكان خاتمة نهضة محمود خان وهي حفيدة سنجر، ومعهما آلاف من كبار السادة واجود وبدت أسهت السيطرة السلجوقية على بلاد ما وراء النهر، حيث رحل محمود خان إلى خراسان حيث ظل تابعا للسلطان سنجر حتى وفاته سنة 557 هـ / 1162 م.⁵³

وقد خلصت في ختام هذا البحث إلى مجموعة من النتائج:

— يعتبر القراخانيون والسلاجقة من أكبر القبائل التركية المجاورة للوجود الاسلامي في آسيا الوسطى، وقد واجها الزحف الاسلامي العسكري في البداية ثم ما لبثوا إلى الخضوع للمد الحضاري المتفوق للعالم الاسلامي

— يعتبر الإسلام الجماعي لكل من القراخانيين والسلاجقة حدثا كبيرا في التاريخ التركي من جهة وفي التاريخ الاسلامي من جهة أخرى، حيث نتج عنه دخول أقوام عديدة وقوية و متمرسه على القتال ويقودها رجال ذوو طموح سياسي إلى الساحة الاسلامية التي أنهكت من جراء الخلافات المذهبية والسياسية، وبذلك شكلوا سندا سياسيا وعسكريا للإسلام السني في المشرق عموما وللخلافة العباسية بالخصوص.

— كان السامانيون نقطة الالتقاء الاولى بين القراخانيين والسلاجقة بعد إسلامهم، حيث شكل السامانيون أحد العوامل بالغة الأهمية في إسلام القبيلتين ومحاولة الاستفادة من قدراتهما، ولكن زحف القراخانيين نحو بلاد ما وراء النهر حتم على السامانيين الاستعانة بالسلاجقة ضد القراخانيين، مما اعتبر أول صدام مسلح بين الطرفين.

— تمكنت الدولة القراخانية من وراثة السامانيين على حكم بلاد ما وراء النهر، وخاضت معارك عديدة مع الغزنويين لتثبيت هذه السيادة واستعانوا أحيانا بالسلاجقة، وقد استفاد السلاجقة من هذه الخلافات في توسيع نفوذهم شيئا فشيئا رغم الهزائم التي حلت بهم جراء التحالف الغزنوي— القراخاني في عهد السلطان محمود الغزنوي، وفقدانهم بعض قادتهم قتلا أو أسرا.

— ظهرت الخلافات داخل الدولة القراخانية ومن أهمها فتنة الأمير علي تكين في بخارى وسمرقند الذي استعان بالسلاجقة ضد أبناء عمه القرا

تقريبهم والاستفادة من قوتهم العسكرية، وتشتيت جهودهم، إلا أن الخلاف سرعان ما ظهر بين الفريقين ونتج عنه قرار السلاجقة بالرحيل عن بلاد ما وراء النهر والسير إلى خراسان بعد هزائمهم المتكررة.

— وجد السلاجقة في خراسان متسعا وفضاء جديدا لتحركاتهم التي أنهت النفوذ الغزنوي هناك، كما وجدوا في الأمير القراخاني إبراهيم بوري تكين حليفا جديدا، حيث استولى على بلاد ما وراء النهر من يد أبناء علي تكين، وفصل الدولة القراخانية الغربية عن نظيرتها الشرقية التي يحكمها أبناء يوسف قدرخان، وبهذا يبدأ طور جديد من العلاقات بين الطرفين قائم على الندية بين دولتين قويتين.

— في هذا المرحلة ستلعب المصاهرات السياسية بين القراخانيين والسلاجقة دورا في تحديد مدى حسن أو سوء العلاقات بين الطرفين، وستمر العلاقات بفترة هدوء نسبيًا طيلة حكم الخان إبراهيم طفغاج خان وشمس الملك وخضر خان من جهة الخانيين وألب ارسلان وجزء من فترة حكم ملكشاه من جهة السلاجقة، حيث ساهمت هذه المصاهرات في توطيد العلاقة بين الطرفين، واتجه كلا الطرفين إلى تثبيت حكمهما وإلى رعاية العمران والثقافة في أقطارهما.

— مع أحمد خان إلى الحكم وسوء سيرته، سيقوم ملكشاه بدعوة من علماء سمرقند بغزو ما وراء النهر وإخضاع القراخانيين الغربيين، والسير إلى نظرائهم حكام الدولة القراخانية الشرقية، ولكن سياسة الاخضاع والضم ستصطدم بالقلائل التي أثارها هذا التغيير مما يحتم عليه الإبقاء على القراخانيين كحكام تابعين للحكم السلجوقي ولكن مستقلين ضمن أملاكهم مقابل تقديم فروض الطاعة كالخطبة في المنابر وتقديم ضرائب سنوية، مع

عقد بعض المصاهرات السياسية بين الطرفين، وقد لعب الوزير القدير نظام الملك دورا كبيرا في الوصول إلى هذه التفاهات.

وقد ساهمت هذه المصاهرات في توثيق العلاقة بين الطرفين واستفاد منها القراخانيون في إبقاء نفوذهم، بل إن النساء القراخانيات في قصور السلاجقة سيلعن أدورا سياسية مهمة لعل من أهمها ما قامت به ترکان خاتون زوجة ملكشاه من دسائس ومؤامرات ضد نظام الملك ثم دعمها لحق ابنها محمود في تولي الحكم بعد أبيه، رغم انتهاء آمالها بوفاتها ووفاة ابنها، بينما استفاد السلاجقة من ضمان سيطرتهم على الحكام القراخانيين وعلى بلاد ما وراء النهر دون الحاجة إلى وجود عسكري دائم في المنطقة.

— تظهر هذه الاستفادة المتبادلة أكثر في عهد السلطان سنجر الذي واجه أعداء كثير وخاض معارك كثيرة بعضها في بلاد ما وراء النهر، ولكن بسبب صلته العائلية مع حكام الدولة القراخانية الغربية في سمرقند وبخارى، فقد ضمن ولاء هذه المناطق لحكمه، مع تدخله أحيانا لصالح هؤلاء الحكام ضد أعدائهم.

— بوصول القراخانيين (الخطا) إلى بلاد ما وراء النهر وإنهائهم لدولة القراخانيين الشرقيين، سيظهر تحد كبير أمام التحالف القراخاني — السلجوقي، والذي ترجم عمليا في معركة قطوان والتي كانت كارثة على الطرفين القراخانيين والسلاجقة، حيث أنهت الحكم الاسلامي على بلاد ما وراء النهر ومكنت الخطا الوثنيين من السيطرة على أجزاء مهمة من بلاد الاسلام، في حين أنهت النفوذ السلجوقي في المنطقة وتسببت في انهيار صورة السلطان سنجر القوي وتفكك دولته، بينما سيدخل القراخانيون مرحلة جديدة من مراحل حياة دولتهم وهي فترة النفوذ القراخاني.

الهوامش:

(1) الكاشغري، ديوان لغات الترك، دار الخلافة العلية، أنقرة، ص 27_28. صدر الدين بن علي الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ط1، بيروت 1984م، ص3. زبيدة عطا، الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، ب ت، ص38.

(2) محمد بن علي بن سليمان الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة إبراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد، القاهرة 1960م، ص145. عز الدين علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1982، ج9، ص474. زبيدة عطا، مرجع سابق، ص38_39.

(3) زبيدة عطا، مرجع سابق، ص39.

(4) المرجع نفسه، ص42.

(5) معتمدا على "تاريخ منجم باشي" بالنص العثماني مع ترجمة وملاحظات أعمال القسم الشرقي لدى جمعية الآثار الروسية. أنظر: حسين علي الداقوي، الدولة القراخانية، مجلة المؤرخ العربي، ع41_42، س16، 1990، جامعة بغداد، العراق، ص139. أنظر أيضا: بوريبوريا أحمدوف وزاهد الله منوروف، العرب والإسلام في أوزبكستان تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1999، ص110.

(6) ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، تر: محمد صبحي فرزات و محمد أحمد دهمان، مكتب الدراسات الإسلامية، دمشق، سوريا، 1973، ج1، ص272. أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف، مصر، 1972، ج1،

ص 279. عبد العزيز جنكيز خان، تركستان قلب آسيا، الجمعية الخيرية التركستانية، 1945، ص 48.

(7) آل أفراسياب: نسبة إلى ملكهم الأول أفراسياب وتعني: جناح الطاحونة وكان هذا الملك يلقب ب: خاقان الخواقين، وقد نجح في فرض السيطرة على بلاد فارس ومعظم البلاد التركية وقد خاض عدة حروب ضد الفرس ولقي حتفه في إحداها. أنظر: الراوندي، مصدر سابق، ص 452_453. أبو بكر محمد بن جعفر النرخشي، تاريخ بخارى، ترجمة وتحقيق: أمين بدوي ونصرالله الطرازي، مصر، 1965، ص 33. فاسيليفلاديميروفتشبارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، تر: أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، ب ت، ص 85. محمد فؤاد كوبريلي، تاريخ الأدب التركي، تر: عبد الله أحمد إبراهيم الغرب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص 84.

(8) يرى بعض المؤرخين أن القراخانيين ينتمون إلى الإيغور الأتراك، الذين توطنوا في شمال جبال "تيان شان" وجنوبيها، ثم اندفعوا نحو الغرب وممن يؤيد هذا الرأي: دوكنينوكلابروث وفراهن ورينو وفامبريورادولوفوماركوارت و الباحث في المسكوكات البروفيسور عاطف منصور محمد رمضان. أنظر: أرمينوس فامبري، تاريخ بخارى، تر: أحمد محمود الساداتي، القاهرة، 1965، ص 120. أحمد سعيد سليمان، مرجع سابق، ج 1، ص 280. فاسيليفلاديميروفتشبارتولد، الإيلكخانية، بحث منشور في دائرة المعارف الإسلامية يصدرها بالعربية أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي وعبد الحميد يونس، مج 3، ب ت، ص 205. الداقوي، الدولة.. مرجع سابق، ص 139. عاطف منصور محمد رمضان، نقود القراخانيين في آسيا الوسطى دراسة جديدة لتاريخ دولة إيلك خانات التركستان في ضوء مسكوكاتها، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ط 1، 2015، ص 28.

(9) بارتولد، تاريخ الترك، مرجع سابق، ص 68، 73، 90. محمد فؤاد كوبريلي، تاريخ، مرجع سابق، ص 137.

- 10) الكاشغري، مصدر سابق، ج1، ص393.
- 11) الكاشغري، مصدر سابق، ج2، ص220. بارتولد، تاريخ، مرجع سابق، ص75_76.
حسن أحمد محمود ، الاسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ، ص18.
- 12) بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت 1981م، ص388.
- 13) الصفصافي أحمد القطوري، إطلالة على ثقافة الترك وحضارتهم القديمة، مطبعة النصر الذهبي، القاهرة، مصر، 2006، ص80.
- 14) وهو جد صاتوقبغراخان أول خان مسلم من الخانات القراخانيين.
- 15) الداوقوي، الدولة.. مرجع سابق، ص 141. ألكسندر بيرزين، التفاعل التاريخي بين الثقافتين البوذية والاسلامية قبل الامبراطورية المنغولية، أرشيف د بيرزين البوذية، www.studybuddhism.com ، 2015/12/01، الساعة 22:30.
- 16) أوقطاي أصلان أبا، فنون الترك وعمائرهم، تر : أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 1987، ص10.
- 17) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص258. أبو الفدا الحافظ إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1977، ط2، ج11، ص236. بارتولد، تركستان، مرجع سابق، ص391. هدى درويش ، دور التصوف في نشر الاسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، مصر، 2004، ص55. زبيدة عطا، مرجع سابق، ص36.

18) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ط2، بيروت، 1988مج5، ص607 ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، حيدر آباد، 1357هـ، ج6، ص43. كوبريلي، تاريخ..، مرجع سابق، ص229. عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم، الحياة السياسية في بخارى في عهد الدولة الخانية، المجلة التاريخية المصرية، مج45، مكتبة الدار العربية، 2007، القاهرة، مصر، ص307_308. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص172.

19) هو الأمير نصر بن نوح بن نصر الساماني ويبدو أنه فر إلى القراخانيين وتمكن من نشر الاسلام في البلاط القراخاني أنظر: ألكسندر بيرزين، مرجع سابق. هدى درويش، دور التصوف..، مرجع سابق، 2004، ص70. عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم، مرجع سابق، ص306.

20) كوبريلي، تاريخ..، مرجع سابق، ص230. زياد محمد هوش، القراخانيون في تركستان تاريخ منسي وحضارة باقية، دار عمار، الأردن، 2008، ص13. هدى درويش، دور التصوف..، مرجع سابق، ص54، ص76. عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم، مرجع سابق، ص309. حسن أحمد محمود، الاسلام...، مرجع سابق، ص174_175.

21) ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ج11، ص82. ستانلي بول، مرجع سابق، ج4، ص521. كوبريلي، تاريخ..، مرجع سابق، ص237، ص252. عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم، مرجع سابق، ص309_310.

22) بارتولد، تاريخ..، مرجع سابق، ص76. الداقوي، الدولة..، مرجع سابق، ص142. عاطف منصور رمضان، مرجع سابق، ص28.

23) ستانلي بول، مرجع سابق، ج1، ص275. الداقوي، الدولة..، مرجع سابق، ص143. عاطف منصور رمضان، مرجع سابق، ص28_29.

24) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج9، ص95، ص100. بارتولد، تركستان، مرجع سابق، ص393_394.

25) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص475. ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، ج8، ص233. عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، تر: علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990، ص227. عصام الدين عبد الرؤوف، الدول المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1980م، ص139.

26) علي تكين: علي بن الحسن، يلقب بيهاء الدولة، وقطب الدولة، ونصر الملة، وعضد الدين، كان مسجوناً لدى شرف الدولة أرسلان خان (منصور بن علي) لكنه تمكن من الهرب إلى بخارى فاستولى عليها. وابتداءً من سنة 417هـ / 1026 - 1027م أصبح حاكماً مستقلاً لما وراء النهر (الجزء الغربي من الدولة القراخانية) حتى وفاته سنة 426هـ / 1034م، وبعد ذلك تولى ابنه يوسف حكم هذه البلاد. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج9، ص475.

27) زبيدة عطا، مرجع سابق، ص40. عصام الدين عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص139.

28) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج9، ص476.

29) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج9، ص476.

30) تمكن السلاجقة من هزيمة جيش علي تكين القراخاني وقتل ألف من جنده مع قتل قائده ألب قرا الذي قتل أميرهم يوسف بن موسى بن سلجوق، ولكن علي تكين رد الكرة عليهم وهزمهم وألحق بهم خسائر فادحة. أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج9، ص477. الفتح بن علي البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ط3، بيروت 1980م، ص8. فامبري، مرجع سابق، ص131. عصام الدين عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص142.

31) كان الأمير يغان تكين بغراخان بن قدرخان يوسف مرشحا للزواج من أخت السلطان مسعود، بناء على اتفاق سابق مع السلطان محمود، وبالفعل فقد وافق مسعود على إرسال أخته الى زوجها، ولكن تناهى إلى سمعه حديث من بغراخان عن حق زوجته المستقبلية في جزء من ميراث والدها السلطان محمود، فغضب مسعود وعدل عن إتمام الزواج وأرسل إلى أرسلان خان شاكيا تصرف أخيه، مما جعل بغراخان يتصرف بغضب تجاه أخيه والسلطان مسعود معا، بل وعقد تحالفا مع السلطان السلجوقي طغرلبيك ضد الاثنين، وبعد استشارة السلطان مسعود لخواصه تقرر حل المشكلة عن طريق إرسال وفد إلى أرسلان خان وأخيه بغراخان، وبالفعل فقد تمكن هذا الوفد من حل المشكلة بعد مفاوضات عسيرة. أنظر: أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة 1956م. ص571-574. بارتولد، تركستان، مرجع سابق، ص444-445. محمد سيد كامل، المصاهرات السياسية في الدولة الخانية (315هـ_609هـ/ 927م_1212م)، ص1457.

32) الحسيني، مصدر سابق، ص28. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج9، ص558.

33) عباس إقبال، مرجع سابق، ص245. محمد سيد كامل، مرجع سابق، ص1459.

34) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج9، ص300.

35) الراوندي، راحة الصدور، مصدر سابق، ص207. فتحي أبو سيف، المصاهرات السياسية في العصرين الغزنوي والسلجوقي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986، ص152. محمد سيد كامل، مرجع سابق، ص1459_1460.

36) الراوندي، راحة الصدور، مصدر سابق، ص207. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج10، ص75-76. نظام الملك، مصدر سابق، مصدر سابق، ص134-135.

- الحسيني، مصدر سابق، ص54. فتحي أبو سيف، مرجع سابق، ص152. عصام الدين عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص150. عباس إقبال، مرجع سابق، ص248.
- 37) البنداري، مصدر سابق، ص48. ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، ج8، ص277. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج10، ص76.
- 38) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج10، ص77. عصام الدين عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص151.
- 39) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج10، ص77. الحسيني، مرجع سابق، ص59-61. عباس إقبال، مرجع سابق، ص252.
- 40) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج10، ص92. الحسيني، مصدر سابق، ص61.
- 41) ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، ج9، ص41. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج9، ص300. النظامي العروضي السمرقندي، مصدر سابق، ص53-54.
- 42) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج10، ص171-172. نظام الملك، مصدر سابق، ص169. الراوندي، مصدر سابق، ص202. عصام الدين عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص153. عباس إقبال، مرجع سابق، ص252. محمد سيد كامل، مرجع سابق، ص1460.
- 43) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج10، ص172. ستانلي بول، مرجع سابق، ج1، ص277. عباس إقبال، مرجع سابق، ص252. عصام الدين عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص153.

- 44) الراوندي، راحة الصدور، مصدر سابق، ص 202-203. الحسيني، مرجع سابق، ص 66.
ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 10، ص 172. محمد سيد كامل، مرجع سابق،
ص 1461.
- 45) الحسيني، مرجع سابق، ص 72-73. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 10،
ص 172-175. البنداري، مصدر سابق، ص 71. الراوندي، مصدر سابق، ص 207.
عباس إقبال، مرجع سابق، ص 253.
- 46) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 10، ص 243-244.
- 47) الحسيني، مرجع سابق، ص 78، 90. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 10، ص 347-
365، 349. عباس إقبال، مرجع سابق، ص 277.
- 48) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 10، ص 350. عباس إقبال، مرجع سابق، ص 277.
- 49) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 10، ص 367، ص 497-498.
- 50) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 11، ص 83. الحسيني، ص 92، 91. فامبري، مرجع
سابق، ص 142. عباس إقبال، مرجع سابق، ص 281.
- 51) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 11، ص 272-273. عباس إقبال، مرجع سابق،
ص 282. محمد سيد كامل، مرجع سابق، ص 1462.
- 52) للمزيد عن معركة قطوان. أنظر: الحسيني، مصدر سابق، ص 94. ابن الأثير مصدر سابق،
ج 11، ص 86. الراوندي، مصدر سابق، ص 262. ابن الجوزي، مصدر سابق، ج 10،
ص 97

53) الراوندي، راحة الصدور، مصدر سابق، ص261. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق،
ج11، ص85، ص183، ص222. ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، ج10،
ص97. عباس إقبال، مرجع سابق، ص284_285.

التحقيق من عصر الفقيه أبو علي المتيجي

الطالب دكتوراه/طيايبة تقي الدين/كلية العلوم الإسلامية/ جامعة باتنة 1

الملخص:

يطرح البحث إشكالية مهمة حول العصر الذي عاش فيه أبو علي المتيجي أحد فقهاء المغاربة وبالضبط من متيجة الجزائرية، ولعلّ هذا الفقيه له ترجمة مقتضبة جدا، وليست له شهرة كبقية الفقهاء المالكية في كتب التراجم والطبقات، وهناك بعض التحقيقات التي توصلت أنّ هذا الفقيه عاش في القرن الحادي عشر ميلادي لكن هذا التحقيق غير مضبوط وغير مؤسس، فوددت في هذه الدراسة الضبط والتحقق من العصر الذي عاش فيه أبو علي المتيجي، مع استنباط الأدلة التي استخدمها في دحض قبلة المغاربة، فمن هو أبو علي المتيجي؟ وما هي الفترة التي عاش فيها؟ وكيف عالج قبلة المغاربة من خلال مخطوطه؟

وأما عن أهداف البحث فيهدف إلى دراسة أحد أعلام الفقه المالكي الذين كان لهم الدور في تصحيح القبلة غير أنه لم ينل شهرة كبيرة في كتب التراجم والطبقات، حتى الدراسات المعاصرة التي اهتمت بالتاريخ الكرونولوجي للفقهاء المالكية، مثل ما قام به محمد العلمي المغربي، يغفلون هذا الفقيه ولا يتعرضون له، ويهدف أيضا إلى التدقيق في العصر الذي عاش فيه.

الكلمات المفتاحية:

أبو علي . المتيجي . عصره . القبلة.

Abstract:

The research raises an important problem about the era in which. Abu Ali al-Meteji, one of the Moroccan jurists and the monotheist of the Algerian Metijah, lived. Perhaps this faqih has a very short translation and is not as famous as other Muslim scholars in the books of translations and classes. There are some investigations that concluded that this jurist lived in the century But this investigation is not correct and not established, and in this study, the investigation and verification of the era in which Abu Ali al-Meteji lived, with the extraction of the evidence he used in refuting the Moroccans Qibla, who is Abu Ali al-Mitiji? How long did he live? How did he treat the Moroccans' kiss through his manuscript?

As for the objectives of the research, it aims to study one of the scholars of fiqh al-Maliki, who had the role of correcting the qibla, but he did not receive great fame in the books of

key words:

Abu Ali . Metegy. His era. El-Qibla

مقدمة:

يعد علم الهيئة ركيزة أساسية في حياة الفرد المسلم، لتفاعله مع المجتمع الإسلامي والمتطلبات الاجتماعية والدينية التي فرضتها البيئة الاجتماعية وبنية الحضارة الإسلامية تزايد الطلب عليه وعلى تطبيقاته التي تراعي ضرورات المجتمع الإسلامي كاستخدام آلات فلكية جديدة تسير التطور الحاصل في علم الفلك النظري، واستخدمت على نطاق واسع خاصة في الشعائر الدينية، في هذا الصدد برز لنا في الساحة المغاربية فقيه جزائري اهتم بعلم الميقات أبو علي المتيجي وهذا ما يبرزه مخطوطه الموسوم بدلائل القبلة، يعد من أهم الكتب التي يجب أن توفر لها العناية سواء دراسة وتحليلاً وسواء بالتحقيق، ولعل أشهر التحقيقات التي أجريت عليه ما قام به الباحث السوري سعيد الشيب، وما قامت به الدكتورة نصيرة عزرودي، ولكن انطلاقاً من هذه التحقيقات قمت بالتحقيق والتمحيص في الزمن كان يعيش فيه هذا الفقيه، ومن أهم ما ركزت عليه في هذا الكتاب التحقق من ترجمة المؤلف وبيان عصره وما هي قواعده الجديدة في التدليل على القبلة وتوجهها .

المبحث الأول: ترجمة للفقيه أبي علي المتيجي

لقد وقع خلاف كبير حول العصر الذي عاشه الفقيه أبو علي المتيجي هل عاش خلال القرن الخامس الهجري ومنهم من قال أنه عاش خلال القرن العاشر، لكن لعل ما هو أقرب للصحة هو القرن الخامس الهجري ولعل هذا الاستنتاج تم من خلال تحقيق أحد المخطوطات وما قامت به الدكتورة نصيرة عزرودي، واعتمدت على إحدى

المخطوطات بباريس وذكرت أنه عاش في القرن الخامس، لكنّها لم تعتمد على كل الأدلة التي تثبت ذلك، كما أنّها اقتصرّت فقط على كتابين من كتب التراجم، غير أنّ الرأي التي توصلت إليه في عصره هو الأصح، ودعمت رأيها ببعض كتب الطبقات والتراجم التي أغفلتهم المحققة ولم تنتبه إليهم، ومن ذلك ما ذكره القاضي عياض في كتاب الغنية لما ذكر ترجمة عبد الله بن أحمد بن خلوف، قال سمعت الفقيه أبا علي المتيجي يثني عليه بذلك كثيراً، وكان لا يدهن فتياه ولا يصانع أحداً وكان أمير المسلمين يصفه بذلك ويعرف حقه ويكرمه ويمازه، وتوفي بأغمات سنة سبع وثلاثين وخمسمائة عن عمر قارب الثمانين سنة¹.

ومما دل على أنّ أبا يعلى المتيجي كان في عهد دولة المرابطين ما ذكره ابن حجر العسقلاني في كتابه تبصير المنتبه لما ذكر متيجة وعدد علماءها ذكر من بينهم أبو يعلى قال ومنهم أبو يعلى المتيجي من فقهاء أغمات في عهد يوسف بن تاشفين عاش إلى عشر الثلاثين وخمسمائة².

وأيضاً من كتب التراجم التي ذكرت الفقيه أبي يعلى كتاب توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة لابن ناصر الدين المشقي فقد ذكر أنه عاش في القرن الخامس الهجري حيث قال لما ذكر علماء متيجة: قلت ومنها أيضاً أبو علي المتيجي من فقهاء أغمات بالمغرب ومفتيهم كان في العشرين وخمس مئة ذكره السلفي في (معجم السفر) قال و المتيجي من قرية المتيحة بالغوطة قلت هي بفتح الميم وكسر النون تليها مثناة ساكنة ثم حاء مهملة مفتوحة ثم هاء وبها مسجد عنده قبر ينسب إلى سعد بن عبادة قاله أبو

محمد ابن البرزالي فيما وجدته بخطه وقال المصنف فيما وجدته بخطه المنيحة القرية التي بها قبر سعد انتهى قال أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن خالد المنيحي عن أبي خليل عتبة بن حماد وعنه أحمد بن أنس بن مالك الدمشقي قلت مُنَخَّل بضم أوله وفتح النون والحاء المعجمة المشددة تليها لام منخل بن عياذ في بني سامة بن لؤي من ولده عطاء بن جعفر بن عمرو بن منخل وسيف بن عبيد الله بن كعب بن منخل³.

وهناك من الباحثين من بينهم الباحث السوري عمار سعيد الشبيب من رأى أن أبو علي المتيجي يرجع تاريخه إلى القرن العاشر واعتمد على أدلة تبين له من خلالها أن تاريخه يرجع إلى القرن العاشر الهجري، ويستند في ذلك إلى مخطوط في القبلة لمؤلف مجهول حيث ذكر بقوله فأجاب عليه الفقيه علي المتيجي أدام الله توفيقه وهذا دليل على أن المتيجي لا زال حيا عند كتابة مقالة في المجموع ما أفتى به علماء مصر من الفقهاء والميقاتية حين سئلوا سنة أربع وثلاثين وتسع مائة عن نصب محاربه⁴.

كما استند إلى أحد المخطوطات تحفة الأكابر في مناقب الشيخ عبد القادر الذي يقول فيه كتب العالم أبو زيد عبد الرحمن التاجوري الإفريقي المالكي حين وجه سؤالاً وجهه إلى مصر والحجاز سنة أربع وثلاثين وتسعمائة عن نصب محاربه بأرض المغرب، ليثبت أن أبا زيد عبد الرحمن التاجوري الإفريقي هو نفسه الذي وجه سؤالاً إلى الفقيه أبي علي المتيجي⁵.

لكن الدلائل التي توصل إليها الباحث السوري سعيد الشبيب كلها ساقطة أمام ما ورد في المصادر كل من ابن حجر في كتابه التنبية والقاضي عياض في كتابه الغنية وكتاب

السفر للطاهر السلفي وما جاء في رحلة العبدري كل هذا اعتراض على ما قرره الباحث السوري⁶.

المبحث الثاني: عصر الفقيه أبو علي المتيجي:

هناك إشارة دالة على أن الفقيه أبو علي المتيجي في عصر المرابطين، ولعل هذا الكلام أشار إليه محمد المنوني في كتابه المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي لما ذكر معلومات عن الأنظمة الإدارية بالأندلس في عصر المرابطين ذكر من بينها رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة في المغرب يسمى مؤلفها أبو علي المتيجي وهو ينشر في رسالته إفادات عن المغرب أيام المرابطين العصر الذي عاش فيه المؤلف، وهي مخطوطة بدار البيضاء بالمغرب حيث تتناثر في هذه النسخة معلومات مغربية ص 34، 35، 43، 78، 74⁷.

والعصر الذي عاش فيه الفقيه كان قد مر بعدة مراحل النشأة والسيطرة على الصحراء ويسمى الدور الصحراوي ودور العظمة والتوسع نحو الشمال وهو الدور المغربي والدور الأخير هو الذي تميز بصد الهجمات الصليبية ويسمى الدور الأندلسي.

وقد حظي الفقهاء المالكية فيها بموقع مؤثر ونفوذ متسع فلم يكن مستغربا أن يفضل ويعظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين شأنهم ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم⁸.

ولعل المنطقة التي كان الفقيه أبو علي المتيجي ينتمي إليها وهي أغمات التي أصبح لها دور كبير في عهد الأمير يوسف بن تاشفين والسر في ذلك هو الجانب الاقتصادي الذي أكسبها قوة، فقد اشترى أرض مراكش من أهل أغمات بعد أن وجدها خالية من المياه

إذ لا ينابيع فيها لذلك أعطى أوامره بحفر الآبار وجلب المياه إليها بعد أن كانت تفتقر إلى المياه والخضرة⁹ واختار في ذلك من أشهر المخططين والمهندسين هو عبد الله بن يونس الذي عمل على استخراج المياه لسقي البساتين بطريقة هندسية، فانتشرت البساتين والجنان، وانتشرت العمارة بمراكش وحسن منظرها، كما نشطت أسواقها وتطورت وتعددت فهناك أسواق خاصة تباع فيها المحصولات الزراعية والخضر والفواكه والحبوب وأسواق لبيع الألبان، بل حتى الأرحاء طورت وانتشرت بها الحمامات والحانات والرياض والبساتين والثمار¹⁰.

أما بالنسبة لأغمت فقد أعطاهما موقعها مكانة هامة بين مراكز السوس حيث كانت تتوسط تلك المراكز مما أدى إلى استقرار مجموعات كبيرة من التجار بها فكانت أسواقها حافلة بكل أنواع السلع المختلفة وأعداد التجار من كل الجهات خاصة إلى بلاد السودان، كانوا يحملون إليها بأعداد الجمال محملة بالنحاس الأحمر والأكيسة وثياب الصوف والعطر والآلات¹¹.

بل كانت أغمت من أكثر مراكز دولة المرابطين أموالا وأوسعهم أحوالا وأبواب منزلهم تدل على مقادير أموالهم، وذلك أن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته، أقام على يمين بابه وعلى يساره عرضتين من الأرض إلى الأعلى، وبنياهم من الآجر والطوب والطين أكثر، فإذا مر الخاطر بدار ونظر إلى تلك الغرض من الأبواب قائمة عدّها فيعلم من عددها كم مبلغ صاحب الدار¹².

ووصفها الإدريسي أي أغمات بأنها مدينة تكنفها جبل درن فإذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بجبل درن فيسيل ذوبانها إلى نهر أغمات وأغمات أهلها هواره من قبائل البرر وهم أملياء تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان وبأغمات ضروب من الفواكه وأنواع من النعم وكل شيء من المأكول بها رخيص ممكن.

المبحث الثالث: أشهر تحقيقات مخطوط دلائل القبلة لأبي علي المتيجي

إن أشهر من قام بتحقيق مخطوط دلائل القبلة ما قام به الباحث السوري سعيد الشبيب غير أن هذا التحقيق قد عرف تقصيرا خاصة من ناحية ضبط الفترة الزمنية، وعدم ضبط تراجم الأعلام وفقدانه لتخريج الأحاديث، لكن من أحسن الأعمال في جانب التحقيق لهذا المخطوط ما قامت به الدكتورة نصيرة عزرودي واستخدمت هذه الأخيرة على مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس وبينت نسبة الكتاب إلى مؤلفه واعتمدت على أدلة التي رجحت أن هذا الكتاب يرجع إلى مؤلفه اعتمدت على ما ذكره صالح بن أبي صالح المصمودي في كتابه القبلة في الأندلس والمغرب الأقصى بالإضافة إلى النزاع الذي طرأ على القبلة بين الفقيهين الشيخ التونسي والفقيه الطيب القافني هذا النزاع عايشه الفقيه أبو علي المتيجي مع رجل من أهل الدين والفضل لما بين له أن القبلة ليست إلى خط الزوال بالنسبة للمغرب فجادله وأقنعه بغلظه فاعترف قائلاً والله لا أتكلم بعد هذا اليوم أبداً في القبلة وأتكلم بما ثبت وقد ذكر الخلاف الصائر حول القبلة بقوله وشكوت ما ثار عندكم في مدينة أغمات وما حولها من الخلاف فيها والنزاع في أمرها ورأينا أن الصواب قد خفي عليكم في حقيقة استقبالها¹³.

كما بينت الدكتورة نسبة العنوان للكتاب، و ذكرت أن المخطوط لم يتم ذكر فيه العنوان وإنما ذكر فيه اسم المؤلف فقط واعتمدت على قرائن تبين لها من خلالها نسبة العنوان للمؤلف ما ذكره المؤلف المجهول صاحب كتاب القلبة و العبدري وصفه بصاحب الرسالة في القلبة ومحمد المنوني سماها رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة المغرب، وتؤكد الباحثة الاسبانية مونيكا ريوس أن العنوان الصحيح لدلائل القلبة¹⁴.

المبحث الرابع: منهجه في دراسة القلبة

أ/منهجه:

اعتمد الفقيه المتيجي في كتابه على جملة من الفقهاء المالكية وهم كالتالي:
مالك بن أنس ت179هـ، وابن وهب ت197هـ، ابن حبيب ت238هـ، سحنون ت240هـ، ابراهيم بن الحسين أبو إسحاق، ت240هـ، أحمد بن خالد ت240هـ، المحاسبي ت243هـ، محمد بن عبد الحكم ت268هـ، عيسى بن مسكين ت315هـ، ابن أبي زيد القيرواني ت368هـ، الخطابي، ت388هـ، أبو الحسن بن القصار ت398هـ، أبو جعفر بن النصر الداودي ت403هـ، أبو عبد الله بن سفيان ت415هـ، عبد الوهاب ت422هـ، موسى ابن عيسى بن أبي عمران الفاسي ت430هـ، أبو بكر بن عبد الرحمن ت434هـ، أو ذر الهروي ت435هـ، عبد المؤمن القروي ت435هـ، السيوري القروي ت460هـ، ابن عبد البر ت463هـ، أبو الحسن

اللخمي 478هـ، الشيخ التونسي ت485، ابن الزلوان اللمطي كان حيا في 445هـ، أبو الفضل النحوي ت513هـ، أبو عبد ابن يونس المالكي توفي حوالي 522هـ. كما اعتمد على كتب في تحديد القبلة منها كتابين هامين أولاهما لأبي جعفر بن النصر الداودي الأسدي المسيلي مولدا والطرابلسي نشأة، والكتاب الثاني لأبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي التوزري في كيفية استخراج القبلة في المغرب الأقصى¹⁵.

ب/ منزلة كتاب المتيجي بين كتب علم التوقيت:

للدلالة على قيمة كتاب المتيجي يكفي إشادة العلماء به واقتباسهم لأقواله للاحتجاج بها ومن بينهم أو علي صالح المصمودي لما اقتبس قول المتيجي قال قال المتيجي واعلم أن من أراد أن يجعل للمغرب كله قبلة واحدة من مصر إلى أقاصي المغرب فقد أخطأ لأن أهل المشرق يسمون مصر بالمغرب، لأن ذلك بلاد كثيرة وأقطار واسعة طولا وعرضا لا يصح أن تكون واحدة بدليل الذين نصبوا قبلة الفسطاط بمصر¹⁶.

قال أبو علي المتيجي: وكذلك رأيت جامع سبتة في بعض التغريب، فكان الإمام ينحرف فيه ويقول أهل العلم فيها لمن يصلي فيها انحرفوا يسيرا إلى المشرق فإن الامام ينحرف وينحرف أهل الصفوف، قال الشيخ: شاهدت ذلك منهم مرارا، قال أبو علي: وإن كان المسجد كثير الانحراف عن القبلة هدم ذلك إن لم يخف الفتنة على هدمه فإن لم يتفق الناس على هدمه صلى الناس فيه وانحرفوا، وأما إن امتنع هدمه من كثرة النفقة في هدمه وبنائه نظر أهل المعرفة في تبديل محرابه إلى القبلة¹⁷.

وروى المتيجي عن سحنون أنه قال: نصب الرجل الصالح عقبة بن نافع محراب جامع القيروان هو وجماعة من التابعين وخمسة عشر رجلا من الصحابة بعد اجتهاد في طلب قبلتها واستدلال على سمتها بالنجوم والمطالع حتى اتفقوا فنصبوها إلى مطالع الشمس عند منصرفها في الشتاء¹⁸.

قال المتيجي: انظر إلى المغرب الأقصى، بينه وبين القيروان نحو مسيرة شهرين لكنه قريب من السمت لأن المصلي بالمغرب الأقصى على الكتف اليمنى للمصلي بالقيروان فأوجب ذلك أن ترتفع قبلة المغرب الأقصى عن قبلة القيروان في المشارق إلى مواضع الاعتدال.

المبحث الخامس: معالجته لقبلة المغاربة :

لقد قسم أبو علي المتيجي كتابه أي دلائل القبلة إلى ثلاثة أبواب الباب الأول جعله في بيان وجوب استقبال وبيان ضروب الأدلة الموصلة إليها وضروب المصلين إليها وقسم الباب الأول إلى فصول الفصل الأول جعله في بيان استقبال المسجد الحرام على كل مصل وبين في هذا الفصل أن الصلاة شرط من شروط صحة الصلاة لا تتم بها ولا تقبل بدونها واستدل بآية من القرآن (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين) وبحديث للنبي صلى الله عليه وسلم (استقيموا ولن تحصوا واعلموا فإن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)، وقدم تفسيراً للآية التي قالها الله عز وجل (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وبين كلمة الشطر ماذا تعني في اللغة¹⁹.

أما الفصل الثاني فقد جعله المؤلف في ذكر ضروب الطرق الموصلة إلى معرفة القبلة، وبين أن طرق معرفة القبلة خمس منها رؤية الكعبة بالعين، والثاني من عاينها إذا كان ثقة والثالث الاستدلال عليها بالأدلة المنصوبة عليها والرابع تقليد العامي عالما مجتهدا والخامس تقليد من عدم هذه الأربعة وهو المتردد في الجهات، وبين أن هذه الطرق تبقى على هذا الترتيب لا تتقدم عن بعضها البعض وأما الفصل الثالث والرابع فقد جعله في الخبر من طرق معرفة القبلة ووصف هذا بأنه يأتي بعد رؤية العين ويكون هذا عن طريق التواتر قرنا عن قرن أما الاجتهاد فبعد عدم رؤيتها بالعين لما نصبه الله من نجوم وغيره فكلها دلائل تدل عليها واعتمد على الفقيه ابن حبيب في تفسيره للآية (وبالنجم هم يهتدون) قال يريد الله تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر إلى معرفة قبلة صلاتكم²⁰.

وفي الفصل الذي يليه تكلم عن أقسام القبلة وذكر بأنها على عشرة أضرب قبلة معاينة، وقبلة استكشاف، وقبلة يقين، وقبلة إجماع، وقبلة خبر، وقبلة اجتهاد، وقبلة تقليد، وقبلة ظن، وقبلة ضرورة، وقبلة تردد²¹.

ثم أخذ الشيخ رحمه الله يشرح كل قبلة من هذه القبلات معتمدا على نصوص من كتاب الله وسنة نبيه ومعتمدا آراء الفقهاء المالكية، فأما قبلة المعاينة فقد استعان فيها الشيخ المتيجي على قول الشيخ اللحمي في كتابه التبصرة بقوله من عاين الكعبة لزمه استقبالها فإن انحرف عنها شيئا لم تجزه صلاته وبهذا ناقش المتيجي المغاربة في معاينتهم للقبلة مع أنهم يستقبلون خط الزوال.

بينما قبلة الاستكشاف وهي لمن كان بمكة وغابت عنه القبلة بجدار أو جبل فهذا فرضه الاستكشاف نظرا للعدر الذي نزل به واستدل الشيخ رحمه الله بقول جبريل عليه السلام مع نبينا صلى الله عليه وسلم أشار له في المدينة إلى سمت مكة فنصب قبلة مسجده إليها، وبهذا الشيخ رحمه الله ناقض قول المغاربة في ادعائهم بأن قبلتهم إلى خط الزوال هي قبلة استكشاف وأن حجاجهم قد استكشفوا قبلة مكة.

ثم تكلم الشيخ عن قبلة اليقين عن خبر يقين وهذا ما جاء عن جبريل عليه السلام لما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم لما أشار له للقبلة فكان خبر جبريل عليه السلام خبر يقين، واستنتج الشيخ رحمه الله أن من صفة خبر التواتر ألا يناقض الخبر والمشاهدة فإنه قد ثبت عنده بالخبر والمشاهدة من الأعداد التي لا تنحصر من الناس الحجاج والمسافرين أن مكة لمغربنا ليست في خط الزوال فإنه قد اجتمع أن في كون مكة منا في المشرق بالخبر والنظر فبطل تواتر حجاجكم .

أما قبلة الاجماع وهي كل قبلة نصبها الأئمة المقتدى بهم في الدين فهذه قبلة لا يجوز لأحد الاجتهاد فيها كقبلة جامع الفسطاط التي نصبها سبعون رجلا من الصحابة وأبطل أقوال المغاربة بأن قبلتهم قبلة إجماع بأن مساجدهم التي بنوها إنما بنوها باجتهاد فنصبوها إلى خط الزوال، وإنما هم مقلدون في القبلة وتقليدهم مبني على التأويل الخطأ.

أما قبلة الخبر والاستخبار فقبلة الخبر هي الطرق الثابتة الموصلة لمعرفة القبلة وبين أن اخبر ضربان تواتر وأحاد وأما قبلة الاستخبار تكون لمن كان غائب عن مكة يلزمه

بالضرورة الاستخبار من ناحية مكة في الأرض والاستخبار مقدم على الاستدلال عليها فعلى العامي تلقي الركبان ويسأل المنصرفين ويستخبر الحجاج .

ثم تحدث الشيخ عن قبلة الاجتهاد وذكر بأنها الطريق الثالث لمعرفة القبلة ولا يجوز الاجتهاد فيها إلا بعد عدم الخبر عنها ثم ناقش قول المغاربة إن قالوا بأن قبلتهم إلى خط الزوال هي قبلة اجتهاد فهذا باطل لأن علماءهم اجتهدوا وقالوا بأن قبلتهم هي لخط الزوال بالاجتهاد فهذا بطل لان الاجتهاد مفاده اصابة الحق إصابة قرينة منه فبطل إدعاءهم²² .

ثم تكلم الشيخ عن قبلة الضرورة وقبلة الظن والتردد وقال الشيخ رحمه الله أن قبلة الضرورة تكون لأصحاب الأعذار كالمسافر، والمريض، والخائف، والمكتوف، والمربوط، والمهدوم، وأما قبلة الظن تكون للذي أغميت عنه القبلة بظلمة أو مطر والظنون في القبلة تتصور على وجوه منها بأن يرى ضوءاً يستدل به على القبلة.

أما قبلة التردد فقد ققال الشيخ ممن أغميت عليه القبلة وفقد دلائلها وفقد ظنونها فذكر الشيخ بأن هناك قولان في المذهب بأن يختار جهة للصلاة أو أن يصلي للجهات الأربعة.

أما الباب الثاني فقد جعله أبو علي المتيجي في ذكر الروايات الواردة بوجوب الاجتهاد في طلب القبلة ووجوب الرجوع إليها على من أخطأها وانقسام الناس في فرض الاجتهاد والطلب وما مطلوبهم هل هو عين أو الجهة؟ وكيفية استعمال الاجتهاد في الطلب.

واستخدم رحمه الله في بيان الاجتهاد فيها وتحقيق سمتها من الفروض الواجبة على نص للفقهاء اللخمي من غاب (عن مكة كان فرضه الاجتهاد واستند للإجماع).

اعتمد أبو علي المتيجي في التدليل على وجوب الرجوع إلى القبلة من أخطأها على مدونة الإمام مالك بقوله: (من ابتداء الصلاة إلى غير القبلة وهو لا يعلم ثم علم بذلك وهو في الصلاة فإن استدبرها أو شرق عنها أو غرب قطع وابتداء الصلاة بالإقامة من أولها ولا يدور إلى القبلة)²³.

وتبين له من قول الإمام مالك في أن الانحراف الكثير عن القبلة يبطل الصلاة فأسقط الحكم على مساجد المغرب إلى خط الزوال، وتركهم لمكة في المشرق، كما بين حكم من أدرك انحراف مسجده عن القبلة واعتمد على قول الفقيه أبو الطيب عبد المنعم القروي وقع في كثير من المساجد القيروان، ثم قال الشيخ ورأيت هذا أنا بالمغرب بمدينة سبتة، قال ورأيت ذلك معاينة ومشاهدة منهم مرارا، فإن عثر على المسجد منحرفا انحرافا كثيرا هدم بنيانه إن كان ذلك ليست فيه مشقة بكثرة تعبه وكثرة نفقته.

وفي آخر الباب تكلم عن بعض الأحكام الخاصة بقبلة المساجد الأربعة، فقبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منصوبة نصب تحقيق بخبر جبريل خبر يقين فهي منصوبة إلى خط الزوال وهو الوسط ما بين المشرق والمغرب تكون مكة منها في ذلك سمت فمكة في الجنوب للمدينة والمدينة في الجنوب لبيت المقدس، وهي ثلاثتها على خط واحد وثبت هذا الترتيب بحديث النبي صلى الله عليه وسلم (لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولا لغائط ولكن شروا أو غربوا)²⁴.

ثم بين الشيخ رحمه الله حكم قبلة المساجد بالمغرب الأقصى وأثبت بأن الذين نصبوا قبلة المغرب للأقصى إلى خط الزوال بعدما تبين لهم أن مكة في المشرق لم يكونوا أهل اجتهاد في طلب القبلة ولا عارفين بشيء من وجوه الاستدلال وإنما نصبوا قبلتهم إلى خط الزوال بالتقليد وبتأويل خاطئ²⁵.

أما الباب الثالث والذي ختم به أبو علي المتيجي مخطوطه فقد جعله في ذكر أصناف الغالطين في القبلة وذكر تأويلهم الفاسدة في علامة القبلة، وذكر الآلات التي بها تستخرج القبلة عندهم، وما يع فيها من الغلط وبيان المعاني والشبه المغلطة وتكلم الشيخ في هذا الباب عن ثلاثة أصناف فالصنف الأول أهل سوء في التأويل والثاني جملة حجاج المغاربة والثالث الأهواء وطلب المنازل في الدنيا²⁶.

وبين الشيخ رحمه الله أن الصنف الأول من الغالطين في القبلة من أهل المغاربة هم أهل سوء أسأؤوا لتأويل حديث النبي صلى الله عليه وسلم (بين المشرق والمغرب قبلة) فقد أسأؤوا فهم الحديث لما حملوه على العموم فقال من ادعى بهذا الادعاء فهذا من أعظم الفرية على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين أن صدق ما يبطل هذا الادعاء هو قول الله تعالى (فولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام)²⁷.

الخاتمة:

يعد أبو علي المتيجي من الفقهاء المغاربة الذين عاشوا في عهد المرابطين الذين لهم يد طولة في الفقه والذين أعادوا قبلة المغاربة إلى منبعها الصحيح معتمدا في ذلك على أدلة وحجج وبراهين، بل ناقش أبو علي المتيجي فقهاء كثير في ذلك الزمن وأقنعهم بأن القبلة

التي كان عليها المغاربة إلى خط الزوال غير مؤسسة لم يقدّم لها دليل من الدلائل التي تثبت ذلك.

قائمة التهميش:

- ¹ القاضي عياض، الغنية شيوخ القاضي عياض، تحقيق زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 155.
- ² العسقلاني أحمد بن علي ابن حجر تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق علي محمد البيجاوي، المكتبة العلمية، بيروت، القسم الرابع، ص 1394.
- ³ ابن ناصر الدين الدمشقي محمد بن عبد الله بن محمد القيسي، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، 8/ص 161.
- ⁴ مؤلف مجهول، في القبلة، ورقة رقم 150 ظهر.
- ⁵ أبو علي المتيجي، دلائل القبلة، تحقيق نصيرة عزرودي، منشورات مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، 2017، ص 18.
- ⁶ أبو عبد الله العبدري، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم الكردي، ط 2، دار سعد الدين للطباعة، دمشق، 2005، ص 337.
- ⁷ محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983م، 1/32.
- ⁸ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 4/46.
- ⁹ شريف الإدريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 223.
- ¹⁰ عصمت عبد اللطيف، أضواء جديدة على المرابطين دراسة اجتماعية اقتصادية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 104.
- ¹¹ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 235.

- ¹² الإدريسي، المصدر نفسه، ص232.
- ¹³ الإدريسي، نفس المصدر ونفس الصفحة.
- ¹⁴ أبو علي المتيجي، دلائل القبلة، تحقيق نصيرة عزرودي، ص25.
- ¹⁵ نفس المرجع السابق، ص27، محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، 1/32.
- ¹⁶ أبو علي المتيجي، نفس المصدر، ص32-33.
- ¹⁷ أبو علي المتيجي، نفس المصدر، ص36.
- ¹⁸ أبو علي المصمودي، كتاب القبلة، ص15.
- ¹⁹ أبو علي المصمودي، كتاب القبلة، ص26-27.
- ²⁰ أبو علي المتيجي، دلائل القبلة، ص49.
- ²¹ أبو علي المتيجي، دلائل القبلة، ص52.
- ²² أبو علي المتيجي، نفس المصدر السابق، ص63.
- ²³ أبو علي المتيجي، نفس المصدر السابق، ص66-70-77.
- ²⁴ أبو علي المتيجي، نفس المصدر، ص83.
- ²⁵ أبو علي المتيجي، نفس المصدر، ص87، 89، 91، 105.
- ²⁶ أبو علي المتيجي، نفس المصدر، ص113.
- ²⁷ أبو علي المتيجي، نفس المصدر، ص131، 132.

وثائق بيع كتب خزائن المخطوطات وأهميتها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية

دراسة لوثيقة بيع مخطوطات الخزانة البكرية بتوات سنة 1300هـ/1883م

أ/عبد الله بابا/ جامعة أدرار/ الجزائر

Babaabd99@yahoo.com

الملخص:

تحتفظ الخزائن التواتية بالعديد من الوثائق الهامة كعقود بيع الكتب أو تحبيسها أو إقراضها، والتي يمكن استثمارها في وضع دراسات أكاديمية، نستنتج من خلالها مؤشرات تاريخية واقتصادية واجتماعية، والوثيقة التي بين أيدينا اليوم - وثيقة بيع كتب الخزانة البكرية بتوات - هي واحدة من الوثائق التي من خلالها يمكن أن نسلط الضوء على خزائن المخطوطات بتوات من حيث موضوع المخطوط وسعره، وانتقال ملكيته، وما هذه الوثيقة الخاصة بالخزانة البكرية إلا دليل واضح عمّا واجهته الخزائن داخل الزاوية من صعوبات وتحديات، في ظل تراجع مواردها المادية، حيث أصبحت المخطوطات ملاذاً آمناً يمكن استغلالها وقت الحاجة، لدفع الديون المترتبة على عاتق شيخ الزاوية نتيجة الأعباء العلمية والاجتماعية.

Résumé:

les armoires de Touat conserve de nombreux documents importants tels que les contrats librairie ou Tahbis ou de prêts, qui peuvent être investis dans le développement des études universitaires, nous concluons à partir de laquelle les indicateurs scientifiques, historiques et économiques, sociaux,

et le document que nous avons aujourd'hui, "le document de vente des œuvres de l'armoire du Zaouïa de Sid El'Bekri à Touat " est l'un des documents qui pourraient faire la lumière sur les armoires manuscrites à Touat en termes de l'objet du manuscrit et son prix, et le transfert de propriété, et ce document particulier de l'armoire du Zaouïa de Sid El'Bekri seule preuve claire de ce que la confronter ces armoires à l'intérieur des Zaouïas de difficultés et de défis, compte tenu de la diminution des ressources matérielles, où les manuscrits sont devenus un refuge peut être exploitée en cas de besoin, pour payer des dettes repose le Sheikh la Zaouïa en raison des charges scientifiques et sociales.

مقدمة:

تتضمن عقود البيع المخطوطة التي حفظتها لنا خزائن المخطوطات معلومات هامة وأصلية، يمكن استثمارها في وضع دراسات لتتبع أثر المخطوطات بها، وذلك لما ترصده لنا هذه العقود من معلومات علمية واقتصادية واجتماعية تشكل مصدراً صافياً يستمد منه الباحثون والمختصون حقائق معبرة وموضوعية، يمكن الاعتماد عليها في دراسات مختلفة، لتفسير بعض الظواهر وكشف جوانب مهمة في تراثنا المخطوط.

ومن الخزائن التي حفظت لنا مثل هذه الوثائق الخزانة البكرية بتوات، إذ تعد من أقدم الخزائن بالمنطقة احتضاناً للمخطوط تأليفاً ونسخاً منذ تأسيسها سنة 809هـ/1406م. ويحفظ لنا عقد بيع جزء من كتب خزانة الزاوية البكرية¹ المحرر

بتاريخ جمادى الأولى 1300هـ/1883م، أسماء الكتب المخطوطة التي بيعت من طرف السيدة عائشة بنت محمد زوجة شيخ الزاوية المتوفى الحسن بن سعيد، لتسديد ديون مترتبة عليه، والأطراف المستفيدة من الكتب.

ويأخذ هذا الموضوع قيمته وأهميته من خلال الجوانب التي يمكن استنباطها من هذه الوثيقة، التي تحمل معلوماتٍ بكرةً، تُلقي الضوء على جوانب هامة تتعلق بأسعار المخطوطات، وموضوعاتها، والحالة المادية لأرباب الخزائن، وانتقال ملكية المخطوط، ومكونات المخطوط وحالته. وعليه تحاول هذه المداخلة استجلاء بعض الحقائق التي لا زالت مجهولة في مجال الكتب المخطوطة. ولتوضيح أبعاد البحث أكثر يمكن طرح الأسئلة الآتية: ما هي موضوعات الكتب التي بيعت؟ وما هو ثمنها؟ ما المستوى العلمي لكل من البائع والمشتري؟ ما هي الظروف التي دفعت بمالكها إلى بيعها؟ وهل هناك علاقة بين بيع الكتب وتراجع موارد الزاوية المذكورة؟ وما مصير الخزانة بعد بيع جُل مخطوطاتها؟.

تأسيس الخزانة البكرية:

تعتبر الخزانة البكرية من أهم الخزائن احتضاناً للمخطوط تأليفاً ونسخاً، حيث يعود تأسيسها إلى الشيخ ميمون بن عمرو (809هـ/1406م)، وفي عهد الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم² (ت1133هـ/1721م) بلغ عدد مخطوطاتها ما يقارب 3600 مخطوط، وجاءت وصيته بشأنها حسبما جاء في الكواكب البرية "...وكل الكتب حبس مبتل على الأولاد والأحفاد من الذكور حتى يرث الله الأرض، لكل الانتفاع بمكانهم، لا يُمنع منها منتفع ولا يُمكَّن مبتدع..."³، وقال صاحب القول البسيط⁴ في وصفه للخزانة البكرية "...وعندهم خزائن كتب تكررت فيها الحطاطب

والقواميس والتفاسير... " ، وكانت كتب الخزانة كلها بدار سيد البكري ثم في كفالة ابنه القاضي عبد الكريم ثم عند حفيده القاضي عبد الحق بن عبد الكريم، وفي سنة 1233هـ/1818م اتفق حفدة الشيخ سيد البكري على تقسيمها⁵، وذلك عندما طالب الحسن بن سعيد البكري بأحقته العلمية في الإشراف على خزانة جده سيد البكري، وهو آنذاك مقيم بالزاوية وليس بتمنيط، وكان شرط المحبس الانتفاع بالكتب في مكانها، لكن آل الأمر في النهاية بين حفدة الشيخ سيد البكري إلى أن يحفظ كل فرع ما نأبؤه منها⁶. فكانت في تمنيط خزانة الشيخ سيد أحمد ديدي، وخزانة أولاد القاضي، وخزانة محمد الصالح، والخزانة البكرية بزاوية سيد البكري.

يغلب على هذه المخطوطات الطابع الديني من فقه وتفسير وحديث ونحو، بالإضافة إلى التصوف والتاريخ والتراجم والسير وعلم الفلك والرياضيات، ومن نفائس كتب الخزانة البكرية المصحف الكريم⁷ المنسوخ من مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان بتاريخ 27 محرم 727هـ/23 ديسمبر 1326م، كتبه شيخ الشيوخ بالديار الأندلسية أبو العباس سيد أحمد علي بن أحمد العبدري (ابن خليفة)⁸. ومن أشهر العلماء البكرين الذين ساهموا في إثراء خزانة المخطوطات البكرية تأليفاً نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ عبد الكريم بن أحمد والقاضي عبد الكريم بن سيد البكري وابنه القاضي عبد الحق والشيخ الحسن بن سعيد البكري والشيخ علي بن عبد القادر بن البكري والشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق.

وصف الوثيقة:

جاءت وثيقة بيع كتب الخزانة في صفحة واحدة، مسطرتها تتكون من 25 سطراً، وفي كل سطر 18 كلمة في المتوسط، خطها مغربي رقيق. وقد عثرت على هذه

النسخة بيد الشيخ الحاج عبد الله بكرابي - شيخ الزاوية البكرية - فقامت بأخذ صورة لها أثناء إنجاز بحث حول الزاوية.

وجاء في مقدمة الوثيقة تمهيد تضمن الحمدلة والصلاة على رسول الله، ثم انتقل في السطر الثاني إلى توضيح سبب انتقال ملكية كتب خزانة الحسن بن سعيد بعد وفاته إلى زوجته السيدة عائشة بنت سيدي محمد، ثم انتقال الملكية إلى المشتري، وكل ذلك بسبب الديون المترتبة عليهم سواء كان الحسن أو أبناؤه أو زوجته، كما أوضحت الوثيقة وجود صنفين من الكتب داخل الخزانة، واحدة محبسة (موقوفة)، والأخرى مكتسبة إما نسخا أو شراء أو تأليفا.

وعرّج بعد ذلك كاتب العقد إلى تحديد الطرف الثاني في العقد، والذي يظهر من خلال صيغة الكتابة بأنه كان فقيها عالما ينتمي إلى العائلة البكرية ذاتها، ومما جاء فيه قوله "... فاشترى منها على بركة الله تعالى وحسن توفيقه الجميل البركة الفقيه العلامة سيد أحمد نجل البركة سيد البكري...".

ثم بعد تحديد الأطراف والأسباب الدافعة إلى ذلك، جاءت الوثيقة بأسماء الكتب المتباعة وثمان كل كتاب، سواء كان السعر يشمل مجموعة من المخطوطات في سفر أو بدون سفر. وتنتهي الوثيقة بتحديد الثمن الكلي للكتب وتاريخ تحرير الوثيقة، والتاريخ يوافق أوائل جمادى الأولى سنة 1300 هـ الموافق مارس 1883م، وجاء تذييل الوثيقة ليؤكد ما جاء في أولها بأن محرر الوثيقة هو العلامة البكري بن عبد الرحمن التلاني، وقد وردت الإشارة إليه في المقدمة بالقول "... لما صيرت كتب خزانة الفقيه العلامة خالنا وشيخنا سيدي محمد الحسن نجل البركة المرحوم جدنا سيدي سعيد...".

وجاء في نهايتها "...وكتب مذيلا اسمه أعلاه محمد البكري بن محمد عبد الرحمن كان الله له".

التعريف بصاحب الخزانة الحسن بن سعيد البكري (ت 1286هـ/1869م):

ولد الحسن بن سعيد البكري بالزاوية البكرية سنة 1210هـ/1796م⁹، درس بمحاضرة العلم آنذاك ملوكة على يد الشيخ عبد العزيز البلبالي، وحصل منه على إجازة في جميع الفنون التي أخذها عنه¹⁰.

بعد رجوعه إلى الزاوية البكرية جلس للتدريس والإفتاء، حيث كان له مجلس علم تخرج على يده شيوخ وفقهاء، منهم: ابنه الشيخ محمد، والقاضي الحاج محمد بن عبد الرحمان، والشيخ البكري بن عبد الرحمن التلاني¹¹، وكان يقسم السنة القمرية إلى خمسة أزمنة، فيجلس ثلاثة أشهر للتدريس بالزاوية، ثم ينتقل ثلاثة أشهر أخرى للتدريس في بأقبلي في تيدكلت، ثم ينتقل للتدريس ثلاثة أشهر أخرى بأوقروت من إقليم قورارة، ويمكث شهرين بالزاوية لخدمة بساتينها، ويخصّص شهر رمضان للإقامة عند شيخه عبد العزيز البلبالي بملوكة، وقد كان كثير التنقل بين بلاد التكرور وتوات للتدريس والإفتاء¹²، وتذكر المصادر البكرية كثرة نسخه للكتب ليزود بها خزائنه.

له عدة مؤلفات وهي:

- غاية المنتظر وفتح الجليل في أصول بعض فروع مختصر خليل¹³.
- مخطوط في تراجم العائلة البكرية¹⁴.
- قصائد متعددة الأغراض، منها قصيدة يمدح فيها شيخه عبد العزيز البلبالي يقول في مطلعها:

ولما غدت سلمى تُرثقُ بالقنا فؤادي لم أسلو بهند وزينب

توفى الشيخ الحسن بن سعيد البكري سنة 1286هـ/1869م¹⁵ بالزاوية البكرية، وقد رثاه تلميذه وابن أخته الشيخ البكري بن عبد الرحمن بقصيدة جاء في أبيات منها:

ما لسعدى رمت فؤادي بلحظٍ وكؤتي بنار هجرٍ جهاراً

دراسة الوثيقة:

قبل الحديث عن الكتب المباعة من خزانة الحسن بن سعيد البكري، يجب التوضيح من خلال الوثيقة بأن الخزانة كانت تضم كتباً محبسة، لا يمكن للورثة بيعها ولا التصرف بها، لأن شرط المحبس سيد البكري بن عبد الكريم حسب الوثيقة أن تكون الكتب تحت تصرف من قرأ من حفدته، وبالرجوع إلى المصادر البكرية نجد في الكواكب البرية ما يسند هذا الكلام "...وكل الكتب حبس مبتل على الأولاد والأحفاد من الذكور حتى يرث الله الأرض، لكل الانتفاع بمكانهم، لا يمنع منها منتفع ولا يمكن مبتدع..."¹⁶. لكن نظراً لعدم التفاهم بين حفدة الشيخ حول شرط المحبس، مع علمهم بأحقية الحسن بن سعيد بالتصرف بها، كونه في هذه المرحلة أعلم حفدة سيد البكري. ويبقى السؤال المطروح أين ذهبت الكتب المحبسة بعد وفاة الحسن بن سعيد؟ وما مصير الكتب التي اشتراها العلامة أحمد بن البكري؟ خاصة إذا علمنا بأن هذا الأخير توفي بمتليلي، وأن الذي تسلم الكتب نيابة عنه كان والده البكري.

ومن خلال تسليط الضوء على قائمة الكتب التي بين أيدينا نلاحظ بأن الكتب لم تخرج عن المجال الديني واللغوي من فقه وحديث وتفسير وتصوف ومديح وعروض، أما من حيث الانتماء الجغرافي لأصحابها فنجد المؤلفات التواتية اقتصر

على أربعة منها، ثلاثة في النوازل والقضاء (نوازل عبد الكريم بن أحمد ونوازل الزجلاني ومعونة الغريم للجنثوري) وواحد في اللغة لابن أبي المزمري، ومعظم المؤلفات الأخرى تنتمي إما للمغرب بصفة عامة وفاس بصفة خاصة، وإما لاندلس، والبعض منها للمشرق. أما من حيث المرجعيات الفقهية والمذهبية فهي مالكية، ما عدا كتاب في الأصول لابن السبكي "جمع الجوامع" الشافعي، وكتاب الأشموني في اللغة، وكتاب آخر لابن حجر في شرح الهمزية، كما نجد ضمن الكتب موضوعات تختص بعلم التنجيم، وهو في الحقيقة على علاقة بعلم الفلك، الذي يهتم بحركة الكواكب والشمس والخسوف والكسوف.

تعتبر عملية تفسير المخطوط غاية في الأهمية، إذ أن تفسير الكتب يحفظها من الأضرار التي يمكن أن تلحق بها عبر الزمن، كما أن الغلاف يحفظ لنا معلومات عن تاريخ ومكان صناعته، غير أن الوثيقة أشارت فقط إلى كون المخطوط بسفر أو لا، وكونه يضم عنوانا واحدا أو عنوانين، وبخصوص قيمة المخطوط المادية وعلاقتها بالسفر فهي غير واضحة، إذ نجد المواق في سفر بثمانية مثنائيل، وحاشية بن غازي على خليل بسفر بمثنائيل واحد، وهذا الأمر يدفع بنا إلى القول أن تحديد ثمن الكتب يرجع أساسا إلى عاملين اثنين: الأمر الأول يتعلق بحجم المخطوط وعدد صفحاته، والأمر الثاني يتعلق بالقيمة العلمية للكتب.

قائمة الكتب المباعة:

الرقم	اسم الكتاب كما ورد في الوثيقة	اسم المؤلف	الثمن
1.	حاشية سيدي محمد بناني	محمد بن الحسن بناني الفاسي (ت1163هـ)	8 مثنائيل

2.	نوازل الزجاجاوي ¹⁷	محمد العالم بن أحمد الزجاجاوي التواتي (كان حياً سنة 1174هـ)	
3.	جميع النصف الثاني من الخطاب	أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيبي المغربي الشهير بالخطاب (ت954هـ)	8 مثاقيل
4.	ابن النجيب ¹⁸	/	5 مثاقيل
5.	نوازل بن هلال	إبراهيم بن هلال أبو إسحاق الفلالي السجلماسي (ت903هـ)	
6.	بعض من نوازل سيدي عبد الكريم ¹⁹	عبد الكريم بن أحمد التمنطيبي الأمريني (ت104هـ)	
7.	حاشية بن غازي	محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن غازي المكناسي (ت919هـ)	1 مثقال
8.	حاشية بن مجلة		4 مثاقيل
9.	المواق	محمد بن يوسف العبدري الغرناطي المالكي المعروف بالمواق (ت897هـ)	8 مثاقيل
10.	معونة الغريم للجنتوري ²⁰	عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري التواتي	1.5 مثقال
11.	نصف بن الناظم علي بن عاصم	ابن الناظم أبي يحيى محمد بن عاصم الأندلسي المالكي (ت857هـ)	
12.	نوازل حلولو	أحمد بن عبد الرحمن الزليطني القيرواني المعروف بحلولو (ت898هـ)	1.5 مثقال
13.	حكم ابن عطاء الله	ابن عطاء الله السكندري (ت709هـ)	
14.	ميارة الصغير علي ابن عاصم	محمد بن أحمد ميارة الفاسي المالكي (ت1072هـ)	1 مثقال

2.5 مثقال	محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري (ت321هـ)	المقصور والممدود ²¹	.15
	ضيف الله بن محمد بن أب المزمرى التواتي (1128هـ)	رحلة ضيف الله ²²	.16
	/	شيء من نسب الشرفاء	.17
	لها عدة شراح	شرح الخزرجية	.18
	ابن غلاب عبد السلام بن غالب القيرواني المالكي (ت646هـ)	اختصار زهر الانيق	.19
1.5 مثقال	لها عدة شراح	شرح التلمسانية على الفرائض ²³	.20
	علي بن محمد بن علي القلصادي الغرناطي (ت891هـ)	شرح القلصادي	.21
2.5 مثقال	عبد الواحد بن محمد بن علي ابن أبي السداد المالقي الأندلسي (705هـ)	الدر النثير	.22
	(الشاذلي-عبد القادر الجيلاني)	شرح الحزب الكبير	.23
		بعض من النوازل	.24
	أبو القاسم بن سعيد العميري الفاسي (ت1178هـ)	بعض من العميري	.25
1 مثقال	علي بن محمد بن محمد بن خلف بن جبريل المنوفي المالكي 939هـ	شواهد الأجرومية	.26
	وجود عدد من المؤلفات بهذا العنوان	معين الحكام	.27

1مثقال	أحمد بن محمد بن يوسف التحيبي المعروف بابن البنّا السرقسطي(ت721هـ)	المباحث الأصلية ومعها أوراق داخلون في الاشترء	.28
3مثاقيل	أحمد بن علي بن عبد الله الفاسي المعروف بالمنجور (ت995هـ)	المنجور	.29
	محمد بن أحمد ميارة الفاسي (ت1072هـ)	تكملة المنجور	.30
	علي بن قاسم بن محمد التُّحيبي، المعروف بالزقاق الفاسي (ت912هـ)	قواعد المذهب	.31
	محمد بن أب المزمري التواتي (ت1160هـ)	شرح ابن أب ²⁴ على الهمزية ²⁵	.32
2مثقال	أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي المالكي(ت914هـ)	المنهاج الفائق	.33
	إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت799هـ)	بعض من الديقاج ²⁶	.34
1.5 مثقال	محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (ت672هـ)	ألفية بن مالك	.35
	/	بن سعيد	.36
	عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي (ت1096هـ)	العمليات للفاسي وطرر عليها وأوراق	.37
1 مثقال	داود بن علي بن محمد الغلطاوي الأزهري المالكي (ت902هـ)	الشيخ داود على الرسالة	.38
	/	تحفة الخطاب في قواعد الاعراب ²⁷	.39

40.	بعض من الأشموني	علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأشموني المصري الشافعي (ت900هـ)
41.	بن الجلاب	عميد الله بن الحسين بن الحسن أبو القاسم ابن الجلاب المالكي (ت378هـ)
42.	شرحان على لامية الجمل ²⁸	/
43.	شرح بن حجر على الهمزية	أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي الشافعي(ت974هـ)
44.	الازهري على البردة	خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري المعروف بالوقاد(ت904هـ)
45.	شرح على الآجرومية	/
46.	النصف الثاني من جواهر الحسان	عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي الجزائري
47.	ثلاثة أجزاء من البيان والتحصيل	محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي (ت520هـ)
48.	حاشية ابن ناجي على الرسالة	قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني (837هـ)
49.	النصف الثاني من جواهر بن شاس	أبو محمد جلال الدين عبد الله بن نجم بن شاس (616هـ)
50.	شرح دلائل الخيرات والحاشية التي على دلائل الخيرات لسيد عبد الرحمن الفاسي	عبد الرحمن بن أبي عبد الله الفاسي (1036هـ)
51.	جمع الجوامع لابن السبكي	عبد الوهاب بن علي السبكي تاج الدين

	الشافعي (ت771هـ)		
52.	شرح التفتزاني	سعد الدين التفتزاني (ت792هـ)	
53.	شرح السلم	سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري (ت1041هـ)	
54.	الجامع الصغير للسيوطي	عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت911هـ)	2 مثقال
55.	شرح مقصورة بن دريد	محمد بن أحمد بن هشام اللخمي (ت577هـ)	1.5 مثقال
56.	رسائل بن الخطيب	لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)	
57.	شرح تصلية مولاي عبد السلام بن مشيش	لها عدة شراح	
58.	شيئاً من علوم التنجيم	/	
59.	شرح على الدرر اللوامع لابن بري	علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسين، الشهير (ابن بَرِّي) (ت730هـ)	1 مثقال

تحفظ لنا الوثيقة في الشق الاجتماعي العديد من المعلومات، من بينها وجود زوجة واحدة حرة ملك يمين شيخ الزاوية الحسن بن سعيد بن عبد الكريم، وهو ما استنتجته من قوله "...زوجة حياته الحرة الجليلة..." وزوجة شيخ الزاوية المسماة عائشة بنت أحمد بن عبد الكريم بن محمد البكري هي وحيدة أبيها، تلتقي مع زوجها (ابن عمها) في جدهما عبد الكريم.

ويمكن ملاحظة أيضا المكانة التي وصلت إليها المرأة والحقوق المكتسبة داخل المجتمع التواتي بصفة عامة وداخل الزاويا بصفة خاصة، فمن خلال الوثيقة محل الدراسة نجد إشارات واضحة لحقوق المرأة التواتية، على غرار حقها في تملك الأموال -عينا ونقدا - والتصرف فيها بالبيع والشراء والإقراض والاقتراض وهذا ما نلمسه في قوله "...وصارت الكتب بذلك التصيير المذكور ملكا لها" وأيضاً "... فظهر الآن للمالكة المذكورة أن تباع منها ما تستوفي به بعض الديون بذمة نجلها المذكور وبذمتها...". وفي قوله "...فاشترى منها على بركة الله تعالى..." وأيضاً في "...فيما قضت عنه من الديون..." وفي قوله "...تولت البائعة قبض الثمن..."، ومن صور التضامن العائلي الوارد في العقد بين الزوجة وزوجها من جهة وبين الأم وابنها من جهة ثانية هو محاولة الزوجة -والأم في نفس الوقت- التخفيف من الديون المترتبة على الزوج أول الأمر، ثم على الابن بعد وفاة الزوج، ومما يعضد هذا ما جاء في العقد "...فيما قضت عنه [الزوج] من الديون لبعض غرمائه..." أما ما كان بخصوص الابن فقد ورد في نص الوثيقة "...ما تستوفي به بعض الديون بذمة نجلها المذكور، وبذمتها...".

أما الأهمية التاريخية والعلمية للوثيقة تظهر من خلال تحديد بعض الشخصيات العلمية التي يصفها كاتب العقد بصيغة "الفقيه والعلامة"، وهو ما وقفنا عليه في موضعين الأول: عندما ذكر خاله بقوله "...الفقيه العلامة خالنا وشيخنا سيدي محمد الحسن نجل البركة المرحوم جدنا سيدي سعيد..."، والموضع الثاني: في تحديد طرف الثاني للعقد (المشترى) بقوله "...البركة الفقيه العلامة سيد احمد نجل البركة سيد البكري..."، وقد ترجمنا للأول في ذكر صاحب الخزانة، أما الثاني: فهو الشيخ أحمد بن البكري بن المبروك بن محمد الصالح بن محمد البكري، تتلمذ بالزاوية البكرية على يد ابن عمه الشيخ الحسن بن سعيد إلى جانب سيد البكري بن عبد الرحمن، انتقل إلى

متليلي بنواحي غرداية وأسس هناك زاوية جلس بها للتدريس. وما اشتراه من الكتب بواسطة والده وهو في الغربية إلا دليل على نبوغه العلمي، وفي آخر عمره أصيب بمرض أقعده الفراش، وأثناء مرضه هذا أرسل لوالده البكري رسالة يصف حاله مع المرض، توفي في بداية القرن 20م²⁹.

ومن الشخصيات البارزة في الوثيقة الشيخ البكري بن عبد الرحمن التلاني (ت1339هـ) -محرر الوثيقة- هو ابن أخت شيخ الزاوية، ولد وعاش بالزاوية في بيئة علمية صالحة حيث تعلم على يد والده ثم عند خاله الشيخ الحسن بن سعيد، الذي كان يعد أفقه شيوخ العائلة البكرية في تلك الفترة، حيث درس عنده لمدة سنتين، ثم انتقل بعدها إلى بلدة كالي 30 بتميمون عند الشيخ مولاي عبد الحاكم بن عبد العالي بن محمد ولازمه إلى غاية وفاته، جلس الشيخ البكري بن عبد الرحمن للتدريس بالزاوية البكرية خلفا لخاله الشيخ الحسن بن سعيد كما خلف الشيخ البكري بن عبد الرحمن تراثاً متنوعاً وضخماً من الكتابات المتعددة الأغراض، جمعت في ديوان من أربعة أجزاء، يعود له الفضل في إعادة نسخ عديد الوثائق الخاصة بالزاوية³¹.

أما قضية الديون المترتبة على شيخ الزاوية ثم على ابنه متولي الأمر من بعده، فمن خلال الوثائق المحلية التي اطلعت عليها، يمكن حصر أسبابها في الأعباء الاجتماعية التي كان يتحملها متولي مشيخة الزاوية، وفي ظل تراجع مداخيل الزاوية من أوقافها، نتيجة الظروف الطبيعية أو انهيار الفقارة، أو بسبب أمواج الجراد المتعاقبة، مع وجود سبب مباشر تمثل في هجمات الأعراب (العرب البدو الرحل) على الزاوية والاستيلاء على مدخراتها، فشهدت ضائقة مالية خانقة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، وكل هذا نقف عليه في مخطوط الكوكب الدرّي للشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن³² يحدد بعض من هذه الأسباب "قوله: "... وقد صدق الولي

الصالح سيدي عبد القادر المذكور [شيخ زاوية سيدي عبد القادر بفنوغيل] فيما يلحق أهل الزوايا من العموم التواتية فإن أهل الأصقاع سوى توات من البوادي والحواضر كانوا يكرمون أهل الزوايا ويعظمون حرمتهم ويدافعون عنهم ولو بالنفس والمال ويجعلون لهم الضرائب في أموالهم ويهادونهم بما قدروا عليه، وقصدهم من الزوايا البركة وأما عموم توات فإنهم لا يدافعون عن زواياهم... فترى أنوفهم شامخة على المرابطين، يكلفونهم في الإطعام بما لا يطيقون عليه، ومنهم من يضرب أهل الزوايا ومنهم من ينهبهم ولا يأتون الزاوية إلا بسبعة أمعاء مفتوحة... حتى أوقفوها على التلاشي...".

وهذه النظرة دليل واضح على الأسباب التي ساهمت بقسط وافر في تراجع مداخل الزاوية البكرية، مع بقاء نفس الأعباء الاجتماعية (إطعام الطعام والصلح بين المتخاصمين ومساعدة المحتاجين) التي يتحملها شيخ الزاوية، ومما زاد الطين بلة ما شهدته توات من هجمات الأعراب، فلم تسلم منه الزاوية البكرية كحال بقية زوايا الصقع التواتي، ففي سنة 1275هـ/1859م أغار الأعراب على زاوية تنلان³³ وأخذوا 22 نفساً، منهم عبيد وموالي، وانتقلوا منها إلى الزاوية البكرية فأخذوا ما يمكن حمله من أموال وطعام³⁴. ويمكن اعتبار هذه الأسباب الدافع المباشر لشيخ الزاوية من أجل الاقتراض لتلبية جزء من الأعباء الاجتماعية للزاوية.

وفي الجانب الاقتصادي جاءت الوثيقة موضع الدراسة لتحديد لنا نمط المعاملات التجارية الخاصة بالبيع والشراء، حيث ومن خلال دراسة هذا العقد يتضح بأن المثلث³⁵ كان العمل جارياً به خلال هذه المرحلة، لكن يبقى السؤال المطروح ما هي قيمة المثلث³⁶؟ وما العملات الأخرى التي كانت إلى جانبه بتوات؟ ومن خلال الإطلاع على بعض النوازل والتقييد المحلية نجد بأن المثلث الذهبي والفضي بتوات كان عملة متعارفاً عليها، تتم به معظم المعاملات، حيث جاء في مراسلة بعث بها تاجر

تواتي إلى آخر من تافيلالت جاء فيها "...فإن سألت عن أرضنا وما كان فيها غالبا أو رخيصة، فإن سألت عن الخديم رخيصة، والذهب مثقالين [الفضة] وأربعة عشرة موزونة للمثقال [الذهبي]..."³⁷ ، وإلى جانب المثقال كانت هناك عملات أخرى يجري التعامل بها في توات وردت في كتب النوازل منها: الدرهم والفلس والريال والموزونة³⁸ ، وفي شرح الجنتوري لمعونة الغريم ذكر نقود نحاسية كان يتم التعامل بها في منطقة قورارة دون سواها من البلاد التواتية تسمى بـ"الفرافر"، ومما جاء في قوله: "...وهو كل في تجوارين، وهم المبتلون بهذه الفرافر، وأما أهل توات فهم براء من ذلك، والفرافر دراهم صغار مغشوشة بنحاس والموزونة الاسماعلية طيبة..."³⁹ .

وفي المغرب أطلق المثقال والدينار معا على القطعة النقدية الذهبية، لكن منذ الإصلاح النقدي سنة 1766م الذي قام به السلطان المغربي محمد بن عبد الله، تم ضبط المصطلحين حيث أطلق الدينار على القطعة الذهبية والمثقال على القطعة الفضية من عشرة دراهم. والمثقال الفضي يساوي 10 أوقية وكل أوقية تساوي أربع موزونات، وهذا هو ما كان متعارف عليه في المغرب خلال القرن 19م⁴⁰ .

ومن خلال التعاملات المالية المذكورة آنفا يمكن استنتاج بأن أسعار الكتب حددت بالمثقال الفضي، سكة الوقت كما جاء في نهاية الوثيقة ما نصه "...دراهم سكة تاريخه..." ، وعليه يمكن اعتبار أن كل مثقال ذهبي يساوي مثقالين و14 موزونة بناء على الوثيقة السابقة، وأن مجموع ثمن الكتب وصل إلى 84.5 مثقال، وبعملية حسابية بسيطة معتمدين على المعطيات السابقة يمكن تحديد الثمن الكلي للكتب بالمثقال الذهبي بـ 36 مثقالا، وهو ما يعادل 153 غ من الذهب، وحسب عملية صرف العملات حاليا فالمبلغ الذي حدد للكتب يبين مدى القيمة والأهمية المالية للكتب آنذاك من حيث اعتبارها سلعة ثمينة توظف في المعاملات التجارية والمالية.

الخاتمة:

من خلال دراسة هذه الوثيقة الخاصة ببيع كتب خزانة الزاوية البكرية، يتضح لنا بأن خزانة البكرية تلاشت ليس بفعل العوامل الطبيعية فقط، وإنما بسبب توزيع مخطوطاتها بين فروع العائلة البكرية، إضافة إلى استعمالها كسلعة ذات قيمة مادية لتسديد الديون المترتبة على عاتق شيخ الزاوية، أما من حيث الأهمية العلمية التاريخية للوثيقة فقد حفظت لنا أسماء شخصيات علمية ساهمت في الحركة العلمية خارج توات لازالت مغمورة كالعلامة أحمد بن سيد البكري، وحفظت لنا أيضا عناوين الكتب والمستوى العلمي لكل من البائع والمشتري، وإذا أتينا إلى الشق الاجتماعي فهو الآخر نلمسه في الوثيقة من خلال معاناة شيخ الزاوية من الأعباء الاجتماعية للزاوية الأمر الذي دفع به إلى الاقتراض وتسوية تلك الديون ببيع كتبه لعدم وجود سلعة ذات قيمة يمتلكها يمكن أن تحل محل الكتب، ومن القيم الاجتماعية التي تعكسها الوثيقة ظاهرة التكافل الاجتماعي داخل الأسرة من حيث تكفل الزوجة بدفع ديون زوجها وابنها معاً، وجعل أموالها صندوقاً مالياً احتياطياً للزوج يستعمله وقت الحاجة، وبخصوص الأهمية الاقتصادية فإن الوثيقة رصدت لنا أسعار الكتب والعملية المستعملة في البيع والشراء بتوات.

الملحق رقم: 01



وثيقة (عقد) بيع كتب خزانة الحسن بن سعيد البكري

الهوامش:

¹تأسست الزاوية البكرية سنة 1112هـ علي يد مؤسسها سيد البكري بن عبد الكريم(ت1133هـ) بن محمد التمنيطي بتمنيط، وبعدها أتم عقد الشراء والتحييس أمر ابنه محمد ببناء الزاوية في الارض المذكورة والسكن بها وإطعام الطعام بها في سبيل الله وذلك سنة 1117هـ. للمزيد حول الزاوية أنظر: عبد الله بابا: الزاوية البكرية ودورها الثقافي والاجتماعي باقليم توات 1112-1421هـ/1700م-2000م، جامعة أدرار، الجزائر: 2013، معظم الصفحات.

² هو سيد البكري بن عبد الكريم بن محمد الأُمري التمنظيطي ولد بتمنظيط في تاريخ 12 رمضان 1042هـ، وذلك بعد وفاة والده بأربعين يوماً، أخذ العلم عن محمد بن علي النحوي الوجروقي والشيخ بن معروف الهبلاوي، والشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري وأخذ طريقة القوم في التصوف عن الشيخ محمد بن عمر البداوي، تولى قضاء الجماعة التواتية 1092هـ، وجلس للتدريس والافتاء بتمنظيط، كما أسس زوايا عديدة داخل توات وخارجها، في آخر عهده مال إلى التصوف، توفي سنة 1133هـ. للمزيد انظر: محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق: الكواكب البرية في المناقب البكرية، مخطوط (لم يحقق)، خزنة أولاد القاضي، تمنظيط، ادرار، الجزائر: ص 24. وينظر أيضا لنفس المؤلف: جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء الألف الثاني (لم يحقق)، خزنة أولاد القاضي، تمنظيط، ادرار، الجزائر: ص 11. وينظر كذلك: محمد العالم بكرأوي: الدرّة البهية في الشجرة البكرية، مخطوط (لم يحقق)، الخزنة البكرية، تمنظيط، ادرار، الجزائر: ص 50 وما بعدها.

³ محمد بن عبد الكريم: الكواكب البرية، المصدر نفسه، ص 27.

⁴ ابن بابا حيدة محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم: القول البسيط في أخبار تمنظيط، تح: فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1977، ص 17.

⁵ مقابلة شخصية مع الشيخ الحاج عبد الرحمن بكرأوي، بتمنظيط، يوم الأربعاء 21/09/2016، على الساعة 17 مساءً.

⁶ محمد بن عبد الكريم: الكواكب البرية، المصدر السابق، ص 27.

⁷ يتميز هذا المصحف بهندسة إنشائية بديعة، كل آية مشكولة بشكل مثلث، وكل خمس آيات مشكولة بشكل الهاء الواقفة، وكل عشر آيات مشكولة بشكل خاتم مدور، وقد تمّ توظيف ألوان حمراء وخضراء وصفراء تسر الناظرين، وقد أحضره الشيخ عمرو بن محمد معه من مدينة فاس إلى توات، وعندما سافر إلى بلاد الساحل خلفه عند ولديه ميمون والتهامي بتمنظيط. انظر: محمد بن عبد الكريم: المكان نفسه.

⁸ المكان نفسه.

⁹ تقييد بيد الحاج عبد الله بكرأوي، قصر غوزي، أدرار.

- ¹⁰ محمد العالم بكرأوي: ترجمة وجيزة لبعض علماء إقليم توات، خزانة محمد العالم، المنبعة، الجزائر، ص48.
- ¹¹ المكان نفسه.
- ¹² فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1977، ص105.
- ¹³ توجد نسخة منه بيد الحاج عبد الله بكرأوي، قصر غوزي، أدرار.
- ¹⁴ توجد نسخة منه بخزانة سيد أحمد ديدي البكري بتمنطيط.
- ¹⁵ محمد العالم بكرأوي: الدرة البهية، المصدر السابق، ص113. غير أن تقييد بيد الحاج عبد الله بكرأوي يرجع وفاته إلى 1292هـ/1875م.
- ¹⁶ محمد بن عبد الكريم: الكواكب البرية، المصدر السابق، ص27.
- ¹⁷ هو الشيخ محمد العالم بن أحمد بن محمد بن أبي بكر الزجلأوي من آل علي بن حنيني (كان حياً سنة 1174هـ)، أخذ العلم عن والده وعن شيوخ عدة خارج توات منهم: أحمد بن ناصر الدرعي، محمد بوكلك التلمساني، والجيلالي بن احمد المزغرائي، له تعليقات على شرح السنهوري على المختصر، وأجوبته المعروفة بـ "نوازل الزجلأوي" وهي محققة في إطار رسالة دكتوراه جامعة الأمير بقسنطينة، من طرف الدكتور محمد جرادي. انظر ترجمته: محمد العالم الزجلأوي: نوازل الزجلأوي: تح ودرأ: محمد جرادي، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر: 2010-2011م، ص ص78-92.
- ¹⁸ لم أعر على ترجمة لابن النجيب لكن عثرت على تحقيق على أعماله بعنوان: تحفة اللبيب في جمع الطرر المعلقة على شرح ابن النجيب، تحقيق الحاج ابن عبد الرحمان البلبالي
- ¹⁹ هو عبد الكريم بن أحمد بن أبي محمد بن أحمد بن ميمون بن عمرو الأبريني. ولد بتمنطيط سنة 994هـ وقيل سنة 1002هـ، لقبه الرحالة أبو سالم العياشي في رحلته بـ "عالم توات، له تأليف عديدة، توفي سنة 1042هـ. أنظر ترجمته: محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المصدر السابق، ص22.

²⁰ هو أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري، أخذ العلم على يد الشيخ عبد العالي ثم على يد الشيخ عمر بن عبد القادر التتلاي، من تلامذته عبد الرحمان بن عمر التتلاي. كان يقول لا نفتي بين الخصماء إذا حضروا لدي إلا بالنص الصريح، من مؤلفاته نوازل الجنتوري ومعونة الغريم في بعض أحكام قضاء الدّين، توجه لأرض الحجاز لأداء فريضة الحج سنة 1150هـ، توفي يوم 05 جمادى الأولى سنة 1160هـ/1747م. عبد الرحمن بن عمر التتواي: فهرسة عبد الرحمن بن عمر التتلاي التتواي، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بعثمان، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، جامعة بشار، الجزائر: 2008/2009، ص 48-49.

²¹ وضع عليها ابن أب المزمري التتواي شرحاً.

²² هو ضيف الله بن محمد بن أب المزمري التتواي الجزائري، ولد سنة 1128هـ/1716م، أخذ العلم عن والده العالم المشهور، خلف عدة مؤلفات منها: رحلتي لزيارة قبر الوالد، وقد وضع الدكتور أحمد جعفري تحقيقاً ودراسة لهذه الرحلة، كما له قصائد شعرية عدة، توفي سنة أواخر القرن 12هـ. انظر ترجمته: عبدالله مقلاتي ومبارك جعفري: معجم أعلام توات، دار السبيل، الجزائر: 2013، ص 173.

²³ وضع عليها شرحاً محمد بن محمد العالم الزجلوي المتوفى سنة 1212هـ.

²⁴ محمد بن أب المزمري التتواي المتوفى 1160هـ/1747م، كان رحمه الله فقيهاً، أديباً، نحويّاً، لغويّاً، تصنيفيّاً، عروضيّاً، أخذ عن علماء عدة داخل توات وخارجها، له مؤلفات عدة منها: نظم على الأجرومية، وشرح على لامية ابن المجراد في الجمل، انظر ترجمته: عبد الرحمن بن عمر: المصدر السابق، ص 136-141.

²⁵ وضع لها الطالب أحمد مزابني تحقيقاً في إطار نيل شهادة الماجستير من جامعة الشلف بالجزائر سنة 2008/2007م.

²⁶ يمكن أن يقصد بالديباج هنا كتاب أحمد بابا التمبكتي (ت1036هـ) نيل الإبتهاج بتطريز الديباج.

- ²⁷ لم أعتز على المعلومات الخاصة بالكتاب.
- ²⁸ وضع كل من عبد الكريم بن محمد التواتي (ت1042هـ) وابن أب المزمري التواتي شرحاً للامية..
- ²⁹ عبد الله بن عبد السلام بكرأوي: مقابلة شفوية، بالزاوية البكرية، يوم الأربعاء 2016/09/22، على الساعة 17 مساءً.
- ³⁰ كالي إحدى قرى مقاطعة أولاد سعيد بتميمون وتبعد عنها ب 30 كلم ناحية الشمال.
- ³¹ عبد الله بكرأوي: المصدر السابق.
- ³² البكري بن عبد الرحمن التتلاي : الكوكب الدرّي في مناقب سيدي محمد بن البكري، الخزانة البكرية، تمنطيط، أدرار، الجزائر، ص02.
- ³³ تأسست زاوية تنلان على يد الشيخ أحمد بن يوسف سنة 1058هـ/1648م، وسماها "رزق الله الواسع والنور الساطع" . انظر: محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، ج1، ص33.
- ³⁴ محمد بن عبد الكريم: تقييد حول تاريخ توات وتمنطيط، مخطوط (لم يحقق)، خزانة أولاد القاضي، تمنطيط، أدرار، الجزائر، ص ص7-8.
- ³⁵ المثقال كما عرفه المقرئزي بقوله: "...والمثقال: اسم لما له ثقل كبير، أو صغر، وغلب عرفه على الصغير، وصار في عرف الناس اسماً للدينار، والله أعلم". أنظر : تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي: كتاب الأوزان والأكيال الشرعية، سلطان بن هليل المسمار، دار البشائر، بيروت، لبنان: 2007، ص62.
- ³⁶ وجاء في الغنية أن المثقال عند أهل توات زنة 72 حبة شعير لوزن الذهب، ويقابل ثمانية عشر قيراط . انظر محمد بن عبد العزيز البلبالي: نوازل الغنية البلبالية (غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل)، جمع عبد العزيز البلبالي . مخطوط بخزانة سيد أحمد ديدي ، تمنطيط ، أدرار، ص68.
- ³⁷ وثيقة بيد الإمام أحمد بن محمد بن حسان، عريان الرأس، تسايت، أدرار ، الجزائر

³⁸ محمد جرادي: الحالة الاقتصادية لإقليم توات في القرنين 11 و 12 الهجريين من خلال كتب النوازل، أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار وتيارت، 14-15 ابريل 2009، ص 366.

³⁹ عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري: شرح معونة الغريم، مخطوط بخزانة الحاج أحمد الشيخ، انزجيم، ادرار الجزائر، ص 13.

⁴⁰ عمر أفا: النقود المغربية في القرن الثامن عشر أنظمتها وأوزانها، منشورات كلية الآداب بالرباط، المغرب: 1993، ص 170.

University of chahid hamma lakhdar. El-oued. Algeria



JOURNAL OF EL MAAREF

For researches and historical studies

Periodical and international refereed journal



جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي
Université Echahid Hamma Lakhdar - El-Oued